

95  
K96

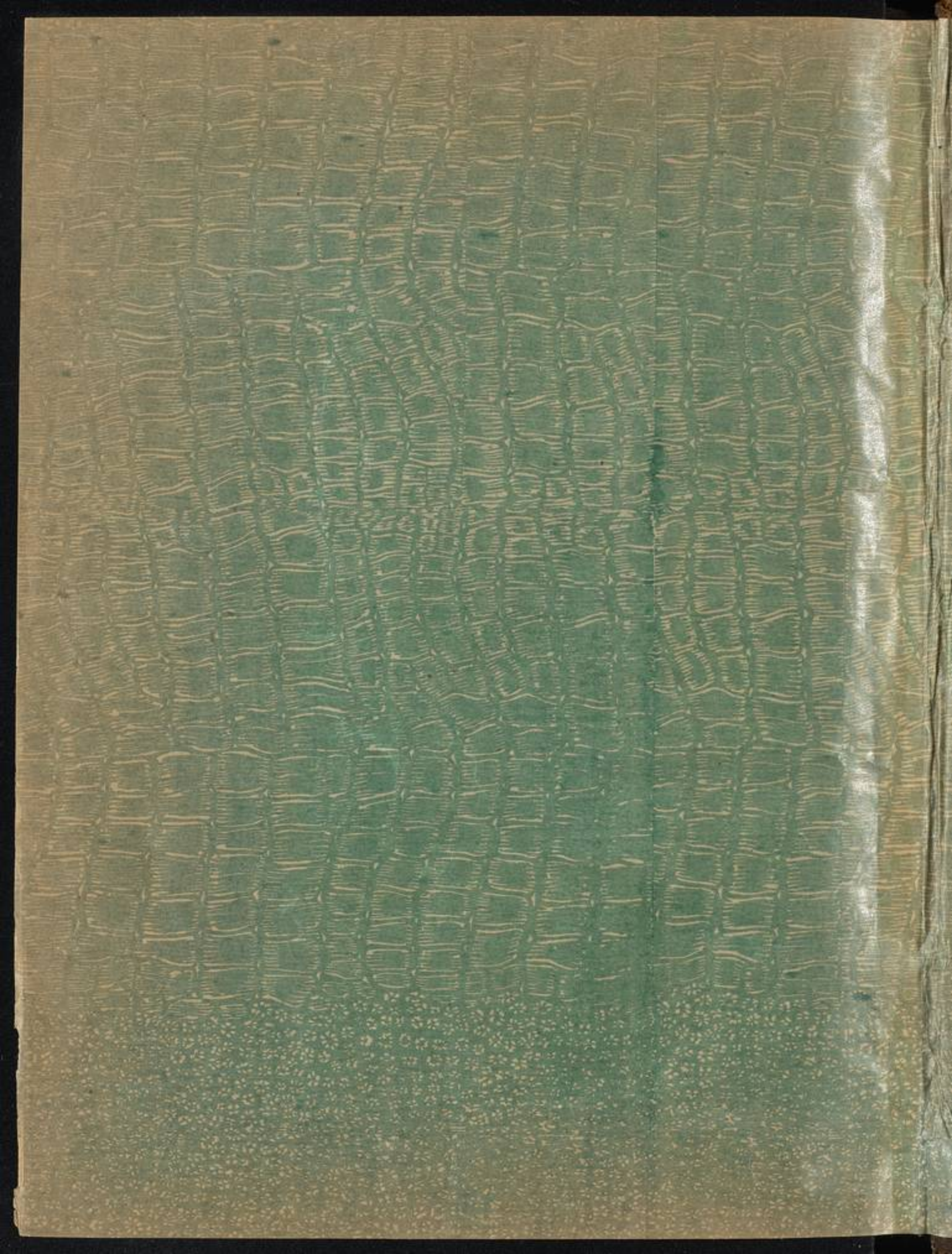


Columbia University  
in the City of New York

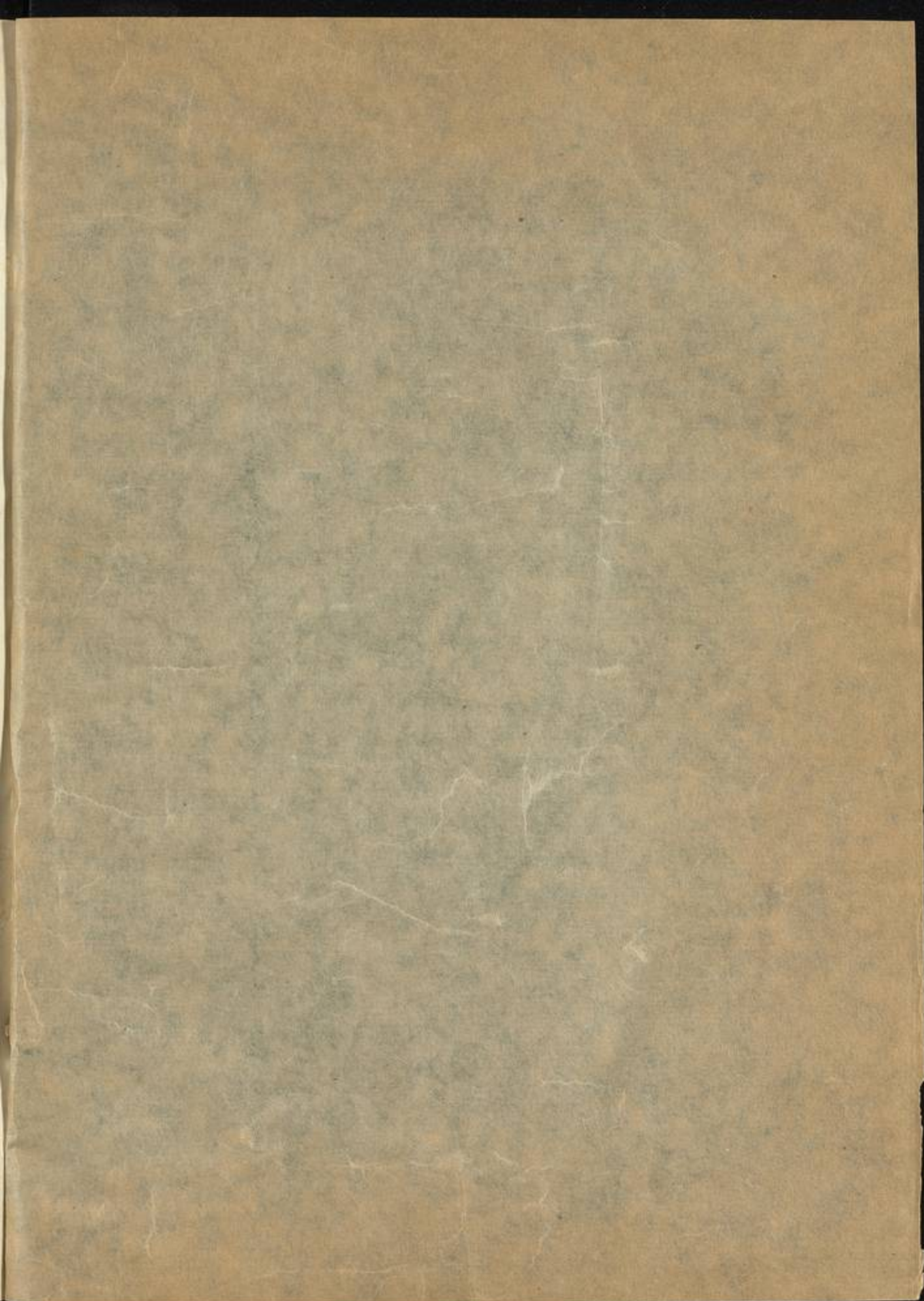
THE LIBRARIES









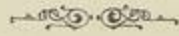




ع

كتاب  
خطب الشهاب

الجزء الخامس



تأليف

محمد علي

رئيس المجمع العلمي العربي



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع في مطبعة الترنق في دمشق ١٢٤٦ هـ و ١٩٢٧ م



956.9  
K 9654

v. 5



# التاريخ المدني

— ٥٤٥ —

## الجيش

جيوش الاشور بين } لم تغلب القبائل الاولى التي كانت تسكن الشام  
والفراعنة والعبرانيين } على امرها ، الا يوم جاءها من اشور جيش منظم  
في الجملة اغار عليها واستصفي بلادها ، واذا عرفنا ان الاشور بين عرفوا بسفك الدماء ،  
وانهم طالما امروا شعوباً برمتها ، وانهم يعتقدون في ملوكهم الخلافة عن الله في  
الارض كما كان الروس والعثمانيون يقولون بذلك الى عهد قريب — ندرك مبلغهم من  
الطاعة ، وان الأرواح كانت نهب صاحب الشأن ، يُنهبها كما يشاء ، وبصرفها في  
السبيل التي يراها . والدولة التي تستطيع ان تأمر أمة بأمرها ، تجيش جيشاً مهياً  
يستميت في قيام أمرها ، وبطبيع قواده طاعة عمياء .

كان الاشوريون او الكلدان بغزون في فصل الربيع من كل عام ، وسلاحهم  
لرمح والسيف ، والترس والدرع ، والقوس والنشاب والعربات ، واخترعوا آلات  
لافتتاح المدن والقلاع . يقسمون جيوشهم ثلاث فرق ، فرقة المشاة وهم القواسم ،  
وفرقة الفرسان وهم الزمامة ، وفرقة راكبي العربات الحربية وهم حاملو السيوف  
والاتراس . وكانت الاوامر تصدر الى القواد من الملك مباشرة ، وتبلغ الى من يلزم  
على نظام غريب ، ولم يؤثر ان تغلب الجيش الاشوري ولا في وقعة واحدة . ومن  
هذا الجيش ذاق الشام ايام استيلاء الاشور بين عليها القهر والنيل .  
وكان الفراعنة الذين امتد سلطانهم على بعض ارجاء القطر زمناً يُحجّون



أحياناً من الشاميين ، ولكننا لانعرف كيف كانوا يجندون ، وقد ظهرت نماذج من أنظمتهم الحربية عرفناها بما حفظ من آثارهم في المتحف المصري . وكانوا الى العزايام تماسك جيوشهم ، والى الدل اذا ضعف نظامهم في جندبتهم ، مثل ايام ملوك الرعاة المعروفين بالهيكسوس وهم العرب او العالقة .

واشتهر العبرانيون اولاً أنهم أمة حربية ، وكان لكل سبط من أسباطهم حامية او جيش صغير يدفع به عدوه ، وقد لا يكون من الاسباط الأخرى . ولذلك كان بأسهم بينهم على الأغلب ، فكان العبراني أسداً على نفسه وعلى أبناء جنسه ، ونعامه يوم يوافيه الغريب ، يؤثر ان يرأم للذلة ، على ان يرخص روحه في الذود عن حماه . وكان بقاء الشعب الاسرائيلي في التيسه على عهد موسى الكليم سنين طويلة من الحكيم التي قصد بها انقراض شيوخهم المستضعفين ، و تربسة الشبان على الأخلاق الحربية ، فتجدد شباب هذه الامة بهذه الرحلة الطويلة . ولما جاءت جيوش بُنْت نُصْر الفارسي وادر يانوس الروماني الى فلسطين اذقت ابناء اسرائيل الويلات ولم يغن عنهم ماجيشوه من الجيوش ، ولا ما كتبه من كتابهم .

\*\*\*

جيش اليونان	} كانت جيوش جميع الامم القديمة كما هو الحال عند والرومان
والرومان	

بعض الامم الحديثة ولا سيما المستعمرة اخلاطاً من الشعوب وأجيالاً من الناس . والامة التي يكون جيشها من عنصر واحد او سواده الاعظم منه تكتب لها الغلبة على الأكثر ، ويكون نظامها أتم وتحمسها في النيل من العدو أكثر ، وما نظن ان الجيش الذي جاء به الاسكندر المقدوني الى هذه الديار وهو لا يتجاوز الثلاثين الف راجل واربعه آلاف وخسمائة فارس ، الا مؤلفاً من عنصر واحد ، وهو الجيش الذي غلب الفرس على كثرة جيوشهم وفضى على دولتهم وسلطانهم .

وكان جيش الاسكندر أحسن جيش عهد سيف بلاد اليونان ، ويتألف الجحفل اليوناني من ١٦ الف من الرجال مصنوفين الوقاً الوقاً ستة عشر صنفاً يحمل كل واحد منها رمحاً طوله ستة أمتار ، وكانت المقدونيون لا يسبرون في ساحة الوغى الى جهة



العدو ، بل يقفون ولاحرك بهم ، و يضربون عدوهم برماحهم من كل جانب ، فيرفع جنود المؤخرة رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الاولى ، بحيث كان الجيش يشبه حيواناً عظيماً قد انصب وعليه الحديد ، والعدو يداهم فيتحطم ، والجيش مؤلف على الأظب من خيار فتيان الأشراف .

واشتهرت الجيوش الرومانية بشدتها وحسن نظامها ، وما نظن رومية الا كانت تجند من أبناء هذه البلاد كثيراً ، لان الشام أنبت عدة رجال غدوا امبراطرة وقواداً في رومية ، فيستحيل ان لا يشترك أبناؤها في جنديتها ، وان لا تكون منهم الكتائب المنظمة والمتطوعة او المستأجرة على شروط معينة ، خصوصاً والشام كانت ولاية رومانية . وكان يقضى على كل من يدخل الجيش الروماني ان يكون وطنياً رومانياً وان يكون له مورد ثروة ليجهز نفسه بالسلاح وبأكل ولبس ، و يعفى الفقراء من هذه الخدمة . وكان من له حق التجند تبعاً لقائده من سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعين ، فكان كل فرد في رومية كما كان في المدن الرومانية وطياً وجندياً معاً ، ومضى احتاجت الدولة الى الجند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين فيأتون ويحلفون بيمين الاخلاص والطاعة للقائد ، ويتعهدون ان يقاتلوا دون أعلامهم ، و يحق للقائد ان يقتل جندياً او يبقي عليه . فلا يستطيع جندي ان يفر من الزحف او يتزحزح عن محله الا بأمر قائده ، وسلاحهم الرماح والسيوف ويستعملون الدروع والخوذ والاتراس ويمرنون أبداً جنودهم في إنشاء الطرق والجسور والحجاري ، اذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه او متاريس يقيمونها .

\*\*\*

الجيش العربي } ولقد فتح الجيش الروماني أعظم مملكة في العصور السالفة ،  
مع الرومي } ايام كانت قوته تامة ، ورابطته متينة ، وقيادته موحدة ،  
فلما ضعفت ميزاته ، انحلت المملكة وانقسمت الى مملكتين : مملكة الروم الشرقية  
وعاصمتها القسطنطينية ، ومملكة الروم الغربية وعاصمتها رومية . وكان نصيب هذه البلاد  
ان تقع في حصة المملكة الشرقية في القسمة . وهذه المملكة التي حاربتها جيوش  
العرب لما جاءت لفتح الشام .



وكان الجيش الرومي الذي قاتل العرب على اليرموك وفي دمشق ونخل وأجنادين وقيسارية وبيسان وفسرين وابلياء مؤلفاً من الروم ومن العرب المنتصرة ومن الارمن، وجمهرته الروم، واذ كان جيشاً مرتجلاً لم يدرب زمناً، وكانت جيش العرب روحاً واحداً، كتبت له الغلبة على قلته وكثرة عدد اعدائه وعُددهم، فنال الجيش العربي من الروم، وان كانوا لاول امرهم مشهورين بالطاعة لسادتهم، ولما جاءتهم العرب كان امرهم قد انحل، وميزاتهم قد ضعفت، بل أصبح جيشهم مثال الجيوش المنفضة، ووقعتهم على الواقعة مع العرب من أدهش أمارات الضعف والغفلة.

كان الجيش العربي مشهوراً بنظامه وطاعته لقواده، ومهارة هؤلاء وحكمتهم، وكانت للعرب عناية خاصة بالاحتفاظ بخطوط رجعتهم، ولكن أية رجعة لجيش منه من جاء من مكان قصي يبلغ طوله ألفي كيلو متر، ومنه من اقل ومنه من أكثر، واذا فرضنا ان مدينة الرسول كانت أس الحركات الحربية، وان العرب كانوا قد فتحوا الحجز كله يوم جاؤا لفتح الشام، فجعلوا معسكرهم في أقصى حدودها الشمالية، فخط الرجعة على كل لا يقل عن بضع مئات من الكيلومترات، يمر في سباسب وبنواد لاماء فيها ولا كلاء، وكيف كان يتأتى الظفر لو لم يكن قلب كل جندي حصناً قائماً بالآيمان، معموراً بالطاعة للسلطان؟

كان الجيش الذي فتح الشام محققاً مقللاً من كل شيء، مقللاً من الزاد، مقللاً من السلاح، مقللاً من الظهر، والخيول قليلة فيه والاربل أكثر، والاربل تصبر على العطش اياماً، اما الجندي العربي فكان يصبر على الجوع والعطش معاً. قال جو يدي: تملت العرب صناعة الحرب من الفرس والروم وكان ذلك سبباً لدخول الفاطن رومية وفارسية كثيرة في لغتهم.

ولما فتحت الشام قسمت خمسة اجناد اي خمسة فيالق بحسب مصطلح هذه الايام. فسميت كل ناحية يخذ كانوا يقبضون اعطيتهم فيها، وكان الجنود اولاً من عرب الجزيرة ثم دخل فيهم من دان بالاسلام من جميع الشعوب المغلوبة، وكان اليونانيون اكثرية الجيش الشامي، وعليهم جل اعتماد رأس بني أمية في الشام. ذكروا ان سفهان



ابن عوف كان اتخذ من كل جنود من اجناد الشام رجالاً اهل فروسية ونجدة وعفاف وسياسة وحروب وكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به .

\*\*\*

بعض قوانين الجيش العربي } ومن الجيش ما كان تحت الطلب في كل ساعة ، ومنه ما يجند ابي يجمع في ايام قلائل حين الحاجة ، والاعطيات للجنود دارة في كل شهر ، ولم المغانم في الحروب الا قليلاً ، ينقاسمونها مع قوادهم بحسب بلائهم ورتبهم ودرجاتهم ، ولجنود مصطلحات معلومة ولم امراء وقواد ، يرتنون عليهم العرفاء وبنو بنيهم النقباء ، لتعرف من عرفائهم ونقبائهم احوالهم كما قال الماوردي ولكل طائفة شعار يتداعون به ليصيروا متميزين وبالاجتماع متفاضرين والامير « ان يتصفح الجيش » اي يستعرضه ويفتشه ) ومن فيه يخرج من كان فيه تمذبل للجهالدين وارجاف للمسلمين او عين لهم للمشركين » .

واوجبوا على امير الجيش في سياسته عشرة اشياء : احدها حراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم وذلك بان يتبع المكامن ويحوط سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم ورجالهم ليسكنوا في وقت الدعة و يأمنوا ماوراءهم في وقت المحاربة . والثاني ان يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم ، وذلك ان يكون اوطأ الارض مكاناً ، واكثرها مرعى وماء ، واحرسها اكنافاً واطرافاً ليكون اعون لهم على المنازلة ، واغوى لهم على المرابطة . والثالث اعداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعلوفة ، تفرق عليهم في وقت الحاجة حتى تسكن نفوسهم الى مادة يستغنون عن طلبها ليكونوا على الحرب اوفر ، وعلى منازلة العدو اقدر . والرابع ان يعرف اخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح احوالها حتى يخرها فيسلم من مكره ، ويلمس الغرة في الهجوم عليه . والخامس ترتيب الجيش في مصاف الحرب والنوع بل في كل جهة على من يراه كفواً لها ، وينفق الصفوف من الخلل فيها ، ويراعي كل جهة يميل العدو اليها بمدد يكون عوناً لها . والسادس ان يقوي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر ، ويخيل لهم من اسباب النصر ، ليقبل العدو في اعينهم فيكون عليه اجراً وبالجرأة يتسهل الظفر . والسابع ان يعد اهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من اهل الآخرة ، وبالجزاء والنفل من الغنيمة ان كانوا من

اهل الدنيا . والثامن ان يشار ذوي الرأي فيما اعزل ، ويرجع الى اهل الحزم فيما اشكل ، ليأمن الخطأ ويسلم من الزلل . والتاسع ان يأخذ جيشه بما اوجبه الله تعالى من حقوقه ، وامر به من حدوده ، حتى لا يكون بينهم تجوز في دين ، ولا تحيف في حق . والعاشر ان لا يمكن احداً من جيشه ان يتشاغل بتجارة او زراعة ، لصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو وصدق الجهاد .

ولم في هذا الباب قوانين مهمة لا تقل في حفظ رابطة الجيش عن كثير من قوانين الجندية في الحرب والسلم في هذا العهد الحديث ، منها انه لا يجوز اذا تقضى العدو عهداً ان يقتل ما في ايدي المسلمين من رهائنهم . فقد تقضى الروم عهدهم زمن معاوية وفي يده رهائن فامتنع المسلمون جميعاً من قتلهم وخواسبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر . ومنها انه يجوز لامير الجيش في حصار العدو ان ينصب عليهم العرادات والمجنقات وان يهدم عليهم منازلهم ، ويضع عليهم البيات والتحريق . واذا رأى في قطع نخلم وشجرهم صلاحاً يذعنهم به ليظفر بهم عنوة او يدخلوا في السلم صلحاً فعل ، ولا يفعل ان لم يرفيه صلاحاً .

وذكر ابن خلدون ان الحرب اول الاسلام كانت زحفاً كلها ، والزحف ان تمشي الفئتان المتقاتلتان كل فئة مشياً رو بدأ الى الفئة الاخرى قبل التذاني للضراب ، وهي مزاحف اهل الحرب . وربما استجنت الرجالة بجيئتها ، وتزاحفت من قعود ، الى ان يعرض لها الضراب او الطعان . وكان العرب انما يعرفون الكر والفر حملهم على ابداله امران اول الاسلام ، احدهما ان اعداءهم كانوا يقاثلون زحفاً فيضطرون الى مقاتلتهم مثل قتالهم . الثاني انهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما رشح فيهم من الايمان ، والزحف الى الاستماتة اقرب . واول من ابطل الصف في الحروب وصار الى النعبية كراديس مروان بن الحكم ، ابطل الصف فننومي قتال الزحف . وزعموا ان امرأة قالت لولدها اذا رأت العين العين فذغراً ولا صفاً ، اي ادغروا عليهم اي احموا ولا تصفوا صفاً .

وكان قواد الجيوش يرسمون الخطط الحربية بحسب قواعد لم قديمة ، او يستنبطونها من الحال والموقع ، كما فعل علي بن ابي طالب يوم صفين فدعا زياد بن النصر وثمريج بن



هاني، ففقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، وقال: ليس كل واحد منكما منفرداً عن صاحبه، فان جومتكما حرب فأنت ياز ياد الامير . واعلم ان مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فاياكما ان تسأما عن توجيه الطلائع ولا تسيرا بالكتائب والقبائل من لدن مسيركما الى نزولكما الا بتعبية وحذر، واذا نزلتم بعدوا او نزل بكم فليكن معسكركم في اشرف المواضع، ليكون ذلك لكم حصناً حصيناً واذا غشيتكم الليل خفوا معسكركم بالراح والترسة، وليلمهم الرماة وما اقمتم فكذلك فكونوا، لان لا يصاب منكم غرة، واحرسا معسكركما بانفسكما ولا تذوقا نوماً الا غرراً ومضمضة، وليكن عندي خبركما فاني ولا شيء الا ماشاء الله حثيث السير في اثركما، ولا تقاتلا حتى تبدأ أو يأتيكما امرى ان شاء الله .

ولقد كان للجيش ثكنات لا يواء الجنسد قال ابن حوقل: ليس من مدينة عظيمة الا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة، ويرابطون بها اذا وردوها، وتكثر لديهم الصلوات، وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة، الى ما كان السلاطين يتكفونوه، وارباب النعم يعانونه وينفذونه، متطوعين متبرعين، ولم يكن في ناحية رئيس ولا نقيس، الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات، او مسقف من فنادق اه . ولقد جعل بعض الاغنياء دأبهم اذا اجتازت بهم الجيوش ان يقرروها و يبروها، ومن رجال بني أمية من جعل ذلك ديدنه، واهل الخير على اختلاف طبقاتهم يتصدقون على الجيش .

واشترط العرب على اهل الدمة ان يؤوا جندهم ثلاثة ايام على الأظب وبطعموم من طعامهم، عناية من الفاتح يمنوده، وحتى لا يئبهم الرعية بنزولهم عليهم ان لم يكن لهم حق النزول . وكانوا لاول امرهم يختارون النزول في الخيام والمضارب، فاذا كلب الشتاء ينزلون في المدن والقرى، وياوون الى دور الروم الذين رحلوا بقدم الفاتحين، واول من انزل الجند في بيوت غيرهم الحجاج، انزل اهل الشام بيوت اهل الكوفة . وكان الأمويون في بعض ادوارهم يجندون الشبان ويجردونهم ليعرفوا عاهاتهم وحالتهم من الصحة . وفي الأغاني ان الحجاج ضرب البعث على المحتملين ومن انبت من

الصبيان فكانت المرأة تبيح<sup>١</sup> الى ابنها وقد جرد فتضمه اليها ونقول له باي جزعاً عليه ،  
فسمي ذلك الجيش جيش باي . وقد حضر ابن عبدل فوجد اعرج فأعني عنه فقال بذلك :

( لعمري لقد جردتني فوجدتني كثير العيوب سبي المتجرد )

( فأعفيتني لما رأيت زمانتي ووفقت مني للقضاء المسدد )

وكان غرامهم بالخييل المطهمة بدر بونها على الطراد و يربونها و يتعهدونها ، ومن  
ملوكم من يستكثر منها جداً لتكون معدة ليوم الشدة .

روى ابن السائب الكلبى ان هشام بن عبد الملك قال يوماً لقوامه على خيله : كم  
اكثر ما ضمت حلبة من الخيل في الجاهلية والاسلام قالوا : الف فرس وقيل الفان .  
فأمر ان يذّن بالناس بحلبة تضم اربعة آلاف فرس فقيل له : يا امير المؤمنين يحطم  
بعضها بعضاً فلا يتسع لها طريق . قال : نطلقها وننوك كل على الله والله الصانع ، فجعل الغاية  
خمسين ومائتي غلوة والقصب مائة والقوس ستة اسهم ، وقاد اليه الناس من كل اوب  
ثم برز هشام الى دهناء الرصافة قبيل الحلبة بايام فأصلح طريقاً واسعاً لا يضيق بها ،  
فأرسلت يوم الحلبة بين يديه وهو ينظر اليها تدور حتى ترجع وجعل الناس يتراؤونها  
— نقله ياقوت .

\*\*\*

وذكر بعض العارفين من علماء العرب ان اكثر من  
تعبية الجيش العربي } وضع شيئاً في تعبئة الحروب جعل اعداد اصحاب

السلاح ١٦٣٨٤ ويحمل جيش العزل نصف هذا العدد ، وجيش الفرسان نصف  
جيش العزل . وذلك ان هذا العدد ينقسم بقسمين الى ان ينتهي الى الواحد ، واذا  
جعلنا الصف المنقاطر ستة عشر رجلاً يجب ان يكون في هذا العدد من الصفوف  
المنقاطرة الف صف واربعة وعشرون صفاً . وهذه الصفوف ننتقم الى انواع ، فكل  
سنة عشر تسمى صفاً ، وكل صفين من هذه الصفوف المنقاطرة تسمى عصابة ، وعدد  
من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى صاحب العصابة ،  
وكل اربعة صفوف منقاطرة تسمى مقنباً ، والذي يرأسه يدعى صاحب المقنب ،  
وعدد من فيها من الرجال اربعة وستون رجلاً ، وكل مقنبن يسمىان كروساً ، وعدد



من فيه من الرجال مائة وثمانية وعشرون رجلاً من الصفوف المنقطرة ثمانية ، والمقدم عليها يسمى صاحب المائة و يدعى رئيس الكردوس ، وكل كردوسين يسميان جحناً ، ويسميان أيضاً فئة ، وعدد من فيها من الصفوف المنقطرة ستة عشر صفاً ، ومن الرجال مائتان وستة وخمسون رجلاً ، والمقدم عليهم رئيس الفئة او الجحفل وكل جحفل يجمع من هذا العدد خمسة رجال مختارين ، وهم صاحب الراية وصاحب السافة وصاحب البوق والخادم .

قال والذي اختاره ان يكون خلفه ، يرتبون كترتيب الصفوف المنقطرة حتى لا يخرجوا عن الصفوف ، وشكل الجحفل مربعاً كرقعة الشطرنج ثمانية في ثمانية ، وهذا ستة عشر طولاً وستة عشر عرضاً . وكل جحفلين يدعيان كوكبة ، وعدد من فيها من الرجال خمس مائة واثنان عشر رجلاً ، ومن الصفوف المنقطرة اثنتان وثلاثون صفاً ، ويسمى المقدم عليهم رئيس الكوكبة ، وكل كوكبتين زمرة ، وعدد من فيها من الرجال الف واربعه وعشرون رجلاً ، ومن الصفوف المنقطرة اربعة وستون صفاً ويسمى صاحبها صاحب الزمرة ، وكل زميرتين طائفة ، وعدد من فيها من الرجال الفان وثمانية واربعون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى رئيس الطائفة ، فيها من الصفوف المنقطرة مائة صف وثمانية وعشرون صفاً ، ومن الناس من يسمى الطائفة الجماعة النامة ، ويسمى المنولي عليها رئيس الجماعة النامة ، وكل طائفتين يسميان جيشاً وعدد من فيه من الرجال اربعة آلاف وستة وتسعون رجلاً ، وفيه من الصفوف المنقطرة مائتان صف وستة وخمسون صفاً ، والمنولي لامره يدعى رئيس الجيش ، وبعض الناس يسميه عسكرياً ويسمى المنولي عليها قائد الجيش ، وكل جيشين يدعيان خميساً ، وعدد من فيه من الرجال ثمانية آلاف رجل ومائة واثنان وتسعون رجلاً ، ومن الصفوف المنقطرة خمسمائة صف واثنان عشر صفاً ، ومن الجيش طائفة ومنهم من يسميه قافلة ، والمنولي عليه يدعى رئيس القافلة ، وكل خميسين يدعيان العسكر الاعظم ، وفيه من الصفوف المنقطرة الف صف واربعه وعشرون صفاً ، ومن الرجال ستة عشر الفا وثلاثمائة واربعه وثمانون رجلاً وهو العدد الاول ، فيصير مجموع العسكرة ثلثين وهما اربعة جيوش ، والاربعه جيوش اثنان وثلاثون كوكبة وهي اربعة وستون

جحفلاً ، وذلك مائة وثمانية وعشرون كردوساً وهي مائتان وستة وخمسون مقنباً  
وذلك الجمع خمسمائة واثننا عشرة عصابة وعدد ذلك من الصفوف ما تقدم .

\* \* \*

شدة الأمويين ومثال } وكان الأمويون من أشد الدول في الشام على  
من أوامرهم } جنودهم ، وهم - في أحسن جند ، لان الشاميين  
عرفوا بطاعة السلطان من بين جميع اهل البلدان ، وبهم يضرب المثل في الطاعة  
والمشايعة ، وان لم يخجل كل زمن من قولين بالحق ، ناقلين على القائم بالامر ، داعين  
الى مناقشته . قالوا : وانما وريت زناد معاوية باهل الشام ، لانه كانت في أطوع  
جند منهم . وكان علي بن ابي طالب في أعصى جند من اهل العراق على الضد . والطاعة  
اول خطة يسلكها الجندي ، وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت اعلام الأمويين <sup>(١)</sup>

(١) اول لواء عقده صاحب الرسالة لواء ابيض لعمه حمزة وقال : « خذه  
يا اسد الله » واول ما عقدت الرايات في الاسلام يوم حنين ، عقد الرسول راية  
سوداء من برد عائشة وكانوا قبل ذلك لا يعرفون الا الالوية وكان اسم رايته العقب .  
وكان شعار بني أمية من الالوان البياض وشعار بني العباس السواد . ويقال للأمويين  
المبيضة وللعباسيين المسودة . وكانت راية صلاح الدين صفراء وراية الفاطميين خضراء  
وراية العثمانيين حمراء وبها هلال ومنها راية مصر اليوم فيها بعض التبديل اشبه بشعار  
والشعار يخلف ايضاً . وكان شعار الظاهر بپيرس الاسد . وكان اللون الاحمر شعار  
القيسية واللون الابيض شعار اليمانية . وجعلوا لون راية دولة الحجاز ايام اسنقلت عن  
الترك في الحرب العالمية الابيض والاحمر والاسود والاخضر جمعوا فيها ألوان  
دول قديمة اخذوا ذلك فيما قيل من قول الصفي الحلبي :

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضعنا

وكانت العرب في كل حروبههم يستميون دون راياتهم فاذا سقطت الراية فكأن  
الانحلال دب الى الجيش المحارب . ولما أعلن مجلس نواب الشام اسنقلال سورية في  
عهد الملك فيصل جعل رايته راية الحجاز باضافة نجمة في وسطها . ولما احتل الجيش



في الصين من بلاد الشرق ، وفي الاندلس من بلاد الغرب وما بينهما الاقطار والامصار وكان الأمويون اذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرمونها برجل قوي الشكيمة فيبرد جماحها ، ويجمع على الطاعة قلوبها ، كما فعل زياد والحجاج بالعراق ، ولولا شدتها لخرج ذاك القطر عن طاعة بني أمية .

شكا عبد الملك بن مروان الى روح بن زنباع انحلال عسكره ، وان الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له : ان في شرطي رجلاً لو قلده امير المؤمنين امر عسكره لأرحل الناس برحيله وانزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف . قال : فانا قد قلدناه ذلك . فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوماً وقد ارحل الناس وهم على الطعام يأكلون ، فأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوف بهم في العسكر ، وامر بنساطيط روح فأحرقت بالنار . فدخل روح على عبد الملك باكيًا ، وشكا مما اتاه الحجاج مع رجاله فقال الخليفة علي به . فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت . قال : انا ما فعلت قال : ومن فعل قال : انت فعلت ، انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين ان يتخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ، فلا يكسرن في فيما قدمني له ، فأخلف لروح ما ذهب منه . ولما استقر البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج الى مصعب بن الزبير فجعل يستنفر اهل الشام فيطؤون عليه فقال له الحجاج بن يوسف : سلطني عليهم فوالله لا اخرجهم معك . قال له : قد سلطتك عليهم . فكان الحجاج لا يمر على باب رجل من اهل الشام قد تخلف عن الخروج الا أحرق عليه داره ، فلما رأى ذلك اهل الشام خرجوا .

ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب على لسان مروان الى ولي عهده عبدالله بن مروان

الفرنسي المنطقة الداخلية جعل شعار الدولة السورية ارضاً سماوية اللون وفي وسطها دائرة بيضاء ثم تبدل ذلك عندما اتحدت حلب بدمشق فجعلت الراية زرقاء وخضراء وبيضاء يعلوها في احدي ناحيتها العلم المثلث الألوان اي العلم الفرنسي وجعل علم لبنان ارزة فوقها العلم المثلث .

حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجي وفيها بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأتراك  
قال : اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وستن لقاء مخنصر ، وكان من عسكريك  
مقرباً ، قد شامت طلائعك مقدمات ضالته ، وحماة فننته ، فتأهب أهبة المناجزة ،  
وأعدّ إعداد الحذر ، وكتب خيولك ، وعبّ جنودك ، وإياك والمسير الا مقدمة  
وميمنة ، وميسرة وساقفة ، قد شهروا بالاسلحة ، ونشروا البنود والاعلام ، وعرف  
جندك مراكزهم سائر ين تحت ألويتهم ، قد اخذوا أهبة القتال ، واستعدوا للقاء ،  
ملحين الى مواقعهم ، عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجلهم ونزولهم على  
راياتهم واعلامهم ومراكزهم ، وعرف كل قائد واصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة  
والقلب والساقفة والطليعة ، لازمين لها غير مخلصين بما استنجدهم له ، ولا متهاونين  
بما أهبت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل اليه ، ومسافة تخارها ،  
كأنه عسكر واحد في اجتماعها على العدة ، واخذها بالحزم ، ومسيرها على راياتها ،  
ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها ، ان أضلت دابة موضعها عرف اهل العسكر  
من اي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي اي المحل حلوله منها ، فردت اليه هداية ومعرفة  
ونسبة قيادة صاحبها ، فان تقدمك بذلك ، وإحكامك له ، اطراح عن جندك  
مؤونة الطاب ، وعناء المعرفة ، وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك اوثق اهل  
عسكريك في نفسك صرامة ونفاذاً . ورضا في العامة وانصافاً من نفسه للرعية . واخذاً  
بالحق في المعدلة . مستشعراً تقوى الله وطاعته . آخذاً بهديك وادبك . واقفاً عند  
امرك ونهيك . معتزلاً على مناصحتك وتزبيدك . نظيراً لك في الحال . وشبيهاً بك  
في الشرف . وعديلاً في الموضع . ومقارباً في الصيت . ثم اكثف معه الجمع . وايده  
بالقوة . وقوه بالظهر . وأعنه بالأموال . وانغمره بالسلاح . ومره بالعطف على ذوي  
الضعف من جندك . ومن رخفت به دابته . واصابته نكبة من مرض . او رجلة او آفة .  
من غير ان تأذن لاحد منهم في النهي عن عسكره . او التخلّف بعد ترجيله . الا اليهود  
او المطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذراً . ومره زاجراً . وانته مغلظاً بالشدة على من مرّ  
به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك ، شاداً لهم اسراً . وموقرهم حديداً .  
ومعاقبهم موجعاً ادموجهم اليك فننهم عقوبة . وتعملهم لغيرهم من جندك عظة .



اجعل خلف سافتك رجلاً من وجوه قوادك . جليداً ماضياً . عفيفاً صارماً .  
شهم الرأي . شديد الحذر . شكيم القوة . غير مداهن في عقوبة . ولا مهين في  
قوة . في خمسين فارساً من خيلك . تحشر اليك جنودك . ويلحق بك من يتخلف  
عنك . بعد الإيبلاغ في عقوبتهم والذمك لهم والتنكيل بهم . . . . . ليكون رحيلك إباناً  
واحداً . ووقتاً معلوماً . تخف المؤنة بذلك على جنودك . ويعلموا اوان رحيلهم .  
فيقوموا فيما يريدون من معالجة اطعمتهم . وإعلاف دوابهم . وتسكن أفئدتهم الى  
الوقت الذي وقفوا عليه . ويطمئن ذوو الحاجات إبان الرحيل . ومتى يكون رحيلك  
مختلفاً تعظم المؤنة عليك وعلى جنودك . ويخلوا بمرآكهم . ولا يزال ذوو السفه والتزق  
يترحلون بالإرجاف . وينزلون بالتوهم . حتى لا ينفع ذو رأي بنوم ولا طماً نينة .  
إياك ان تنادي برحيل من منزل تكون فيه . حتى بأمر صاحب تعيبتك بالوقوف  
على معسكرك . آخذاً بفوهة جنبتيه بالسلمتهم . عدة لامران حضر . ومفاجأة من  
طلعية للعدو ان اراد نهزة . او لمحت عندكم غرة . ثم مر الناس بالرحيل وخيلك  
واقفة . وأهبتك معدة . وجنتك واقية . حتى اذا اسنقلتم من معسكركم . وتوجهتم  
من منزلكم . سرتم على تعيبتكم بسكون ريح . وهدو جملة وحسن دعة . . . . .  
إياك ان يكون منزلك الا في خندق او حصن تأمن به بيات عدوك . وتسنيتم  
فيه الى الخزم من مكيدته . اذا وضعت الأثقال . وخططت ابنية اهل العسكر لم  
يد خبائه . ولم ينصب بنائه . حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الارض بقدر  
اصحابه فيخفروه عليهم . ويبتون بعد ذلك خنادق الحسك . طارحين لها دون اشجار  
الرماح . ونصب النرسة . لها بابان قد وكلت بعد يحفظ كل باب منها رجلاً من  
قوادك في مائة رجل من اصحابه . فاذا فرغ من الخندق كان ذلك القائدان اهلاً  
لذلك المركز . . . . . واياك ان يشهروا شيئاً يتجادلون به . وتقدم اليهم فلا يكون قتالهم  
بالليل في تلك المواضع من طرفهم الا بالرماح مسندين لها الى صدورهم . والنشاب  
راشقين به وجوههم . قد ألبدوا بالنرسة . واستجنوا بابيض . والقوا عليهم سوايغ  
الدروع . وجباب الحشو . فان صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى . كبر اهل  
تلك الناحية الاولى وبقيت العسكر سكوت . والناحية التي صدر عنها العدو لازمة

لمراكنا . فعلت في تقويتهم وامتدادهم بمثل صنيعك باخوانهم . وإياك ان تحمد نار  
روافك . واذا وقع العدو في معسكرك فاجبها ساعراً لها . واوقدها حطباً جزلاً .  
يعرف بها اهل العسكر مكانك وموضع روافك . ويسكن نافر قلوبهم . ويقوى  
واهن قوتهم . ويشد منخذي ظهورهم . ولا يرجفون فيك بالظنون . ويجيئون لك  
آراء السوء . وذلك من فملك رد عدوك بغيظه . ولم يستقل منك بظفر . ولم يبلغ  
من نكابتك سروراً ان شاء الله ا .

هذا وقد كانت الشام على عهد أوائل العباسيين كما كانت في العهد الأموي  
تخرج جنداً لغزو الصوائف والشواتي اي حروب الصيف والشتاء الموجهة الى الروم .  
وان كانوا في جهادهم على الاكثر لا فرق عندهم في الفصول يصيفون وبشتوت .  
ويرتبعون ويحرفون . ذكر المؤرخون ان المأمون أقطع اخاه ابا اسحق المعتصم الشام  
ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن ٤٠٠٠ جندي لغزو الصائفة . وذكر  
قدامة ان راتب مغازي الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على القريب مائتا  
الف دينار . وعلى المبالغة ثلاثمائة الف دينار . وكان ارتفاع الثغور الشامية — اي  
طرطوس وأذنة والهيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبهاس وتقابلس — نحو  
المائة الف دينار تنفق في مصالحتها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والفوائير  
(الكشافة) والركضة (البريديون) والموكلون بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك  
من الامور والأحوال ، ويحتاج الى ثمنتها من الجند والصعاليك اي الجند غير المنظم .  
وكان اذا عصا بعض عمالم او نجم نجم من الثوار يبعثون بالجيش من العراق  
كما أرسلوا جيشاً لحرب نصر بن سبث ، وجيشاً لقتال القرامطة . وكان الجيش الذي  
ألفه احمد بن طولون واولاده من الاسباب القوية في نزع مصر والشام من حكم  
العباسيين بالفعل . وقد قيل ان الجيش الذي نظمه ابو الجيش خماروبه بن احمد بن  
طولون لم ينفق مثله لأعظم الفاتحين ، وكان مؤلفاً من صقابة اي من اهل صقلية من  
الطليان والروم وغيرهم من العناصر .



ادوات التدمير والسلاح } ادوات التدمير والسلاح  
 والمواصلات } والنشاب ، الاول لتخريب الحصون ودك الاسوار  
 والثاني لازهاق النفوس . والمنجنيق ( يفتح الميم وكسرهما ) آلة ترمى بها الحجارة بشد سوار  
 مرتفعة جداً من الخشب ، يوضع عليها ما يراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد  
 جداً . قال في التاج وهي آلة قديمة وضعت قبل وضع النصارى البارود والمدافع ، واول  
 من رمى به الرسول ( ص ) في حصار الطائف ، واول من رمى به في الجاهلية جذيمة  
 الابرش وهو من ملوك الطوائف . ويستعملون الدبابات وهي أشبه بدبابات هذه الايام  
 ( التانك ) وهي جمع دبابة آلة تؤخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في اصل  
 الحصن فينقبونه وهم في جوفها . ويتخذون ايضاً الحسك ( السلك الحديد ) بتحصون  
 وراءه ويمنعون العدو بعض الشيء من مباغتتهم . واخترع بعض المشركين في حصار  
 المسلمين عكاً على عهد صلاح الدين سائلاً اذا قذف به على الصقالات التي توضع لرمي  
 المنجنيقات تشعلها حينها . فكان الصليبيون منها في مصيبة . وأم سلاح عندهم للهاجمة  
 السيف والرمح وللدفاع الدرع .

ومما كانوا ينفقون به مداومة العدو ان يضعوا مما يلي البلاد من حد الشرق رجالاً  
 تحرق زرعها ونباتها ، وهي اراض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مرعى اذا  
 قصدوا البلاد ، فكانت تحرق اضعافاً لهم ، وإفعاداً لحر كائهم ، اذ كانوا من عادتهم  
 انهم لا يتكاثرون علوفة خيلهم بل يكلونها الى ما نبتت الارض ، فاذا كانت ارضاً مخصبة  
 سلكوها ، واذا كانت مجربة تجنّبوها ، وكانوا لا يفتنون لتقصدها حريقها ثم فطنوا ،  
 فصاروا يربطون عليها الطرق ويمسكون منها بالاطراف ، وكان ينفق في هذه المحرقات  
 في كل سنة من الخزانة بدمشق جمل من الاموال ، ويجهز فيها أجلاذ الرجال . وكان  
 شأنهم في الاحراق استحصان الثعالب الوحشية والكلاب المنفرة ، ثم يكن المجهزون  
 لذلك عند أمناء النصارح في كهوف الجبال وبطون الاودية ، وتمضي الايام حتى  
 يكون يوم ريح عاصف ، وهو اؤد زعزع ، وتعلق النار موثوقة في أذنان الثعالب  
 والكلاب ، ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها ، وقد جوشعت فتجد الثعالب في الحرب ،  
 والكلاب في الطلب ، فتحرق ما صرت به وتعلو الريح النار منه فيما جاوره . هذا الى

ما كانت تلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة ، وعشايا الايام المعتمة ، على ماروي ذلك  
جميعه ابن فضل الله .

واستعمل الملوك والامراء النشاب للتسلية واطهار الشجاعة ومعرفة أساليب الرماية ،  
فاذا رموا أصموا ، واذا أفضلوا بالغوا ، وقد استعمل الامين لقتال عساكر اخيه المأمون  
نصول النشاب من خالص الذهب ونقش عليها هذين البيتين :

ومن جودنا نرجمي العداة بأسهم من الذهب الابريز صيغت نصولها  
يدايي بها المجرح منها جراحه ويشري بها الاكفان منها قتيلا  
واستعمل ذلك كثير من الملوك ومنهم السلطان احمد بن الملك الناصر بن محمد  
ابن قلاوون ، وكان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك وهو محصور ويرمي  
سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موشاة بذهب وقد نقش عليها هذان البيتان .

كان اعتماد الملوك في نقل الاخبار على ثلاثة امور : البريد واول من وضعه في  
الاسلام معاوية بن ابي سفيان حين استقرت له الخلافة ، فوضع البريد لتسرع اليه  
أخبار بلاده من جميع أطرافها ، أمر باحضار رجال من دهاقين الفرس واهل اعمال  
الروم وعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالاً با كف كان عليها سفر البريد .  
ولم يزل البريد قائماً حتى أن لبناء الدولة المروانية ان ينقض ، ولما ان اغزى المهدي  
ابنه هارون الرشيد الروم ، وأحب ان لا يزال على علم قريب من خبره رتب ما بينه  
وبين معسكر ابنه برداً ، كانت تأتيه باخباره ، وتريه متجددات ايامه ، فلما قفل الرشيد  
قطع المهدي تلك البريد ، ثم رتب على عهد الرشيد على ما كان عليه ايام بني أمية ،  
وجعل البغال في المراكز ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر ، ثم جاءت  
أدوار فلم يكن بين الملوك وما يريدون معرفته من الاخبار الا الرسل على الخيل والايبل .  
فلما أنت الدولة الزنكية أقامت لهذا النجابة ، وأعدت لها النجب المنتجة ، ودام هذا الي  
سقوط دولة بني ايوب . ولما صار الملك للظاهر بهرس كان أحرص ما يحرص عليه  
مواصلته بالاخبار ، وما يتجدد من أخبار النار والفرنج . وقال مرة لكانب الانشاء  
شرف الدين عبدالوهاب ان قدرت ان لا تبيني كل ليلة الا على خبر ، ولا تصبيني الاعلى  
خبر فافعل ، واتخذ لذلك هو ومن بعده مراكز البريد ، تشتري الخيل بمال السلطان



و يقام لها السواس والعلوفات . ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوي أقطاعات عليها خيول موظفة تَحْضُرُ في هلال كل شهر الى كل مركز اصحاب النوبة فيه بالخيول ، فاذا انسَلَخَ الشهر جاء غيرهم ، وهم لهذا يسمون خيل الشهارة ، وعلى الشهارة والى من قبل السلطان ، يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ، وبدونها بالداغ السلطاني . وقد جعلوا لها مراكز ومحطات وبنوا عليها خانات وفنادق ومساجد في كل طرف من أطراف المملكة .

هذا ما كان من امر البريد وانشأوا في الموصل حمام الزاجل ، فاقْتَبَسَهُ خلفاء الفاطميين بمصر والشام ، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بانساب الحمام . نقله من الموصل نور الدين محمود سنة ٥٦٥ وكانوا في النهار يجعلون جل اعتمادهم عليه في نقل الاخبار ولا سيما زمن الحروب الصليبية ، وله مراكز في هذا القطر من الجنوب الى الشمال . ومن جملة ما يعتمدون عليه في الليل المناور وهي مواضع رفع النار في الليل ، والدخان في النهار ، للاعلام بحركات العدو ، اذا قصدوا البلاد للدخول لحرب او لإغارة ، ولما يرفع من هذه النيران او يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به ، باختلاف حالاتها تارة في العدو وتارة في غير ذلك . وقد أرصد في كل منور الدياب والظنارة لرؤية ما وراءهم وبراء ما أمامهم . والمناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها تعرف بها أكثر السفارة . وهي من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان . حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم به السلطان عشاء في مصر والمتجدد بها عشاء كان يعلم به بكرة . قال صالح بن يحيى وفي سنة ٦٩٣ جعلت لامراء الغرب في لبنان درك بيروت ليراقبوا البحر وجعلوا فيها رهيبة وحمام بطاقة مدرج الى دمشق وخیل بريد فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الاخبار وكل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الافرنج . الى ان قال وذلك لاجل ما يتجدد من الاخبار ومنع الافرنج عن الاجتماع باهل كسروان . والزاجل والمناور أشبه بالهليوستا والايچكتيف او البروجكتور عند اهل زماننا .

الجيش على عهد } كانت جمهرة الجيوش الاسلامية على عهد صلاح الدين  
ملوك الطوائف } مؤلفة من عرب واكراد وأتراك وكان صلاح الدين

كعلمه نور الدين من عظام القواد يعرف علم النعبية والمصافات ولا يغفل يوماً عن  
تقوية جسمه بالرياضة البدنية ولا سيما لعب الكرة والجري والصيد والقنص ليستعين  
بذلك على القتال . وكان اول اتصال صلاح الدين بنور الدين نفوق صلاح الدين  
بلعب الكرة . وقد الف صلاح الدين بين القلوب وجمعها على المقصد الذي أراد حتي  
لا يشعر المرء في جيشه باختلاف في العادات والمنازع .

وارتقى فن الحرب في الدولتين النورية والصلاحية بين الشاميين . والحرب تعلم في  
الحرب . والجيش الذي يقوده قائد كنور الدين بنفسه مستعيناً بمشاهير قواده ثم يقوده  
صلاح الدين بنفسه ومشاهير قواده مكتوب له الظفر لا محالة . وكان الجندي موسماً عليه  
كل التوسعة، وهو على قلة عدده بالنسبة لجيوش الصليبيين منصور في أكثر الوقائع .  
وكانت نسبته نسبة واحد من المسلمين الى اربعة من الصليبيين كما كان يوم حطين .  
والفرنجي يلبس زرد الحديد من فرقه الى قدمه وقد لا يقتل الا اذا جندل حصانه  
والشاهيون مخفون من السلاح . وكان اعتماد الفريقين على النشاب والنبال يقف  
جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلعت جمعابه والسلطان بنفسه يصف الاطلاق ويجهز  
ابداً جيشه ويعلمه للبيكار والجمازة من آلات المحامل والاطلاب والكتائب والبيكار  
الجملة او الحرب . والجندي الغازي موفور الكرامة والقواد عند السلطان كأخوته  
وأشقائه وأولاده والأموال دارة على الجميع كما قال عبد المنعم الجلياني شاعر  
صلاح الدين :

ان الملوك الذين امتد امرهم لم يخزنوا المال بل مهاجروا بدلوها

كذا السياسة فالاجساد لو علموا يخجل الملوك وجاءت شدة خذلوا

ذكر ياقوت ان الملك العزيز صاحب حلب كان طول مملكته من الشرق الى  
الغرب مسيرة خمسة ايام ومثلها من الجنوب الى الشمال . وفيها ثمانمائة ونيّف وعشرون  
قرية كانت تقوم برزق خمسة آلاف فارس مناجي العلة موسع عليهم وفيها من  
الطواشية المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف



درهم الى خمسة عشر الف درهم وفي اعمالها احدي وعشرون قلعة يقام بذخاثرها وارزاق مستحفظيها .

ولما استكثر آخر ملوك الاربوبين الملك الصالح ايوب من شراء الممالك وكان يجعلهم في جزيرة الروضة على النيل او على بحر النيل اطلق عليهم اسم الممالك البحرية فكانوا القاضين على الدولة الاربوبية جعلوا الملك منهم . فسميت دولتهم دولة الممالك البحرية كما سميت الدولة الخالفة دولة الممالك البرجية . وهم الذين أنشأهم السلطان قلاوون من المغول والشركس وكان يجلس معهم في أبراج قلعة القاهرة فسموا الممالك البرجية .

وهؤلاء الممالك البحرية والبرجية كانوا بلاء على الدول التي كانوا قوتها الوحيدة اذا أحسنوا يوماً فاساءتهم ايام . وطاعتهم وغناؤهم وبلاؤهم تبع للسلطان . اذا كان على أخلاق ومسانة خضعوا واستكانوا وكانوا آلة خير لقتال اعداء البلاد والخراج على الملك في الداخل والا أصبحوا من أعظم أدوات الشر . وكان هؤلاء يتمحسون للخدمة ويعيشون بالأقطاعات العظيمة التي كانت لهم . واذا نشبت الحرب راجت سوقهم وكثير الخير عليهم لانهم يجهزون من الدولة بالاموال والالبسة والسلاح والكراع . وكما جازوا بلداً او فتحوا مصرأ اعتدوا على السكان والمكان واخذوا ما استطاعوا اخذه من مال الامة وعروضها وناطقتها وصامتها . ولولا صفات خاصة في هؤلاء الممالك أورثتهم قوة ما استطاعوا وهم غرباء في مصر والشام ان يحكموها ٢٧٥ سنة .

\*\*\*

الجيش الصليبية } رأى الشام من ضروب الجيوش على عهد الحروب  
والنثرية } الصليبية ثم في عهد الحروب المغولية النثرية ما يستغرب منه . فان جيوش الصليبيين كانت مؤلفة من معظم العناصر الفرنجية التي كانت تدين بدين البابوية في اوربا ، بل كانوا يجندون من أحب من الوطنيين ولا سيما الموارنة . وكانت جيوش هولاندا وغازان وتيمورلنك مؤلفة من معظم عناصر آسيا الا قليلاً . وجميع هذه الجيوش الغربية والشرقية أضرت بهذه الديار أضراراً فاحشة ، لان النظم الحربية الحديثة لم تكن معروفة اذ ذاك فكان القائد يحكم الضرورة يتسارع مع

أجناده اذا عرقوا لحم من ينزلون عليهم وكسروه سواء كانوا مسلمين او محاربين .  
 وطول دور الحروب الصليبية في الشام أورث اهله شجاعة واستهانة بالموت حتى كاد  
 يعد جميع اهله جنداً . والشدائد معتملة الشعوب . واي شدة على الشام أعظم من ان  
 يجيش اوربا على هذا القطر الصغير . وكانت العاقبة ان غلب هذا الصغير ذاك الكبير  
 بالصبر والمتانة والاهتداء الى طرق ناجمة في جهاد عدوهم ومعرفة العرق الحساس من  
 مقاتلهم . وقد اعترف المسلمون للصليبيين بالشجاعة والاقدام . واعترف هؤلاء للمسلمين  
 بمثل ذلك . ومن أجمل ضروب الانصاف ان ينصف المرء خصمه ويذكر محاسنه كما  
 يذكر مقايجه .

\* \* \*

أجناس الجيوش في القرون الوسطى } كانت طوائف الاجناد عدة كثيرة  
 وجمعيات الفتوة } تُنسب كما قال القلقشندي كل طائفة  
 منهم الى من بقي من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم كالحافظية والآمرية من بقايا  
 الحافظ والآمر او الى من بقي من بقايا الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا  
 امير الجيوش بدر الجمالي وولده الافضل او الى من هي منتسبة اليه كالوزيرية او غير  
 ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والاكراذ والغز والديلم والمصامدة او من  
 المستضعفين كالروم والفرننج والصقالبة او من السودان من عبهء الشراء او العنقاء وغيرهم  
 من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم .  
 وكان الجنود في دولة المماليك يقسمون الى طبقتين : المماليك السلطانية وهم أعظم  
 الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدهم الى السلطان قرباً وأوفرهم أقطاعاً ، ومنهم  
 نؤمراة الامراء رتبة بعد رتبة . وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة  
 والقلة . وقد كان لهم في زمن الناصر محمد بن قلاوون ثم في ايام الظاهر بقوق العدد  
 الحظ والمدد الوافر ، لطول مدة ملكها واعنائها يجلب المماليك ومشتراها . والطبقة الثانية  
 أجناد الحلقة وهم عدد هم وخلق كثير ، وربما دخل عليهم من ليس بصفة الجنود من  
 المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الاقطاعات . وقد جرت عادة ديوان الجيش



عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع اليه هذا مارواه القلقشندي . وروى ابن فضل الله انه كان لكل اربعين نفساً منهم مقدم ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر كانت موافقهم معه وترتيبهم في موقفهم اليه . وكان اقوش الأفرم اذا مات لاحد من أجناسه فرس يحضر الكفل الى مطبخه و يأخذ من الديوان ستمائة درهم .

وإذا خرج الى بيكار فجميع جنوده الى ان يعودوا لا يطبخ احد منهم ولا يشتري تبناً ولا شعيراً . وذكر الاسدي ان عبرة العساكر في الشام في القرن التاسع كانت اربعة وعشرين الف فارس وانه كان في كل مدينة الامراء والاجناد . وذكر الظاهري ان الجيوش كانت تنقسم في القرن التاسع أقساماً وهي أجناد حلقة وبحرية وتركمان وعرب واكراد وغير ذلك . وأجناد الحلقة بدمشق اثنا عشر ألفاً ومماليك كافلها والامراء بها ثلاثة آلاف . واجناد الحلقة في حلب ستة آلاف ومماليك كافلها والامراء بها الفان . وأجناد الحلقة بطرابلس اربعة آلاف ومماليك كافلها والامراء بها الف . وأجناد الحلقة بصفد الف ومماليك كافلها والامراء بها الف . واجناد الحلقة بغزة ومماليك كافلها والامراء بها الف .

وجيش الحلقة هذا هو الجيش القسام دوماً على السلاح وهو ما يقابل باصطلاح هذه الايام جيش الحامية ( garnison ) وكان لكاتب الجيش جريدة باسماء الاجناد وأقطاعاتهم . ويحتاج صاحب ديوان الاقطاع ان يكون ماضياً فيما يسأل عنه من امور الاجناد وأحوالهم منفقداً لمن يغيب منهم بغير دستور . وكان الى صاحب ديوان الجيش عرض الاجناد وخبولهم وذكر صلاحهم وشيئات خبولهم ، اي علامتها وأشكالها ، وكان من شرط هذا الديوان عندهم ان لا يثبت لاحد من الاجناد الا الفرس الجيد من ذكور الخيل وانماها دون البغال والبراذين وبين يديه نقباء الامراء يعرفونه احوال الاجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك — قاله القلقشندي .

اما أجناس الجيوش في مصر والشام فكانت متنوعة اي من الترك والشركس والروم والروس وغير ذلك من الاجناس المضاهية للترك في الزي . وكانت للعرب على ما يظهر كقائدات خاصة بقيادة امراءهم يستدعون حين الحاجة للقتال على اصولهم . وجيوش بني حمدان وبني مرداس وبني كلاب وبني كلب وآل الفضل وغيرهم من

الملوك والامراء عرب صرف لان صاحب العصبة عربي لا يأمن غيرهم . واكثرية الجيش شركسة او اترك على الغالب والباقون من اهل البلاد .

ولقد كان بعض الخلفاء والملوك والامراء اذا شاهدوا أعراض الضعف في قوتهم يعمدون الى طرق ظاهرها بسيط وباطنها قوة لم لينقوا بهم عند الحاجة . اي يكونون جيشاً يرتجل في الحال و يعني غناءه . كما فعل الناصر لدين الله العباسي سنة اربع وستائة فنقدم الى الوز ير بجمع رؤوس الاحزاب وان يكتب في ذلك منشور فدخل الناس من الخاص والعام في الفتوة وسأل ملوك الأطراف الفتوة ففقد اليهم الرسل وقد ألبسهم سراويل الفتوة بطريقة الوكالة . فما كتبه الوز ير ان امير المؤمنين علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه هو اصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره ينسب الفتيان . فعل ذلك برأى من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد من أختيار الصحابة فلم يسمع ان احداً من الامة لاهه ، ولا طعن عليه طاعن في حد أقامه ، وحقيق بمن اورثه الله مقامه ، وانتمى اليه في فتوته ان يقتدي به عليه السلام في أفعاله . الى ان قال : ان من قتل له رفيق نفساً نهى الله آمالى عن قتلها وحرّمه ، وسفك دمًا حقنه الشرع المطهر وعصمه ، وصار بذلك بمن قال الله تعالى في حقه ومن يقتل مؤمناً متمدماً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ثلاثة ، ان يُنزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحقّقه لذلك ومعرفته ، و يبادر الى تغيير رفقته ، محرّجاً له بذلك عن دائرة الفتوة . وان كل فتى يحوي قاتلاً ويخفيه ، ويساعده على امره ويؤويه ، ينزل كبره عنه ، ويغير رفاقته ويتبرأ منه ، وان من حوى ذاعيب فقد عاب وغوى ، ومن أوى طرفه الشرع ضل وهوى ، فان الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته . ووجب ان يؤخّذ منه القصاص . وان قتل غير فتى عوناً من الأعوان او متعلقاً بدبوان في بلد سيدنا الامام الناصر لدين الله فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحرب بالقتل ، فكأنما عيب على كبرية فسقطت فتوته بهذا السبب . وسلم الى كل واحد من رؤوس الأحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة اثنين من العدول ، فألزم الناس اجراء الامر على ما تضمنه هذا المرسوم فائبلين في تعهدهم ومتى جرى ما بنا في المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً



لم على ما يراه صاحب الحرب اي الخليفة . وهؤلاء الفتيان كانوا يبتلون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة وانكروا نسبتها الى علي بن ابي طالب وهي أشبه بجمعية فوضوية يعمد الى ثقبها ايام الضعف .

\*\*\*

الجيش العثمانية } لما جاء العثمانيون لفتح الشام كانت جيوشهم من العسكر المعروف ( باليكي چري ) اي العسكر الجديد ، وقد حرف الشاميون والمصريون هذه التسمية بلفظ الانكشارية ، وهو الجيش الذي ألفه السلطان اورخان بن السلطان عثمان باقتراح الوزير قره خليل جاندارلي على ان يؤلف من اولاد المسيحيين من العثمانيين كالبوشناق والروم والصرب والبلغار والالبان ، يجندون بحسب اللزوم وبموجب قانون التجنيد المعروف عندهم ( بدوشرمه ) اي اللقطاء ، وذلك من اهل الروم ايلي ومن سكان الاناضول على قلة ، ويعني من ذلك الارمن وسكان جزيرتي سافز ورودرس ، بأخذونهم من اهلهم من سن العاشرة الى الخامسة عشرة ويستثنى من ذلك المتزوجون الفتيان ، ويربونهم تربية اسلامية ثم يجعلونهم في الثكنات في الستانة ، ومنهم من يخدم في قصور السلاطين في أعمال البستنة وغيرها ، ومنهم من يتعلم سبع سنين ولاسيا اللغة التركية حتى يصبحوا مسلمين اتراكاً ثم ينقلون الى العاصمة ، وكثير منهم ارتقوا في مناصب الدولة حتى اصبحوا وزراء وقواداً عظاماً وخدموا العثمانيين خدمة عظيمة ، لان خاص الاترك على الأغلب كانوا يفرون من تعليم اولادهم . وان كان الآباء عطاء في السلطنة . فاننقلت الأحكام بالطبيعة الى ايدي فئة من هؤلاء المتعلمين من الانكشارية .

ولما أسس اورخان هذا الجيش قصد ذات يوم آماسية وكان فيها رجل من الصلحاء اسمه حاجي بكتاش ، واتمس منه ان يسمي هذا الجيش فسماه الولي العسكر الجديد ( بيكي چري ) ودعاه بما معناه : يبيض الله وجوههم ، وقوى سواعدهم ، وارهب سيوفهم ، وأهلك الاعداء بسهامهم ، وكتب لهم الغلبة والتوفيق . قال هوار : ذهب قره خليل جاندارلي في تأليفه هذه الكتابات من المشاة بهذا الفخر . وكان تأليفها في عصر كانت فيه اوربا في القرون الوسطى ، وليس لها من الجيوش الا عصابات مسلحة ، بل وقبل

لتنظيم كتائب الرماة في انكشتر ، وقبل ان أسس الملك شارل السابع ملك فرنسا جيشاً دائماً تحت الطلب بقرن واحد . وقال ميشو : كان العثمانيون باديء بدء الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم مما كانت للدولة به التفوق على الأمم التي تربد إخضاعها لسلطانها . وأصبح لمعظم ممالك اوربا في القرن السادس عشر جيوش يقادرون بها أعداءهم ، فانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية ، واخذت المدفعية والبحرية كل يوم تزيدان نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كان الأتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البحرية والبرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم اه .

أسس العثمانيون جيش الانكشارية على غير مثال في التاريخ ، خالفوا فيه الشريعة الاسلامية التي لا تجيز للملك ان يكره الذميين على استرقاق اولادهم ، واتبعوا فيه العرف والمصلحة ، ثم دخل فيه سوء الاستعمال في القرن السادس عشر على رأي موردمان ، وذلك بان اخذوا يتساهلون بادخال أناس من المسلمين واليهود والدور ، فأخذ جيش الانكشارية يشبه جيشاً من الأمري على الاصول الافريقية الجديدة ، وكان ذلك من أسباب تسرب الفساد اليه .

كان عدد جيش الانكشارية لاول تأسيسهم ستة آلاف جندي وقيل بل الف جندي ، ثم جاوزوا المائة الف وقائدهم العام « آغا » الانكشارية ، وهم يقسمون الى كتائب وكانت كل كتيبة باديء بدء مؤلفة من مائة الى خمسمائة مقاتل ، يعاونون في الولايات على الكر والفر ويستخدم بعضهم في خدمة الولاة او في مزارع ارباب الأقطاعات او في حوائث ارباب الصنائع ، ويعيش أفراد هذا الجيش من مياومات طفيفة وهي « اقيچه » واحدة لكل فرد في اليوم ، وتزيد اذا أثبت المقاتل في الحرب كفاءة ، ويقبضون ذلك مرة كل ثلاثة أشهر بأبهة وطنطنة . وتوزع الاقطاعات على المبرزين منهم من الضباط وغيرهم يعيشون بها زمن السلم ، ويقضى عليهم في الحرب ان يجهزوا أنفسهم على نفقتهم .

وكان أغلب الانكشارية في الولايات من الفرسان وفي العاصمة من المشاة . وسلاح المشاة الدروع والمغافر والاراس والخناجر مما يخفف حملة ، وسلاح الغارات



السيوف والرماح والحراب والمعاول يستعملونها في القرب ، ويستعملون في البعد الرماح والبنادق والغدارات . واسلحة الفرسان عبارة عن سيوف مستطيلة وبنادق بفتيل وبنادق بصوان وغدارات وقصافيز من حديد . وقد استعمل العثمانيون أسلحة نارية تشبه المدافع في محاربة قوصوة المشهورة . وكانت المدافع والمكاحل في عسكر السلطان سليم على مرجح دابق من أسباب ظفره بجيش الماليك لان هؤلاء كانوا خلواً منها . قال احمد رفيق : ولقد كان العثمانيون يستعملون من السلاح ما خف محمله حتى ان نعال خيولهم كانت على غاية الدقة وذلك حتى تسير سيراً سريعاً . وكانوا يبدون مهارة فائقة في التقدم وكشف قوة العدو والإحاطة به وتجييزه . ويكون له ويعنون من وراء الغابة بتعليم الجند وتدر بهم حتى يبلغوا بمن يأخذونهم من الاولاد مرتبة الكمال . يعلونهم الألعاب الرياضية واستعمال القوس والنشاب ثم الرماية بالبنادق ، ويدرّبونهم على لعب الجريد والمسايفة ليل نهار . وتبدل الاسلحة بتبدل الزمن .

وكان لكل كتيبة شعار يرسمه المهندون فيبسا على خيامهم وعلى أبواب ثكناتهم ويشرمونهم اي يستعملون لهم الوشم بايديهم وأرجلهم . وقد أخذ هذا الجيش يفسد على عهد مراد الثالث لانه رخص سنة ٩٩٠ بقبول الرقاصين والمصارعين في الدخول فيه . وبعد ذلك اخذ يدخل في سلكه أخلاط من كل صنف من الناس بالشاعات والرشي ليشنفيدوا من امتيازات الانكشارية . وفي ذلك الوقت اخذ بعض سكان الشام يدخلون في هذا الجيش على ما يظهر . وفي سنة ١١٥٣ صدر الامر بان تباع العلوفات فضعفت قوة الجندية في الانكشارية وأصبح من كانوا من الجند حقيقة لا يقبضون من العلوفات ما يكفيهم بل يعيشون بالنهب والسرقه . وكما اتى الزمن على الانكشارية زاد تدخلهم في سياسة الملك في الاستانة فأخذوا يخيفون السلاطين ويخاؤونهم بل يقتلونهم ويعزلون الصدور العظام وينصبونهم او يقتلونهم ويشردونهم . وآخر من قتله من سلاطين العثمانيين السلطان سليم الثالث .

ولما تربع السلطان محمود الثاني في دست الملك ورأى ماتم لعزيم عصر محمد علي من إنشاء جيش له على النمط الغربي صححت عزيمته ان يجعل في القضاء على الانكشارية

فاستصدر فتوى بقتلهم فقتلهم الاهالي ورجال البحرية ، وألغى نظام الانكشارية سنة ١٢٤١ وسموا هذه الوقعة في الاستانة بالوقعة الخيرية . وقد قتل فيها في العاصمة والولايات ستة آلاف رجل على رواية المؤرخ اسعد افندي . ومن ذلك الوقت ألقت الدولة جنداً على مثال الجيوش الاوربية . وكان من الانكشارية في الشام ان خربوا القرى والضواحي . وكانوا يعتدون على الاعراض والاموال واي اعتداء . ولما صدر الامر بقتلهم قُتل بعضهم هنا ومنهم قسم من الاهالي غير اسمه ورسمه فتغاضت الدولة عنه . هذا هو الجيش الذي بقيت الشام تحت رحمته اكثر من ثلاثمائة سنة ولم تر الشام من حسناته بل رأت سيئاته وتخر بيانه .

وكان من جملة الجيش عسكر اسمه ( اللوند ) وهو العسكر الخفيف الذي كانت مملكة البندقية تستخدمه قديماً ومنهم عسكر اسمه ( السكبان ) - السكبان كلمة فارسية مركبة معناها حارس الكلب - قال البوريني : وهم عبارة عن طائفة كان وصفهم ان الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره وبقود الكلب في ساجوره ( قيده ) ويمشي أمام الامير والكبير حتى يسير الى الصيد . قال : ولم يكونوا اولاً شيئاً حتى جاء الى بلاد الشام امير يقال له ابو سيفين نولى ولاية نابلس فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعايا بلاد نابلس لانهم لا يخلون من نوع شراسة ، فاعتاد الامراء استصحابهم الى ولاياتهم فكثروا . وقد أضيف هذا العسكر الى جوقة الانكشارية . ومن الجند صنف يقال له ( السباهية ) وهو من الفرسان كانوا يعطون عشر بعض الاراضي على صورة أقطاع و يقومون مقابل ذلك مدة الحرب بمساعدة الدولة في القتال ، يأتون على خيولهم والدولة تعطيهم الذخائر والمؤن . ومنهم صنف يقال له ( جبهجي ) وهو من العسكر المدرع ( زرهلي ) من جيوش العثمانيين . ومنهم ( القوقولي ) اي الحراس وأصلهم حراس السلطان كثروا في آخر القرن الماضي . ومنهم ( الدالانية ) اي الادلاء وأصل الكلمة فارسية من داله بمعنى الدليل . وكانوا يلبسون في رؤوسهم قلنسوة كالطرطور على مافي محيط المحيط و(الحوارة) وهم صنف من العساكر الغير المنظمة و(النفكجية) مأخوذة من نفكجي اي صاحب البندقية وهم جند من رماة البنادق وكانوا للمحافظة و( الشوربيجية ) وهم ضباط الانكشارية يعمل لهم الحساء اي الشورية في



قدر خاص ، ورتبة الواحد منهم معادلة لرتبة قائد بعرفنا الى غير ذلك من صنوف الجنود .

\* \* \*

الجيش الحديث } كان بعض الامراء في هذه الديار لا يخلون من مقابلة  
على الدوام يستخدمونهم في قيام امرهم . ومن اهمهم في  
هذا الباب اولاد معن امراء الشوف وما اليها فقد كانوا يستطيعون ان يجندوا اربعين  
الفاً . وذكر فولاني في القرن الثامن عشر انه رأى الامير في دير القمر جند خمسة عشر  
الف جندي في ثلاثة ايام . ومن الجيوش التي رأتها الشام وكانت بالنسبة للجيوش  
التركية تراعي النظام جيوش مصر مدة حكم ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير فكانت  
مؤلفة من المصريين والارناؤد والحوارة والهنادي من عرب مصر وكلهم يدربهم  
ضباط ماهرون وكان في رأس القواد بعض ضباط أجانب من الفرنسيين .  
ولما انتشر نظام الجند الجديد ضاقت صدور الناس بالجندي لانها لم تكن مستوفاة  
شروط الراحة ولان الأخلاق الحربية أوشكت ان تزول لطول العهد بها ولاسيما من  
سكان المدن . على ان سكان البادية كانوا يعفون من هذه الخدمة . والسبب في ذلك  
ان امراءهم لم يكونوا من جنسهم فكانت اللغة من جهة والشدة عليهم من أخرى من  
الحوائل دون امتيازهم بالصفات الحربية وايتارهم النفلت من الجندي ان أمكن .  
ولقد أخرجت المدرسة العسكرية في دمشق مدة نصف قرن مئات من الضباط من  
أبناء الشام خدموا الدولة خدمة صادقة . وكان منهم نبغاً لم يقصروا عن ارق العناصر  
العثمانية علماً وذكاءً ومضاءً . ويقال على الجملة ان هذه البلاد في الدور العثماني كانت  
بعسكرها والحامية الانكشارية اولاً ثم الحامية النظامية آخرأ أشبه بعسكرات عظيمة ،  
بعمل فريق عظيم من الناس لخدمة الجيش . وكانت رواتب الضباط وجرايات الجنود  
تجف جداً وكذلك علف الدواب فيسدون العجز بطرق مخربة . ومع عدم العناية  
بأكل الجند وملبسه كانوا يوم الغارة اسوداً خصوصاً اذا حسنت قيادتهم لان  
الشباب كانوا يتدربون على الصراع والمسايفة والرماية والألعاب الرياضية بجساتمها  
فاذا كانت الحرب او اقتضت الحال الغارة على فريق او دفع صولة صائل استطاعوا ان  
يستعملوا السلاح ويحسنوا الطعن والضرب اول تجنيدهم .

وكانت أنظمة العثمانيين الأخيرة محتددة من أنظمة الجيش الألماني والفرنسي ولنا  
 ان تقول بعد هذا انه لم يتأرب اي لم يصبح اوروبياً في هذه الارض مدة حكم  
 العثمانيين شيء من أوضاعنا مثل الجيش . جندت الدولة العثمانية في الحرب العامة  
 نحو ربع مليون من بلاد الشام او سبعمائة وعشرين فرقة . ويمكن ان يقال على الجملة انه  
 حارب ربه وهلك ربه واستخدم ربع في خدم خفيفة وهرب الربع الآخر . ولما غلبت  
 الدولة العثمانية في الشام في الحرب العالمية الأخيرة وانتهز جيشها واستسلم اكثره لم يتمكن  
 من الثبات أمام قوى الحلفاء الجديدة فانحل الجيش في هذه الديار بالطبيعة .  
 وقدرت هذه البلاد مدة الحرب العالمية الأخيرة جيوشاً من الترك والاكراود والألمان  
 والمجر والنسويين واليوهيميين وغيرهم كرات بعد انحلال العثمانية جيوشاً من البريطانيين  
 والكناديين والاورستاليين والهنود والفرنسيين والجزائريين والمراكشيين والهنود الصينيين  
 والسنغاليين والسودانيين . وبالجملة رأت جنوداً من معظم المستعمرات الخاضعة لبريطانيا  
 وفرنسا فأشبه تلبيل الألسنة في الشام تلبيلها فيه على عهد الحروب الصليبية والمغولية .  
 ولما أسست الحكومة العربية في المدف الرابع وأعمالها اخذوا يجندون جنوداً  
 عربية مأجورة من اهل هذه الديار ثم شرعوا بالتجديد الاجباري اشهر قليلة ريثما  
 دخلت فرقة الجزائر غوايه ودي لاموط الى دمشق وحلب وسقطت البلاد في يد  
 الحكومة الفرنسية المنتدبة وفض الجيش العربي وصفي . وكان بضعة الوف مسجلة على  
 الورق . ثم اخذت فرنسا بتأليف جيش مختلط من السوريين والفرنسيين أشبه بالدرك  
 وذلك في البلاد الواقعة تحت ائندابها . وأبقت فرنسا فرقاً من جندها في البلاد التي  
 اندبت للاشراف عليها ، كما جعلت بريطانيا العظمى في فلسطين اعتمادها على جيشها .  
 وفي الشرق العربي على جيش صغير من أبناء البلاد يعاونه الجيش البريطاني المرابط  
 في فلسطين عند الاقتضاء . وفي ثورة سنة ١٣٤٤ جندت الدولة المنتدبة كتائب  
 من المتطوعة سمتمهم الانصار وكانت جمهورتهم من الشركس والارمن والاسماعيلية فلقى  
 الأهلون من سوء تربيتهم وقلة نظامهم واعتدائهم على الابرياء مانسب ذكر الانكشارية .  
 وكانت حجة الحكومة انها اصطنعت أشقياء لقتال اشقياء . وجعل لبنان كتبة له من  
 الجند سماها القناصة وهم أشبه بالدرك والشحنة .



## الاسطول

— ٣٠٠٤ —

بحرية الفينيقيين والعبرانيين } ليس في الايدي نص يركن اليه لمعرفة  
والفراعنة } ما كانت عليه شعوب الشام القدماء من  
الاصطلاح في بحر يتهم . وسواحل هذه الديار المستطيلة الممتدة من العريش الى  
خليج الاسكندرونة تحتاج في اتصالها الى مراكب للتجارة وغيرها . ولم يعرف ان عظام  
الأنهار في الشام كالأردن والعاصي كانت تجري فيها سفن الا الفرات فانه كان  
يحمل مغادي وجرافات وجلبات تذهب وتجي بين الشام والعراق .  
واهم من يعرف بمعاونة البحار اهل فينيقية سكان الساحل الأوسط فلم يكونوا اعظم  
شعب بحري درج على هذه الارض فقط ، بل كانوا اعظم الشعوب القديمة في العالم  
جراً على الأسفار في البحار ، وكانت اصولهم على الارجح من شعوب بحارة جاؤوا من  
البحرين في خليج فارس ونزلوا هذا الساحل الجميل فظهرت كفاءتهم في اختراق  
العباب في سالف الأحقاب . والصناعات في الناس تكون بالارث او ابنة المحيط .  
والفينيقيون استفوا هذين الشرطين فكانوا بحارة بالفطرة والبيئته بحارة  
بالثريبة والحاجة .

ومما ساعد الفينيقيين على إجادة صنع السفن كثرة الأخشاب في لبنان ولاسبما  
شجر الأرز الذي منه كانوا يصنعون مراكبهم الصغيرة والكبيرة . وكانت لهم شؤون  
ما عرفها غيرهم في السير والإسراء ، والإقلاع والإرساء ، يهتدون بنجمة القطب  
يستدلون بها على سمت الشمال . ولذلك كانوا يوغلون في البحار ، لا يخشون الاخطار ،

حتى لقد اجتازوا البحر الأبيض الى بحر الظلمات و بحر الشمال وغيره ، ولم ينازعهم منازع من الشعوب في هذا الباب ، لانهم كانوا يكتفون سرّ الطرق التي سلكونها ويتشددون في كتبها . وربما أغرقوا سفنهم اذا اطلع بعض البحارة من الغرباء عنهم على خطة رحلاتهم ، فضلاً عن إغراق مراكب من يحاول سرقة اسرارهم في طرقهم البحرية . ولم يعرف غير الفينيقيين جزائر الكاسيتريد (Cassitèrides) او جزائر سورلنج في الشاطيء الغربي من الجزائر البريطانية ومنها كانوا يجلبون القصدير .

ولم يؤثر عن العبرانيين ان كان لهم اسطول بل قوارب لا تبعد كثيراً عن الساحل على النمط القديم . اما الفراعنة الذين حكموا جزءاً مهماً من جنوب الشام وساحله مدة فكانت بحريتهم وصناعتهم<sup>(١)</sup> في مصر اولاً ثم جعلت في طرابلس وصور وجبيل لقربها من مستودع الاخشاب الصالحة لصنع السفن . ولم تكن ملاحه للفراعنة من السلائل الاولى حتى الدولة السادسة والعشرين لانهم ليسوا أمة حربية .

\*\*\*

بحرية الرومان } كانت البحرية في العهد اليوناني في الشام على مثال بحرية  
واليونان } تلك الدولة قوية منظمة . وكانت اليونان أمة بحرية  
من الطراز الاول عند الاقدمين . ألفوا اليمّ منذ عرف تاريخهم لان معظمهم  
جزائر يون طالما عاركوا البحر وعركهم . وبالطبع انطبع سكان الساحل الشامي بطابعهم  
وساروا على أقدامهم في سلوك سبل البحار . ومثل ذلك يقال في الرومان الذين طال  
عهدهم في الشام ، فان أساطيلهم كانت تحمل من شواطئ ايطاليا واليهما تجارات الامم  
التي خضعت لسلطانهم . وصعب ان يحكم على بحرية الشام في الدور الروماني ولعلها لم  
تخرج في كل حال عن طور الرومان . ولا شك ان بعض الموانئ الشامية كان لها  
صناعات كما كان لها في كل دور . ويمكن ان يقال على الجملة ان الشام لم يعرف له

(١) الصناعة في العرف اسم المكان المعد لانشاء المراكب والسفن نقلت الى لغات

الغرب فصارت ارسنال (Arsenal) وعادت الى العرب من طريق التبرك باسم

« ترسانة » .



منذ عرف تاريخه الى الفتح الاسلامي بحرية خاصة وافية بالغرض بالنسبة لتلك الاعصر  
الافى عهد الفينيقيين وكانت في سائر أدواره مندجماً في الامم القوية التي امتد  
سلطانها عليه .

\*\*\*

العرب والبحار } كان العرب الا قليلاً لا يجبون البحار لبعدهم عنها ولما  
كان يبلغهم من أخطارها . وقد اتفق في أوائل الفتوح  
ان العلاء ابن الحضرمي عمل اسطولاً واجتاز من البحرين الى فارس ووصل الى  
اصطخر ، ودمر الاعداء اسطوله فقتل كثير من رجاله ، فغضب لذلك عمر بن الخطاب  
لان هذا العمل لم يكن عن مشورته . ولما كان معاوية على جند دمشق والأردن الخ  
على عمر في غزو البحر ، فكتب الخليفة الى عامله في مصر عمرو بن العاص يريد على  
ان يصف له البحر فكتب اليه « يا امير المؤمنين اني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه  
خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركذ خرق القلوب ، وان تحرك أزاع العقول ،  
يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان  
نجح يرق . » فكتب عمر الى معاوية « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً  
ابداً . . . . . وتالله لمسلم واحد احب الي مما حوت الروم . فإياك ان تعرض لي ، وقد  
علمت مالقي العلاء مني ولم أنقدم اليه في مثل ذلك . »

وقد علل ابن خلدون امتناع المسلمين عن ركوب البحر بان العرب لبداوتهم لم  
يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه . والروم والفرنج لما رستهم أحواله ،  
ومر باهم في القلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكوا الدربة بثقافته . فلما استقر الملك  
للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي  
صنعة اليهم بمبلغ صاعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت  
ممارستهم البحر وثقافته ، فنافت أنفسهم الى الجهاد فيه وانشاء السفن والشواني ،  
وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح ، وأطوما العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر .  
واختصوا بذلك من ممالكهم وتغورهم ما كانت أقرب الى هذا البحر وعلى ضفته مثل  
الشام وغيرها .

ولذا كان العرب باديء بدء يخوفون ركوب البحر كل التخوف فقد استعمل  
الوايد بن يزيد الاسود بن بلال النخاري على بحر الشام فقدم عليه اعرابي من قومه  
ففرض له واغراه البحر فلما أصابت البدوي تلك الأهوال قال شعراً منه :  
فله رأي قادي لسفينة واخضر موار السرار يمور  
تري مننه سهلاً اذا الريح أقلعت وان عصفت فالسهل منه وعور  
فيا ابن بلال للضلال دعواني وما كان مثلي في الضلال يسير  
لئن وقعت رجلاي في الارض مرة وحان لاصحاب السفين وكور  
وسلت من موج كأن متونه حرار بدت اركانها وثبير  
لنعترضن اسمي لدى العرض حلقة وذلك ان كان الأياب يسير  
وقد كان في حول الشرية مقعد لذيد وعيش بالحدث غرير

\* \* \*

اول خليفة غزاه في البحر الشامي } منع عمر عماله من غزوه البحر بعد اخفاق  
والبحرية الاموية } العلاء في غزوته البحرية . ولما قلد عمر  
عبدالله بن قيس النظر في تغور الشام جميعها كتب اليه عمر اني لا أحمل المسلمين على  
أعواد نجرها نجرها وجلفظها الجلفاظ ( والجلفاظ الذي يشد ألواح السفينة ) وما زال به  
معاوية حتى أفنعه . وفي بيروت عمر معاوية المراكب وجهز الجيش الى قبرس ومعهم  
ام حرام واسمها الرميضاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطت في  
بيروت وماتت فيها . وشنا المسلمون بارض الروم سنة اثنتين واربعين وهو اول مشي  
شتوه بها فاستعمل معاوية على اهل المدينة عبد الملك بن مروان وهو يومئذ ابن ست  
عشرة سنة فركب عبد الملك بالناس البحر . فلما ولي عثمان بن عفان طلب اليه معاوية  
ان بغزو البحر فوافقه على ذلك على ان ينتخب من يحملهم في المراكب ولا يقترع بينهم ،  
فن اختار الغزو طائفاً يحمله ويعينه ففعل . وغزا معاوية الغزوة الاولى فكان اول  
مسلم غزاه في البحر ، كما ابتدع أعمالاً كثيرة نافعة في قوام الدولة وحفظ البيضة .  
واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحامي خليفة بني فزارة فغزا خمسين غزوة من  
بين شانبة وصانفة في البر والبحر ولم يغرق فيه احد . وأغزى معاوية عقبة بن عامر



الجُهنّي في البحر وامره ان يتوجه الى رودس . وفتح هذه الجزيرة جُ: دة بن ابي أمية فنزلها المسلمون واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها ، فاذا أمسوا ادخلوها الحصن . ولم ناطور يحذرهم ما في البحر من يريدهم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم . وكان معاوية يدرّ لهم الارزاق والعطاء ، وكان العدو قد خافهم . فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية — رواه الطبري . وجُنادة بن ابي أمية الازدي من صحابة الشام كان على غزو الروم في البحر لمعاوية زمن عثمان الى ايام يزيد الا ما كان من ايام الفتننة فتنة علي ومعاوية وشتي في البحر سنة ٥٩ .

وبذلك عرفنا ان معاوية أدرك بصائب رأيه ان سواحل الشام بل الشام لا ينجيها من غزوات الروم الا ايجاد اسطول عربي بغزو سواحلهم الحين بعد الآخر . والا تعذرت المحافظة على السواحل وبطلت التجارات . وكان المسلمون قبل ذلك على خطر ابدآ . ينحطفهم اعداؤهم من عُقر دارهم ، ويطردونهم حتى في ارضهم ويحملونهم أسرى يبيعونهم ببيع الاماء والرقيق . اي ان الروم بغزون الشام اذا لم يغزهم اهله فحاول معاوية ان يقنع الخليفة الثاني فتحاصى هذا الاذن بركوب البحر خفاً على المسلمين ، متأثراً مما أصابهم يوم غزوة البحرين ، ولانه لم يראה عامله في الشام من اخطر الذي يدم البلاد ان لم تُواز قوتها البحرية بقوتها البرية .

قال محبوب المنجي : وفي السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر وصار الى قبرس فافتنحها وكان معه الف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحاً واموالاً فسبى منها ومن الجزائر المطيفة بها خلقاً من الناس ، ونزل على جزيرة ارود ( رودس ) ولم يصل اليها وفي الربيع رجع في جيوش أعظم وأكثر من الاولى فنزل عليها وضيق عليهم جداً . فلما رأى اهل ارود الشدة التي هم فيها والعساكر التي أظلمتهم طلبوا الايمان على ان يخرجوا الى سورية ويسكنوا حيث شاؤوا ووفى لهم معاوية بن ابي سفيان وخرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم وأحرق .

وذكر المنجي ايضاً انه في السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في لوقية فلما نوسطوا البحر لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في السفن فاحترقت كلها وهم

اي الروم اول من أخرج النار وصارت لم عادة . وقد كان المسلمون في خطب جلل من هذه النار في البحار وهي الصواريج ( Feu gregeois ) وكانت اذا أصابت المراكب لانطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندي او الرمل ومخترعها كالينكوس من اهل بعلبك لجأ الى الروم سنة ٦٢٣ م فعلمهم هذا التركيب الذي كان له في الحروب البحرية أهو بل .

وممن غزا في ايام معاوية في البحر أسر بن أبي أرطاة وفؤالة بن عبيد الانصاري . وفي سنة ٤٩ كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشنى باهل الشام . وغزا في البحر ايضاً عمرو بن يزيد الجيني (٥٨) . وروى المنجي ان معاوية ابن ابي سفيان استعد لقصد القسطنطينية في السنة التاسعة لعثمان والرابعة والثلاثين للعرب ، وأعدّ سفناً كثيرة في مدينة طرابلس على ساحل البحر ، وحمل من السلاح امرأ عظيماً ، وان الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسماً من بلاد الروم وسبى من اهلها مئة الف نفس . ثم جاء ملك الروم في سفن كثيرة من البحر فلما التقى الجمعان كانت الهزيمة على الروم ، وكاد ملكهم ان يغرق ، وتخلص بعد ان قتل من الروم خلق كثير حتى صار البحر دمياً ، ورجع العرب بغلبة كبيرة .

وفي هذا برهان جلي على العظيمة التي بلغها الاسطول العربي بسرعة ، وما أحرق منه في طرابلس لم يؤثر فيه لان الصناعة كانت ايضاً في عكا وصور وربما في غيرهما من ساحل الشام ، ومن عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس ، وبعد ان أحرق الروميان اللذان كانا في خدمة الاسطول في طرابلس اسطول هذه الفرضة البحرية باجمعه ، اصبح من المتعذر على معاوية ان يأمن على أساطيله من كان ائمنهم ، وهم أنباط النصراني في رأي بعضهم ، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم ونوانيتهم في مراكزهم الحربية ، والغالب ان العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ثم اعتمدوا على انفسهم شأنهم في كثير من مقومات مدينتهم .

ومع هذا كان اكثر البحرية والذين يتكفلون بغزو الروم من اهل الاسلام وكان الروم معهم ولا سيما في القرون الثلاثة الاولى للهجرة في امر مريج . قال المسعودي :



أخبرني بعض الروم عن كان قد أسلم وحسن اسلامه ان الروم صورّت عشرة انفس في بعض كنائسها من اهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطر يق فأمره من القسطنطينية ، فأقاد منه بالضرب ورده الى القسطنطينية ، وعبد الله البطل وعمرو بن عبد الله وعلي بن يحيى الارمني والعريل بن بكار واحمد بن ابي قطيفة وقرنياس البلقاني صاحب مدينة ابريق (ازنيق؟) وحرس خادس اخت قرنياس ويازمان الخادم في موكبته ، والرجال حوله وابوالقاسم بن عبد الباقي . ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسي ومعيوف بن يحيى الحججوري من اهل دمشق والمغيرة بن عبيد الازدي الخراساني ولي غازية البحر في ايام يزيد بن عبد الملك .

\* \* \*

وصف اسطول شامي } وللبحتري قصيدة في مدح احمد بن دينار يصف فيها  
مركباً كان اتخذه وهو والي البحر وغزا فيه بلاد  
الروم . قال العسكري في ديوان المعاني وعنه نقل صاحب بلوغ الارب : لم يصف  
احد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب الا البحتري ، وعدوا قصيدته هذه  
من عيون قصائده وفضلوها على كثير من الشعر وهي التي يقول من جملتها :

ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يُبق الا لفتة المتذكر

وخاطر شوق ما يزال يهيننا لبادين من اهل الشام وحضر

الى ان قال :

ولما تولى البحر والجود صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر

اضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبر

اذا شجروه<sup>(١)</sup> بالرمح تكسرت عواملها<sup>(٢)</sup> في صدر ليث غضنفر<sup>(٣)</sup>

(١) شجره بالرمح طعنه به . (٢) عامل الرمح وعاملته صدره دون السنان والجمع

العوامل . (٣) الاسد الغضنفر كسفرجل الغليظ الخلق المنغضن .

غدوت على «الميمون»<sup>(١)</sup> صباحاً وانما  
 أطلَّ بعطفية ومرراً كأنما  
 اذا زجر النوثي فوق علاته<sup>(٢)</sup>  
 يفضون دون الاشتيام<sup>(٣)</sup> عيونهم  
 اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له  
 اذا ما انكفا في هبوة<sup>(٤)</sup> الماء خلته  
 وحولك ركابون للهول عاقروا  
 تميل المنايا حيث مالت اكفهم  
 اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم  
 صدمت بهم صهب العثانين<sup>(٥)</sup> دونهم  
 يسوقون اسطولاً كأن سفينة  
 كأن ضجيج البحر بين رماحهم  
 تقارب من زحفة يهيم فكأنما  
 غدا المركب الميمون تحت المظفر  
 تشرف<sup>(٦)</sup> من هادي حصان شهر<sup>(٧)</sup>  
 رأيت خطيباً في ذؤابة منبر  
 وقوف السماط<sup>(٨)</sup> للعظيم المؤمّر  
 جناحا عقاب في السماء مهجر  
 تلعغ في اثناء<sup>(٩)</sup> برد محبّر  
 كؤوس الردي من دارعين وحسّر  
 اذا أصلتوا حدّ الحديد المذكّر  
 ليقلع الا عن شواء<sup>(١٠)</sup> مقتر  
 ضراب<sup>(١١)</sup> كإيقاد اللظى المتسعر  
 سخائب صيف من جهم ومطر  
 اذا اختلفت ترجيع عود مجر جر<sup>(١٢)</sup>  
 تؤلف من أعناق وحش منفر

(١) الميمون اسم المركب والمظفر المدوح . (٢) يقال اشرف المرأ علاه كتشرفه وشارفه ومثله تشوّف من السطح تطاول ونظر وأشرف . والهادي المتقدم من كل شيء او العنق ويقصد به مقدم السفينة . (٣) المشهّر فرس المهامل بن ربيعة التغلبي ولعله يريد بالمشهر كل فرس كريم . (٤) العلالة السندان حجراً كان او حديداً . ولكن ما مراده بالعلالة هنا ولعلها محرفة عن العلاء بالهمز . (٥) الاشتيام (الاستيام) رئيس المراكب البحرية الحربية . (٦) السماط الصف بكسر السين يقال قام بين السماطين ويقال قام القوم حوله سماطين اي صفين . (٧) انكفاً القوم رجعوا وتبددوا وانكفاً الى كذا مال اليه . الهبوة الغبرة ويعني بها رشاش الماء . (٨) اثناء — طيات . (٩) المقتر ذو القطار بالضم وهو الدخان من المطبوخ والشواء . (١٠) الاصهب والجمع صهب هو الذي يخالط بياض شعره حمرة والعثانين جمع عثنون وهي الحيسة يعني بذلك الروم لانهم شقروا الحمى . (١١) مجر جر من جرجر البعير ردد صوته في خنجرته والعود المسن من الإبل والشاء .



فما رمت<sup>(١)</sup> حتى اجلت الحرب عن طلي  
على حين لا تقع تطو حه الصبا  
وكنت ابن كسرى قبل ذلك وبعده  
جدحت له الموت الزعاف فعافه  
مضى وهو مولى الريج يشكر فضلها  
اذا الموج لم يبلغه إدراك عينه  
تعلق بالارض الكبيرة بعدما  
مقطعة<sup>(٢)</sup> فيهم وهام مطير  
ولا ارض أنقى للصرع المقطر  
مليئاً<sup>(٣)</sup> بان نوهي صفاة ابن قيصر  
وطار على الواح شطب<sup>(٤)</sup> مسمر  
عليه ومن يول الصنيعة يشكر  
ثني في انحدار الموج لحظة اخزر  
ثقة صه جري الردى التمطر<sup>(٥)</sup>

\* \* \*

سواحل الشام ونفقات الاسطول  
والمناور البحرية والرباطات  
والفداء  
كانت سواحل اجناد الشام كثيرة ،  
ولكن الصناعة صناعة المراكب كانت في  
صور وعكا وطرابلس على الاكثر .

وسواحل جند حمص في الاسلام انطرطوس ، بلنياس واللاذقية وجبله ، وسواحل  
جند دمشق عرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرند وعلول ،  
وسواحل جند الأردن صور وعكا ، وسواحل جند فلسطين قيسارية وأرسوف  
ويافا وعسقلان وغزة ، وسواحل جنسند فنسرين الاسكندرونة والسويدية . وعلى  
امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ انه أغير عليها الامن البر ، وما جاءها من  
الجملات البحرية في عدة أوار ولا سيما على عهد الاسكندر والرومان والصلبيين  
والانراك او الاسطول الانكليزي سنة ١٧٩٩ م والاسطول الدولي ١٨٤١ واسطول  
الحلفاء سنة ١٩١٨ لم يكن في الحقيقة الا ثانوياً أريد به دك بعض المواقع الحربية  
بنيران السفن او ضمان جلب الذخيرة او عدم قطع خط الرجعة من البر .

وذكر قدامة انه كان يجتمع الى مراكب الشام التي كانت تغزو من الثغور الشامية  
مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المائة ، والغزاة اذا غزوا عليها في البحر كوتب

(١) فمارمت ما برحت مكانك . (٢) الملي بالامر المضطلع به التقدير عليه .

(٣) الشطب الطويل الحسن الخلق وقداراد به المراكب . (٤) التمطر الفرس السريع .

اصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له ليجتمع بجزيرة قبرس ، ويسمى مايجتمع منها «الاسطول» كما يسمى مايجتمع من الجيش في البر «المعسكر» ، والمدبر لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار .

وذكر المقر بيبي ان اول ما أنشئ الاسطول بمصر في ايام المعتمك سنة ٢٣٨ فأنتشت الشواني برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، واجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع الحاربة وانتخب له القواد العارفون بحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الاسطول جاهل بامور الحرب ، وكانت الحرب سجالاً بين المسلمين والروم ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، وقد قويت العناية بالاسطول على عهد المعز الفاطمي ، فكانت المراكب تنشأ بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشانديت والمسطحات وتسير الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان . وكانت جريدة قواد الاسطول في آخر امرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة اعيان يقال لهم القواد ولم روانب دارة ، وكانت عدة المراكب السائرة في ايام المعز لدين الله تزيد على ستائة قطعة وآخر ما صارت اليه في آخر الدولة نحو مائة قطعة .

ولقد اتخذ المسلمون المنابر البحرية لهداية السفن على الشواطيء الشامية ، وكانت في معظم السواحل رباطات للنيل من الاعداء ان قدموا بجرراً ، فاهل دمشق يرابطون في بيروت ، واهل القدس في الرملة او يافا ، واهل حمص في طرابلس ، وكانت قرية كفر سلام من قرى قيسارية في فلسطين ولها رباطات على البحر يقع فيها النفير ، ونقلهم اليها شانديت الروم وشوانيتهم معهم اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات ، ويحمل اليهم اصناف الاطعمة ويضج بالنفير لما نترأى مراكبهم فان كان الوقت ليلاً أو قادت منارة ذلك الرباط ، وان كان نهراً دخنوا ، ومن كل رباط الى القصة عدة منائر شاهقة ، قد رتب فيها اقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم الى التي تليها ثم الاخرى ، فلا يكون ساعة الا وقد انفر بالقصة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي الى ذلك الرباط وخرج الناس



بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلاً وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم . ورباطات هذه الكورة التي يقع بين الفداء غزة ، مياس ، عسقلان ، ماحوز ، ازدود ، ماجوز بينسا ، يافا ، أرسوف - قاله المقدسي . والماحوز هو المكان الذي بينهم وبين العدو ، وفيه اسماهم بلغة الشام ، ومنه الحديث فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا .

وكانت حينما تشارك هذه المواثي في صنع المراكب وتسمى الابنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي اشارة الى سفينة نوح التي استوت على الجودي في الجزيرة .

وكانت الحروب سجالاً بين المسلمين والروم ، ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الاسلام على بلاد العدو ، وكان اول فداء وقع في الاسلام ايام بني العباس ، ولم يقع في ايام بني أمية فداء مشهور ، وإنما كان يفادي بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وغيرها ، الى ان كانت خلافة الرشيد فوقع الفداء الاول باللامس من سواحل البحر الرومي قرباً من طرسوس في سنة تسع وثمانين ومائة على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بروج دابق من بلاد قنسرين في اعمال حلب ، ففودي بكل اسير كان ببلاد الروم من ذكر وانثى ، وحضر هذا الفداء من اهل الثغور وغيرهم من اهل الأمصار نحو من خمسمائة الف انسان بأحسن ما يكون من العدد والخيال والسلاح والقوة وقد اخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفناء ، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزبي معهم اساري المسلمين ، فكان عدة من فودي به من المسلمين في اثني عشر يوماً ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير ، وجرى الفداء في ادوار مختلفة . ذكر هذا انقر يزي ثم عدد ما وقع من الفداء في اوقات مختلفة الى القرن الرابع وكان اكثر عد من فودي به في خلافة الواثق ٤٣٦٢ من ذكر وانثى .

\*\*\*

الاساطيل في القرون الوسطى } ومعلوم ما كان من اسطول الفاطميين من المنافع في زمن الحروب الصليبية فكانت بنجد المسلمين في عسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس وجبله واللاذقية . وكانت اساطيل الفاطميين

في الساحل مرتبة في عسقلان وعكا وصور وغيرها وذلك قبل ان يغلبهم الصليبيون على الساحل . وكان الاسطول من جملة العوامل في بقاء الامل باسترجاع البلاد ، وقد كان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات ، وفي العادة ان الاسطول اذا غنم ما عساه ان يغنم لا يتعرض السلطان منه الى شيء البتة ، الا ما كان من الأمرى والسلاح فانه للسلطان ، وما عداهما من المال والنيساب ونحوهما فانه لغزاة الاسطول لا يشاركهم فيه احد .

ولم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الايوبية ثم دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجية في إنشاء السفن الحربية والتجارية ، وان كانت عنايتهم بجيوشهم البرية اكثر بما لا يقدر ، وما كان الصليبيون بنالون من المسلمين في الساحل الا يوم تصل سفنهم من موافي الغرب ويكثر عددها ، حتى اذا أقلعت وخلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقلمة من الثغور ، او يد من يجب امداده من المسلمين في الساحل الشامي ، وعلى الرغم من المعاهدات التي عقدت بين اصحاب مصر والشام وبين امراء ايطاليا واسبانيا والبرتغال ، بعد القضاء على الصليبيين في الساحل ، فان بعض الفرنج والروم عادوا الى طريقهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا وبيروت وطرابلس ، ولما غزوا اسكندرية ( سنة ٧٦٧ هـ ) ارتأى رجال الدولة في مصر ان يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة ، حمالات وشواني ، للدخول الى قبرس ، فأحضروا الصناعات من جميع الممالك ، وعمروا مسطبة بظاهر بيروت وكانت المراكب تعمل بها على بهاء من البحر وأحضروا الخشب من دمشق فأنزل بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرس اثلاً يحضر العدو على حين غفلة فيحرق ما يعمل من المراكب ، وعملت حمالتان كبيرتان الواحدة باسم ( سنقر ) والثانية باسم ( قراجا ) وهما اميران من امراء ذلك الوقت ، ثم أهمل الاسطول الى ان جاء الجنوبية ( ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م ) الى صيدا واخذوها ثم جلاوا منها ، ثم عادوا فغزوا بيروت ورمى الفرنج المسلمين بالجروح<sup>(١)</sup> والمدافع — روى ذلك صالح بن يحيى .

(١) الجروح جمع جرح فارسية معناها الدولاب وهي آلة ترمى بها الحجارة والنفط وغيرهما .



وكانت جزيرة قبرس مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لانها مفتاح الشام ، وهي تعد من بجزر وقطره ، ولذلك كان اذا استولى عليها صاحبها من الروم وقوي سلطانة صانعه صاحب مصر والشام ، واذا استضعفه أسروه وحملوه الى العاصمة فأهانوه وأذلوه . وكان ملك انكلترا ، او ملك الانكتار كما يقول مؤرخونا سيف الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة ، وقد جعلها ريشاردس قلب الاسد لما جاءه باسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين ، فاعده اعماله الحربية البحرية . فانظر كيف بعيد التاريخ نفسه ، وكيف يتسلسل الفكر في الغرب و ينقطع في الشرق باقطاع من يتدعه و يؤسسه .

وكان الجنوبية والبيسانة والبنادقة من سكان سواحل ايطاليا قد استولوا على أزمه البحار في تلك العصور كما استولت عليها برطانيا العظمى في العصرين الاخيرين ، وكانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط بأنون بعض السواحل الشامية بغزونها ، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية ، لكن الاعتماد في نقل الجيوش من مصر والشام كان على طريق البر لانه أسلم ، اللهم الا في اوقات مخصوصة من السنة وعندما يُصافي ملوك الفرنجة والروم وصاحب قبرس . وظلت العناية بالاساطيل على عهد حكومات الممالك البحرية والبرجية تختلف باختلاف عقل الساطن المنقلب ، ونفرغ ذهنه لصيانة مملكته من الطواريء الخارجية . اما السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصاً واهل الشام ما برحوا . منذ الزمن الأطول أمة تمارس الاغفار البحرية ، وتعرف من اين تؤكل الكتف في المتاجر ، وقد شوهدت آثارها حتى في جزائر برطانيا وبلاد النروج وفنلندة ومعظم سواحل البحر الابيض .

وكانت الحروب الصليبية معمة لاهل اوربا على طريق البحار الى الشرق ، ومعمة لاهل الشام على اختراق العباب الى اوربا ، وكل ذلك على سفن ومراكب فئات امثلة منها في المتاحف البحرية في الغرب ولاسيا في ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكانت السفن الحربية تسمى باسماء كثيرة منها الاغربية والبُطسات والاعواديات والبركوشات والشنديات والمسطحات والحراريق ( الحراقات ) واليخوت والوانى والقرافير . وكثيرة اختلاط النواتية والملاحين من اهل الشام وغيرهم من السواحل الاسلامية

بإبناء حرفتهم النازلين على الشاطي\* المقابل للشاطي\* الافريقي والشامي ، اخذ الفرنج كثيراً من المصطلحات البحرية عند العرب ، ونقلوها الى لغاتهم محرفة مرخمة ، ولا تزال الى اليوم نقرأها في معاجم اللغات اللاتينية خاصة ، ومنها « امير الماء » فحرف منها الفرنج وصاغوا لفظ « اميرال » والاصل فيها امير الماء اي الربان الاعظم وقائد الاسطول ، وقد اخذ الفرنج من العرب استعمال ابرة السفينة ( الحك او الحقنة ) وكان العرب اخذوها عن الصينيين فيما قيل واخذها الفرنج عنهم في الحروب الصليبية .

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر كانت الاسطول العثماني في إبان قوته ، وكانت بعض سفنهم نقلع من موافي الروم وتأتي ساحل الشام ، وبعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر ، واذا حدثت فتنة داخلية كانوا يجيئون بعض مراكزهم لتساحل الشام وتشاطي\* الارض التي نجم فيها الشر ، حتى اذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة — ولا سيما بعد ان أحرق اسطولها والاسطول المصري في نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة ١٨٢٧ أحرقته الأساطيل الانكليزية والفرنسية والروسية ، لان الدولة العثمانية لم تراع اصول الهدنة التي كانت تقرر بين العثمانيين واليونانيين ، ولم يفقد من اساطيل الحلفاء شيء مع جودة المدفعية العثمانية اذ ذلك — أصبحت السفن التي يتمتع سكان السواحل بمراها للام الحديثة ولا سيما الروسيون والجنوبيون والبنادقة والفرنسيس والانكليز ، وقلت سفن البرنقالبين والاسبانيين ، لان طرق مستعمرات هاتين الدولتين وتجارتهما لم تكن على بحرنا ، وسفنهم تنخر العباب الى وجهات أخرى في اميركا وآسيا . والغاب ان الصناعة اي صنع المراكب كان خاصاً بالاستانة ولم يعهد في دور العثمانيين ان أتأرا سفناً في صناعات الشام . وكان للعثمانيين مراكب في الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشام الى العراق ، ولا سيما في زمن الثورات والازمات ، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبي .

وانحلت بحرية الترك في أواخر ايامهم حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام الا على الندر مراكب عثمانية ، وهي اذا قبست الى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الام المتحركة المتجددة وبحرية الامة الجمادة الخاملة . وكانت الدولة ان صححت

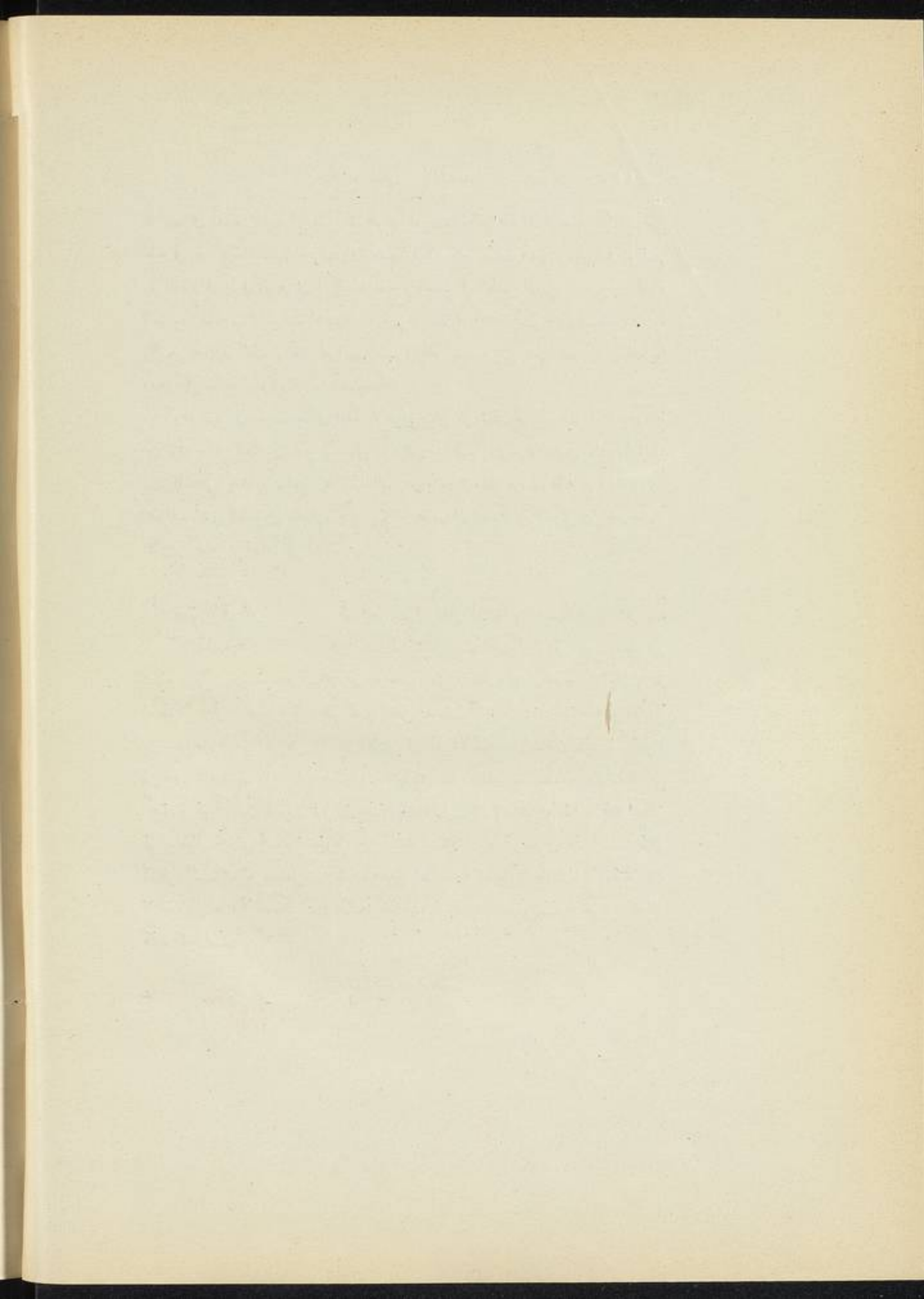


عزيمتها في أواخر أيامها ان نشي لها طراداً اورعاداً اوغواصة اودارعة او يحنأ ، نوصي عليه في صناعات ايطاليا اوفرنسا اوانكلترا ، لان العلم بذلك فُقد من بنيتها ، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري ، كما سارت مع العصر في الجيش البري ، بمعنى ان الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضها دولة برية فقط ، وكانت تجمع المزيتين البرية والبحرية ايام كانت ترتعد الفرائص منها في الغرب ، ويتمنى عظماء ملوكها ان يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها وجيوشها .

وقد ظهر في حرب چناق قلعة الاخيرة مثال من ترقية بحرية الحلفاء ، ونموذج من ترقية جيش العثمانيين ، واستبسال قوادهم وضباطهم وأفرادهم . وفي مغادرة الحلفاء ذلك الشاطي بعد ان أضاعوا زهاء مئة الف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة وزيادة ، اعتراف ضمني للعثمانيين بتفوقهم بيجيوشهم البرية ، وان العسكري التركي من خير جنود الارض صبراً وإقداماً على الموت .

\*\*\*

فصورنا في البر } ومن الغريب ان اهل الساحل ، ومنهم قسم يفخر بانه  
والبحر } من نسل الفينيقيين سادة البحار ، لم تصح عزيمتهم الى  
اليوم ، على كثرة ما بلغه الشامي من درجات الغنى والتمدن في مهاجره ، ان ينشئوا لهم  
اسطولاً تجارياً صغيراً على النحو الذي نفعل أضف الشعوب لنغدو وتروح على الأقل  
بين سواحل البحر الابيض والبحر الاحمر والبحر الاسود ، يحملون عليها متاجرهم  
وينقلون قاصديهم وأبناءهم ، ويعتمدون عليها في نقل صادرات القطر ووارداته ، على  
الصورة التي كانت لليونان قبل ان ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مئة سنة ، فكان  
لهم اسطول تجاري قلبه اسطولاً حربياً يوم استقلوا . وأغرب من هذا ان يقال  
للقطر الشامي انه مسنقل ، وما شوهدت قط في قديم ولا حديث ، امة مستقلة  
لا اسطول لها ولا معسكر . وهذا من اغرب ما يدونه المدونون ، من اخبار  
هذه القرون .





## الجباية والخراج

—••••—

جبايات القدماء } عزّ علينا الظفر بنص صريح في اصول الجباية في  
الامم القديمة التي انبسط سلطانها على هذا القطر ،  
وغاية ما عرفنا عن الرومان وهي الامة الاعرق في المدينة من غيرها والتي طال عهدها  
سبعائة سنة ، انه كان يقضي على الشعب الشامي ان يؤدي الجزية وعشر غلاته ،  
وإتاوة من المال ، ورمماً على كل رأس . وللشعب الروماني مواد مهمة من الجمارك  
والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراع الخنطة والمراعي يؤجرونها من شركات  
متعهدين يسمونهم العشارين ، يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج . وفي كل  
ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة  
يظهرون في مظهر السادة ، ويتناولون اكثر مما يجب لم اخذه ، ويسلبون نعمة الاهلين ،  
وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق . ولما كان الرومان قد جمعوا في بلادهم ثروة الامم  
المغلوبة اصبحت الدراهم كثيرة جداً في رومية ، ونادرة جداً في الولايات ، فكان في  
رومية يمكن الافتراس بفائدة اربعة او خمسة في المائة اما في الولايات فلا يقل عن  
اثنى عشر في المئة . واذا لم يستطع المدين ان يوفي رأس المال ورياه بمعد الصيارف  
في نقاضي أموالهم الى الطرق التي يستعملها العشارون . اوجز اخدم السياسة  
الامبراطورية في الرومان بقوله : « الراعي الصالح يجرّ صوف غنمه ولا يننّفه » ففضي  
قرنان وامبراطرة الرومان يكسّفون بجز سكان مملكتهم ، يسلبون منهم كثيراً من  
الأموال ولكنهم يجمعونهم من العدو الخارجي .

ويقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي الشام على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم خراجاً جبوه من الأملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عائق الشاميين من المغارم والسفر التي حملهم اباها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا اه .

وفي قاموس الكتاب المقدس ان العشار ملتزم الاعشار والضرائب عند الرومانيين وكانوا مشهورين بالظلم والصرامة ، وان النعشير جرى قبل ايام موسى بكشير بين الامم القديمة ولا سيما الآسيوية وأدخلها موسى باءلهام آبي في شريعته وأعطيت العشور للاو بين الذين لم يكن لهم نصيب من الارض فالتزموا ان يأخذوا معاشهم من إخوتهم وكانوا يعشرون البقر وبقية المواشي ولم يكن عشر الاعشاب مطلوباً الا ان الفر يسبين كانوا يعشرون النعنع والشبث والكمون . اما الجزية على ما يؤخذ من روايات التوراة فقد علم ان الشريعة الموسوية كانت تفرض على كل معدود نصف شافل يتفق في سبيل خيمة الاجتماع وفي الايام الاولى من تاريخ العبرانيين الى ايام الملوك لم تكن جزية للخدمة المدنية والعسكرية وانما قدم الشعب من عمله ومقنياته تبرعاً حتى جعل الملوك جزية او خراجاً على الارض وأكمل ذلك سليمان الي درجة ثقيلة جداً على الشعب .

\*\*\*

اعتمدت العرب اول الفتح في تنظيم دواين أموالها } الجباية في الاسلام  
على الروم في الشام ، ينظرون لهم في مسائل الدخل }  
والخرج ، ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام ، وذلك لان العرب كانوا لاول  
امرهم نصف أميين او نصف متحضرين ، واهل الشام أعرق منهم في الحضارة وما ينبغي  
لها ، حتى كان زياد يقول : ينبغي ان يكون كتساب الخراج من رؤساء الاعاجم  
العالمين بأموال الخراج .

ولقد كان الايسراف يبدو في الاموال ايام الترف والنعيم ، وينجلي الاقتصاد



ففيها على عهد الجدة والاصلاح ، وذلك يرجع على الاغلب الى من يتولى امر الامة من خليفة او سلطان او ملك او امير ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الاتفاق محصورة داخل البلاد ، وكان النقد أقل من هذه الايام بالطبع ، والنفنن في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاخيرة ، وحركة المعاملات والمقايضات محدودة ، وأضعف من العصور الحديثة ، كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السذاجة لاول الامر شأنهم في عامة امورهم .

والجباية اول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة ، فان كانت الدولة على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهي قليلة الوزائع ، لان مقدار الزكاة من المال قليل ، وكذا زكاة الحبوب والماشية ، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى ، وان كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداوة في اولها . والبداوة تقتضي المسامحة والمكرامة وخفض الجناح ، والتجافي عن أموال الناس والغلة عن تحصيل ذلك الا في النادر . قال : والدولة تكون في اولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده ، فيكون خرجها وانفاقها قليلاً ، ويكون في الجباية حينئذ وفاة بازيد منها ، بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ، ثم لان قلت ان تأخذ بدین الحضارة في الترف ، فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ، ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة ، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ، ويستحدث أنواعاً من الجباية يضر بها على البياعات ، ويفرض لها قدراً معلوماً على الاثمان في الأسواق ، وعلى اعيان السلع في المدينة .

\*\*\*

كانت الجباية في الصدر الاول تجمع من الخراج  
 والعشور والصدقات والجوالي<sup>(١)</sup> اي ان لها اربعة موارد } ضرور الجباية

(١) «الفي» ما يؤخذ من ارض العنوة «الخراج» ما يؤخذ من ارض الصلح «العشر» ما يؤخذ من زكاة الارض التي أسلم اهلها عليها والتي أحيها المسلمون من الارضين او القطائع « صدقات الماشية » وهي زكاة السوائم من الاوبل والبقر والغنم دون العوامل

رئيسة ، ثم صارت اصول جهات الأموال السلطانية عشرة الجزية والخراج والعشور والاجور والزنوت وأثمان المبيعات والمقاسم والغنيمات والني والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد المخطاط هذه البلاد ونسي المنغلبون والفاطمون « ان تكثير المالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه . »  
قال الظاهري : ان كثرة الأموال وقلتها بقدر المعرفة باحتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واجبة ، وأجور لازمة ،

والمعلوفة « الكراع » هي الدواب لاغير « الحشيري » هو ميراث من لا وارث له « الركاز » دفين الجاهلية « سيب البحر » هو عطاء البحر كالؤلؤ والمرجان والعبير ونحوه . ومن ابواب المال أخماس المعادن وأخماس الغنائم وجزء رؤوس اهل الذمة جمع جزية وهو معرب كزيت وهو الخراج بالفارسية « مال الجوالي » جمع جالية وهم الذين جلوا عن أوطانهم ويسمى في بعض البلدان مال الجماعم وهي جمع حجمة وهي الرأس « المكس » ضريبة تؤخذ من التجار في المراسد « الطسق » الوظيفة نوضع على أصناف الزروع لكل جريب وهو بالفارسية نشك وهو الاجرة « الاستان » المقاسمة « الاقطاع » ان يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبته وتسمى تلك الارضون قطائع واحديتها قطيعة « الطعمة » هي ان تدفع الضيعة الى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها وتكون له مدة حياته فاذا مات ارتفعت من ورثته والقطيعة تكون لعقبه من بعده « الأيفسار » هو الحماية وذلك ان تحمي الضيعة او القرية فلا يدخلها عامل ويوضع عليها شيء يؤدي في السنة لبيت المال في الحضرة او في بعض النواحي . « التسويغ » ان يسوغ الرجل شيئاً من خراجه في السنة وكذلك الخطيطة والتريكة « العبرة » ثبت الصدقات لكورة وعبرة سائر الارتفاعات هو ان يعتبر مثلاً ارتفاع السنة التي هي أقل ريعاً والسنة التي هي أكثر ريعاً ويؤخذ نصفها فتلك العبرة بعد ان تعتبر الاسعار وسائر العوارض الواقعة « التبيحة » ان يلجى الضعيف ضيعته الى قوي ليحامي عليها وجمعها الملاجي والتلاجي وقد يلجى القوي الضيعة وقد لجأها صاحبها اليه . ( مفاتيح العلوم ) .



وديات دماء ذاهبة ، ومحرم مباحات راتبة ، ومستخرج معادن غير ناهية ، وعدد نعم سائمة لاسائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصبة ، الى غير ذلك من تربيح مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتفرغ مواضع ، وترجيع طوابع . فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها . ويمكن من استيفائها بسلك طريقها ومنهاجها . وفوض فيها حقوقاً تجب رعايتها . عند صرفها واخراجها اه .

وقال الغزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان : قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنمة المأخوذة بالقهر . والتي وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال . والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة . والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحمل منه لا قسماً . الموارث وساير الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك . والاقواق التي لا متولي لها . اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الخامس — وماعدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . وقال ايضاً : ان أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها اواكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والتي والغنمة ولا وجود لها ، وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بانواع من الظلم لا يحمل اخذها به . فانهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط . ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين . ومن المصادر والرشا و صنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره .

\*\*\*

اول ما فرض من } واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل الجباية } يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي مع حارثة بن قطن الكلبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامتة من النخل . على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر . لا تجمع سارحتكم . ولا تعد فاردتكم . تقيمون الصلاة لو قمتها . وتؤتون الزكاة بحقها . لا يحظر عليكم النبات . ولا يؤخذ منكم عشر النبات . لكم بذلك عهد الله والميثاق . ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله

ورسوله . شهد الله . من حضر من المسلمين اه . واول أقطاع اقطعه الرسول عليه السلام لتيمم الداري كان سنة تسع للهجرة اي قبل ان تفتح الشام بربع سنين وذلك بعد منصرفه من غزوة تبوك .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور . وكان لأول الفتح ضرب الخراج على الارض والجزية على الرقاب ، وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده ، راعى في كل ارض ما تحتمله وكانت الجزية في بدء الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة ثم وضعها عمر بن الخطاب على الذهب اربعة دنانير ، وعلى الورق اربعين درهماً ، وجعلهم طبقات لغنى الغني ، وإقلال المقل ، وتوسط المتوسط ، وقيل جعل على كل رأس مومر ثمانية واربعين درهماً ومن الوسط اربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً . والجزية تؤخذ من غير المسلمين . والخراج يشترك فيه كل من يملك ارضاً .

وصالح ابو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كتاباتهم وبيعهم ، وعليتهم إرشاد الضال ، وبناء القناطر على الانهار من أموالهم . وان يضيغوا من مراً بهم من المسلمين ثلاثة ايام . وصالحهم عمر على ضيافة من مراً بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة او دجاجة . وتبيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب<sup>(١)</sup> عامر او غامر بناله الماء بدلوه او بغيره زرع او عطل درهماً وقفيزاً<sup>(٢)</sup> واحداً . وألغى عمر النخل عوناً لاهل السواد . واخذ

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات ، والقفيز عشر قصبات في قصبه ، والعشير قصبه في قصبه ، والقصبه ستة اذرع ، فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر .  
(٢) القفيز مكيال ثمانية مكاتيك جمع مكوك . وفي القاموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواقي او نصف الوبة والوبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمد النبي (ص) او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع مناساً وسبعة



من جريب الكرم عشرة دراهم ، ومن جريب السمسم خمسة دراهم ، ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ، ومن جريب القطن خمسة دراهم ، ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً ، وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً ، وعلى كل الف اصل كرم مما بعد ديناراً ، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً ، وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ، وما دون اليوم فهو في القرب ، وجملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الخضر من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . اما المكوس على البضائع فكانت تختلف باختلاف الاعصار وكانت قليلة في العهد الاول . كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري أن خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين فمن كل اربعين درهماً درهم . ومن تجار اهل الخراج نصف العشر ومن تجار المشركين من لا يؤدي الخراج العشري من اهل الحرب .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال : يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين . وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الاقباض ويقسمونها بين الفساحين . وامر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسح السواد ان لا يمسح ثلاثاً ولا اجمةً ولا مستنقع ماء ولا ما لا يباهه الماء . ولما فرض على الرقاب

اثمان منا والمنا رطلان والرطل اثنا عشرة اوقية والاوقية اثنان وثلاثون رطلان والاسنار اربعة مثاقيل ونصف المثقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دنانير والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج جبتان والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وجعل على من لا يجد اي الفقير اثني عشر درهماً في السنة قال : درهم في الشهر لا يعوز رجلاً . وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي .

ذكروا في النبي والخراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم ، وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزداد عليهم ، وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ، ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في أموالهم وأراضيهم ، ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتسبونه — قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما آفأه الله عليهم ، فاذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به الى العسكر من كراع اومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لم وله سهم في الاسلام ، ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وما له لاهل الاسلام لانهم قد أحرزوه قبل الاسلام اه . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حمص وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بنقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه وبأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية . فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه .

ولما طعن عمر قال : أوصى الخليفة من بعدي باهل الأمصار خيراً . فانهم جباة المال . وغیظ العدو . وردء المسلمين . وان يقسم بينهم فيئهم بالعدل . وان لا يحمّل من عندهم فضل الا بطيب أنفسهم . وأوصى الخليفة من بعده باهل الدمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويعمل أموالهم في بيت المال . فمن صدر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه أجاز رجلاً اتجمعه منهم الاشعث بن قيس أجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من أين هذا



الثراء قال : من الأقال والسهام ما زاد على ستين ألفاً فلك فقوم رماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في أدب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار . فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماع من ذلك الثلثان . وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماع من ذلك الثلثان . وعلى الأردن مائة وثمانين الف دينار على الجماع من ذلك الثلثان . وعلى فلسطين مثل ذلك . ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة و يدفعها الى الرجل بمخراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

\*\*\*

عدل الخلفاء الراشدين } ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن  
السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين

وعوناً للمسلمين على أعدائهم . فبعث اهل كل مدينة بما جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبلم يتخسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم . فكتب ابو عبيدة الى كل وال من خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما ردنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك . وقد ردنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا لم يردوا علينا شيئاً . واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث فيما يظهر لانه أعطى بعض ولاته حر يتيهم . ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال وبيذرونه . وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قريش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها فسلمها الى من يبرها ويزدي الحق عنها . واقتني هو وجماعته الضياع

والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله . وكان عثمان على ما يظهر على شيء من السعة قبل الخلافة ، وكثرت في ايامه أموال الأتقال والغنائم بكثرة الفتوح .

قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كانت الفرس يشتري بمائة الف ، وحتى كان البستان بالمدينة يباع باربعمائة الف ، وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس ، يجي اليها خراج الممالك وهي دار الأمانة وقبة الاسلام ، فبطل الناس بكثرة الأموال والخيل والتمتع وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا ونفروا اه .

وأراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى الطريقة الشينين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك . واستأثر معاوية بأمانة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة . وما كان لعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الدهية الذي دعي بكسري العرب لكثرة أهبته ونفقته . وكان يبذل المال لمن وافقه ولمن خالته . فأنشأ للأموال بين ملكاً بالشام توارثوه ، وبنوا القصور والمصانع والمرافق . وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتنطع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الأموال ، والاعضاء عن بعض الحقوق ، ولا مجال للإنكار ان من خلفاء الأمويين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون أنفسهم او بعض أبناء بيتهم او خاصتهم الأقطاعات الكثيرة .

والجباية كانت تكثرت في عهد العادلين اكثر من زمن الجائرين . وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والأقطاعات أقطاعات تملك وهو موات وعامر ومعادن ، وأقطاعات استغلال وهو عشر وخراج . واللقاح البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الأربان والأربان هو الخراج وهو الإتاوة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فأحيوه باذن الولاة . واول من أقطع الأرضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

أوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبعن لهم



كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب احداً منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تُنقمة على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرساً في شيء من الخراج ، فانما أمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : ونفقد امر الخراج بما يصلح اهله ، فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ، لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله ، وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استيلاج الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ، ولم يسقم امره الا قليلاً ، فان شكوا ثقلأ او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة ارض اغتمرها غرق او أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ، ولا يثقن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم ، فانهم ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك ، مع استيلاج حسن ثنائهم ، وتبجحك باستنفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم ، فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد ان احتملوه طيبة انفسهم به ، فان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من إعواز اهلها وانما يعوز اهلها لاشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انفاعهم بالعبارة .

وقد كانت نفوس العمال الذين ولاهم عمر بن الخطاب على مثاله من النكشف والزهد في المال . رزق عياض بن غنم حين ولاء جند حمص كل يوم ديناراً وشاة ومداً . ولما قدم عمير بن سعيد امير حمص على عمر قال : مامعك من الدنيا فقال : معي عصاي أتوكأ عليها واقتل بها حية اب لقيمتها ومعني جرابي احمل فيه طعامي ومعني قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعني مطيرتي احمل فيها شرابي ووضوئي للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر صدقت رحمك الله .

\*\*\*

أحكام عمر بن عبدالعزيز } هكذا كان قانون الخلفاء الراشدين وسيرتهم  
العادلة } الصالحة مع عمالهم وما كانوا يدخرون مالا

للأمة ولا لانفسهم الا ان الأمويين الذين قلبوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا

بهمون بتوفير الجباية لئتمكنوا من أعمال العمران التي أقاموها وإطعام الجيوش التي فتحوا بها القاصية . وكانت الجباية ثقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثير منه تقطع او زلزال او وباء . ولقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النبروز والمهرجان فيحمل اليه في النبروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف الف . وهدايا النبروز والمهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة والعتاء وورث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطنع التي أقطعها اهل بيته والعتاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظالم . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد أصابهم بلاءٌ وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سنتها عليهم عمال سوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص . وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لا سامة بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر بتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان ننعشهم فانعشهم . كان سليمان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القمح لا تبقها لاحد بعدي . فعمل أسامة في مصر أعمالاً جائزة حتى استخرج من أهلها اثني عشر الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة جعل لا بدع شيئاً مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردها مظلمة مظلمة . خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنسا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا اياها واني قد رأيت الآن انه ليس علي في ذلك دون الله حسيب وقد بدأت بنفسي والأقربين من اهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم ، فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتباً فيه الاقطاعات بالضياع والنواحي ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجم اي المقرض .

ولقد اجتمع اليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على اخذ ما في ايديهم من حقوق الناس وردة على اهلهم واكلوه فقال : انكم أعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلانسوا



حظكم من الله واني لاحسب شطر أموال بني الدنيسا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد الا رددته . وقال لبني مروان : أدرا ما في ايديكم من حقوق الناس ولا تلجؤوني الى ما اكره فأحملكم على ما تكرهون فلم يجبه احد منهم . فقال : اجيبوني فقال رجل منهم : والله لا نخرج من اموالنا التي صارت الينا من آبائنا فنفق ابنائنا ونكفر آباءنا حتى نزال رؤوسنا فقال عمر : اما والله لولا ان تستعينوا عليّ بمن اطلب الحق لهم لأضرت خدودكم عاجلاً ولكنني أخاف الفتنة ولئن أبقي الله لأردن الى كل ذي حق حقه ان شاء الله . وكان عمر اذا نظر الى بعض بني أمية قال : اني اري رقاباً سترد الى اربابها .

قال ابن سعد : لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الجزية عن كل مسلم وأباح الأسماء كلها الا النقيع . وفرض عمر بن عبد العزيز للناس الا للتاجر لان التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار . وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استبرئ الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم . وما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف وقد اخرج من ايدي ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه بنفق عليه وقاصه من جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بدٌّ من ان تنفق عليه حتى يموت او يعنق . وكتب اليه : ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس والمعمرى ما هو المكس ولكنه البنس الذي قال فيه الله ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين . فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يؤد فالله حسيبه . وحرّم عمر بن عبد العزيز الكلال في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذي يشير به على من ولي هذا الامر من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهلته فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر فيه فوضعه مواضع الخمسة وآثر به اهل الحاجة من

الانخماس حيث كانوا ، فان كانت الحاجة سواءً وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس ، وانه ربما اعطى المال من يستألف على الاسلام وانه اعطى بطريقاً الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من المعادن الخمس ، وتؤخذ منها الصدقة ، وأنكر التسخير في سلطانه ، وضرب احدى اربعين سوطاً لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل الارض وبين مبيع ما في أيديهم من ارض الخراج ، فانهم انما يبيعون في المسلمين والجزية الراتبية . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء أنبته الله فليس احد أحق به من احد .

دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال : كم جمعت من الصدقة فقال : كذا وكذا قال فكيف جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك فقال عمر : من اين ذلك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال : لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه . وكتب : اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا الصدقة على وجهها ، فتعدى عمال السوء ما أمروا به . وقد رأيت ان أجعل سيفي كل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى عامله ان لا تقانلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى الاسلام ، فان قبلوا فكفف عنهم ، وان ابوا فالجزية فان ابوا فانبذ اليهم على سواء .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد أصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه ، وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والتربية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه » اي فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد : رد عمر بن عبد العزيز المظالم التي احتجبها بنو مروان فأبغضوه وذموه وقيل انهم سموه قنات . اما من جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا أشكالا ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد . فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف دينار ففرقها يزيد عن آخرها . وذكر المؤرخون ان الوليد بن



عبد الملك بن مروان أقطع جنداً نظاكية ارض سلوقية عند الساحل وصير اليهم الفلأثر  
 بدينار ومُدَي قمح فعمّروها واجرى ذلك لهم وبني حصن سلوقية . والفلأثر مقدار من  
 الارض معلوم كما يقول غيرهم الفدان والجريب . وأقطع عبد الملك بن مروان ضيعة  
 بزملكاً لحفص بن عمر بن سعيد الأزدى وذلك انه قال يوماً لعبد الملك : يا امير المؤمنين  
 ان في غوطة دمشق قرية يقال لها زملكا ، ولي فيها بنو عم وسألوني الاشراف عليهم ،  
 وليس لي في الموضوع شيء . فقال له عبد الملك : سل هل لنا في تلك القرية شيء ، فنظروا  
 فاذا فيها ضيعة من صوافي الروم فأقطعه إياها ، وكتب له عبد الملك بذلك كتاباً  
 يقول فيه بعد البسملة : هذا كتاب من عند عبدالله عبد الملك بن مروان امير المؤمنين  
 لحفص بن عمر بن سعيد بن عبد العزيز الأزدى اني انطيتك بقرية زملكا كذا وكذا  
 فدانا وأشهد على نفسه اخويه محمداً وعبد العزيز وقبصة بن ذؤيب وروح بن زباع .  
 أوردناه مثالا من منجم الاقطاعات .

\* \* \*

العباسيون والجبابة } وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد . فقد اخذ  
 ومساحة الشام } المنصور أموال الناس حتى ماترك عند احد فضلاً ،  
 وكان مبلغ ما أخذ لهم ثمانمائة الف الف درهم . وعدل ابو جعفر المنصور ارض الغوطة  
 غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان أداء الناس على ذلك .  
 وكان خلفاء من بني العباس بعمدون الى ابطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون  
 امراً بدون اخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم . فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة  
 الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام الموايرث الى ذوي الأرحام وأبطل ديوان  
 الموايرث . وخلف المعتضد هذا في بيوت الأموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق  
 الف الف درهم . ومن خلف هذه القناطير المقنطرة من الذهب لا بد له ان يظلم أمته  
 وان لا يصرف أموالها في وجوه مصالحها ، وقد كنت ترى في أيام العباسيين عدلاً  
 شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلاماً شائناً في دور آخر ، فعهد الرشيد والمأمون والمهدي  
 والظاهر والموكل كان عجباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨  
 الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق في التقدم الى عماله في حسن السيرة

وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل عمله قائلاً ، فنقدم إلى عمالك في ذلك أشد  
القدمة ، وأكتب إلى عمال الخراج مثل ذلك . وكتب إلى جميع عماله في أجناد الشام  
جند حمص والأردن وفلسطين بمثل هذا .

والمهدي مثلاً أفتح أمره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فأذهب جميع  
ما خلفه المنصور وهو ستائة الف الف درهم وأربعة عشر الف الف دينار سوى ما جابه  
في أيامه . والمأمون العباسي أقام سنة بدمشق ( ٢١٤ ) مساحة أراضي الشام واجتلب  
لتعديله مساح العراق والأهواز والري وكان جده أبو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم  
يتم له فبعث ببيعة بن الوليد يمسح أراضي دمشق كما كان بعث اسماعيل بن عياش العنبيسي  
الحصني إلى دمشق فعدل أرضها الخراجية وعدل أحمد بن محمد أرض دمشق والأردن  
وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل أرض ما تستحقه . وقال المسعودي :  
احتال كتاب الدواء بن علي المتوكل لخوفهم منه وقالوا إن البلد يحتاج أن يعدل ولا يقوم  
بالتعديل إلا من ولي ديوان الخراج فتوجه سنة ٢٤٠ يعدل دمشق والأردن .

والخلفاء الأول من بني العباس كانوا أقرب إلى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل  
ابن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد أنه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد:  
وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدُر ، نكفأ أمواجها على رياض كالزرايين ، واردة  
منها كفايات المؤمن إلى بهوت أمواله ، فما برح بك النعدي لارفاقهم فيما أمرتك حتى  
جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير  
التوفير من جهته ، ولكن وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فنفرقوا في ميدان النعدي ،  
ورأوا المرائمة بترك العارة أوقع باضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلا جرم إن  
أمير المؤمنين قد أخذهم بالحظ الأوفر من مساءة في أه . وفي أيام الرشيد رفضت ضياع في  
فلسطين وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوماً من مزارعيها  
وأكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا ،  
فأولئك أصحاب التخفيف ، وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم أرضهم على مثل ما كانوا  
عليه ، فم أصحاب الردود .

والمهدي أول من نقل الخراج إلى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً



مقررًا ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . وأعاد الظاهر بأمر الله سنة ٦٢٢  
سيرة العمرين . قال ابن الأثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز يمثله  
لكان القائل صادقاً فإنه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه شيئاً كثيراً وأطلق  
المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جده أبوه ،  
وكان كثيراً لا يحصى ، وفي أيام أبيه خربت العراق وفترق أهله في البلاد .  
خربت العراق وما إليها من الأمصار والأقطار للشدة في نقاضي الجباية والنفن  
في الضرائب وعدم إطرادها على ونيرة واحدة . كتب علي بن عيسى إلى عامل ديار ربيعة  
وقد ورد الحضرة قوم من أهلها يتظلمون من حيف لحقهم في معاملتهم : « بسم الله الرحمن  
الرحيم . في علمك أكرمك الله بما أمر الله به من العدل والاحسان ، ونهى عنه من الجور  
والعدوان ، وعاقب به الظالمين في سالف الأزمان ، غنى لك عن التنبيه والتوقيف ،  
والوعظ والتخويف ، وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبية ، في انكار الظلم وإزالته ، وإظهار  
العدل وإفاحتها ، كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة أكرمك الله ، جماعة من وجوه  
الديناء والمزارعين بديار ربيعة ، متظلمين مما عوملوا به في سني ثلاث عشرة وثلاثمائة ،  
من إكراههم على تضمين غلات بهادرهم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الأعراس في  
ضياعهم على التربيعة ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبء ، قبل إدراك غلاتهم  
وثمارهم ، وإكراه وجوههم وتجارهم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة ،  
فأقلقتني ما أفاضوا فيه من الشكوى ، وأبني ما انتهوا إلى وصفه من عظيم البلوى ،  
ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره ، عائداً بخراب الضياع ونقصان الارتفاع ، فينبغي  
أكرمك الله ، ان تجري سائر رعيته على المعاملات القديمة ، وتحملهم على الرسوم  
السليمة ، حتى يعودوا إلى أفضل حال عهدوها ، وأجل سيرة حمدوها ، وتزيل السنن  
الجائرة وتبطلها ، وتقطع أسبابها وتحسمها ، وتكتب إلي بما يكون منك في ذلك ،  
فانني على اهتمام به وصراعة له ان شاء الله » .

ولو رجعت إلى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل . وفي  
الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة إلى الخليفة هرون  
الرشيد صدارة جميلة من تلمظ العلماء في نصيح الملوك والخلفاء . وكتابه دستور في

الجباية تستدل به على ترقى العقول في عصره . وما خلا عصر من علماء يعون على العمال أعمالهم ، وتجهون تجانفهم عن طرق الحق في معاملة الامة ، وقلما كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للخير من الخلفاء فمن دونهم .

\*\*\*

الذميون وتجارهم } وكثيراً ما كان الناس يعدّون في الخراج ، وقد وقع ذلك في أوائل دولة الأمويين بالشام ، فأخذ جباية الجزية يعدّون بعض أهل الذمة ، ويعملونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم ، فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكافين من ذلك اليوم . ونص الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني اتجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها ، واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجر لم يؤخذ منه مما حمل قليل ولا كثير حتى يبيع . وقال مالك في النصراني يكرى ابله من الشام الى المدينة : يؤخذ منه في كرائتهم العشر بالمدينة قال : لا . فان اكرى من المدينة الى الشام راجعاً يؤخذ منه . ويؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلمهم و يؤخذ من عبدهم كما يؤخذ من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة : ان اتجرت في بلادكم فليس عليكم في أموالكم زكاة وليس عليكم الا جزيتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضررت في البلاد وادرت أموالكم اخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ منهم كما جاؤا وان جاؤا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .

زاد الاجحاف بحق الرعيه لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او امير يستولي على اقليم صغير من الارض و يجنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً من ذلك بنو حمدان في حلب وماليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لجوا في الاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تقطع فاستأثر القضاء بهلاك العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجمين . ولي خلافة الراضي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من تولى امره الامراء تحمل اليه الأموال



فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة ما يريد وبطلت بهوت الاموال وكانت الشام اذ ذلك في يد محمد بن طنج - وبيننا كانت الشام تدافع القرامطة وتشتغل بفتن بني حمدان لنقع في ايدي الاخشيدية أصحاب مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذ كانت هي العاصمة فأحر بالاطراف ان تكون اسوأ حالاً .

\* \* \*

نبي المعري على ظلم الناس } وهكذا اختلف احوال المملكة العربية وطرق الجباية  
فيها لما نال الناس من المغارم والمظالم ، والحكومات  
لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية ولذلك تأفف ابو العلاء  
المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال :

وارى ملوكاً لا تحوط رعيتهم  
وقال : عجم وعرب ذائلون وكلنا  
وقال : ارى امراء الناس يمسون شرهم  
وفي كل مصر حاكم فهو فقي  
وقال ايضاً : يقولون في المصر العدول وانما  
ولست بمختار لقومي كونهم  
وقال : بكل ارض امير سوء  
وقال : ان العراق وان الشام مذممن  
ساس الانام شياطين مسلطة  
من ليس يحفل بخص الناس كلهم  
وقال : وجدت غنائم الاسلام نهياً  
وقال : مل المقام فكم أعاشر أمة  
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها  
ومن قوله :

فشان ملوكهم عزف ونزف  
وهم زعيمهم انهب مال  
واصحاب الامور جباة خرج  
حرام النهب او اِحلال فرج

الجباية في الدولتين } وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية  
 الأموية والعباسية } على اربعمائة وخمسين الف دينار ، واستقر خراج  
 الأردن على مائة وثمانين الف دينار ، وخراج دمشق على اربعمائة الف وخمسين الف دينار  
 وخراج جند حمص على ثلاثمائة وخمسين الف دينار ، وخراج قنسرين والعواصم على  
 اربعمائة وخمسين الف دينار . وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق  
 من استصفا ما كان للوك من الضياع وتصبيرها لنفسه خالصة وأقطعها اهل بيته وخاصته  
 وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري : وكانت وظيفة الأردن  
 التي أقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثلاثمائة الف وخمسين  
 الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين والكور  
 التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان  
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وجد حسابها بالدواوين بالحضرة ثلاثمائة الف  
 وستين الف دينار وارتفاع قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية  
 عشر الف دينار وارتفاع جند دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند  
 الأردن مائة الف وتسعة آلاف دينار وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة  
 وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي : ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة الف دينار ، وخراج  
 جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار ، و يبلغ خراج جند فلسطين مع  
 ما صار في الضياع ثلاثمائة الف دينار ، وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف  
 وعشرين الف دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين  
 الف دينار ، وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ، ومن الزيت  
 الف حمل ، وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار ، وخراج الأردن  
 سبعة وتسعين الف دينار ، وخراج فلسطين ثلاثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ،  
 ومن الزيت ثلاثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الانراك وبتاثر سلك الخلافة . وبقيت الدولة العباسية في  
 الترف وقوي عامل كل جهة على ما يليه ، كثرت النفقات وقلت الجباية بتغلب الولاة



على الاطراف . قال المقدمي : كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعوامم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلاثمائة الف وستين الف دينار ، وعلى الأردن مائة الف وسبعون الف دينار ، وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وخمسون الف دينار ، وعلى دمشق اربعمائة الف ونيّف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات الجوية . ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة قال ابو يوسف : كل ارض اقطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج ، الا ان يصيرها الامام عشريه ، والشام في ذلك كمصر والعراق ، ولانها كلها فتحت عنوة . وفي النصارخانية ان السلطان اذا دفع اراضي لا مالك لها وهي تسمى الاراضي المملوكة الى قوم ليعطوا الخراج جاز . وطريق الجواز احد شيئين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء الخراج او الاجارة بقدر الخراج . ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة في حقهم . وقال ابن عابدين : ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان ما يأخذ منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعم او التجاري ان كان عشرأ فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك .

\*\*\*

الاموال في رأي الغزالي } قال الغزالي : ان الاموال المنصبة الى الخزانة  
وتقسيم المقر يزي لها } المعمورة اربعة اصناف : الصنف الاول ارتفاع  
المستغلات وهي مأخوذة من اموال مورثة له . والصنف الثاني اموال الجزية . والصنف  
الثالث اموال التركات . والصنف الرابع اموال الخراج . فهذه هي الاموال المأخوذة  
وأخذها جائز وبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها نحوها اربع جهات  
وفيها تخلص مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جنود الاسلام .  
الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين  
بالدليل والبرهان ، كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان . والجهة الثالثة محايج  
الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية .

الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكثر الأقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقرئ يزي : وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يجبي أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والأجناد على قدر رتبهم وبموجب مقاديرهم ، وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء ، وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم ، فغير هذا الرسم ، وفرقت الأرضون أقطاعات على الجند ، وأول من عرف انه فرق الأقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين ، وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكثر او أقل على قدر أقطاعه ، فعمرت البلاد وكثرت الغلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين واربعمائة الى أوائل القرن التاسع .

\*\*\*

الاقطاعات وضروبها } وكانت أقطاعات الشام اقل من أقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع ، وليس في الشام من يبلغ شأواً كبير الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقار بهم في ذلك . وخاصة الامراء المقدمين أنواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة الف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه . وقد جرت عادة الشام بان من نزع من دوت ثلاث سنين يلزم وبعاد الى القرية قهراً ، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منه فيها ، وكل ذلك لا يحل اعتماده ، والبلاد تنعم بدون ذلك ، بل انما تحرب البلاد بذلك ، لانهم يضيقون على الناس .

وما عدا الأرض التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدرأ من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج ، وما خلا الأقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ارباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا



الصوفي، واحدها صافية، وهو ما يستخلصه السلطان لخاصته او هي الاملاك والأرضون التي جلا عنها اهلها او ماتوا ولا وارث لها — ماعدا هذا كان هناك نوع من الارضين يسمى الجاء اي يلجأ صاحب الأرض الي بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه ، تعز زآبه من عمال الحراج حتى لايجوروا عليه ، فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير .  
قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الحراج من يلجئ بعض أرضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لاحد امرين ، اما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة ، وتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، واما للدفاع عما يلزمهم من الحق والتيسير له ، وهذه خلة نفسد بها آداب الرعية وينقص بها أموال الملك .  
وكان العادلون من الملوك يعاقبون المجهن والمجأ اليهم ، ولكن الناس يلجئون املا كههم عند ارباب الصولة . وكم من مرة خربت الشام او صقع كبير من أصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا ان الخليفة الحاكم أعفى ولاية حلب من الحراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة . وان الب أرسلان لما ولي امره حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم وان نجم الدين ايلغازي بن ارتق (٥١٤) رفع المكوس عن اهل حلب والمون والكلف وأبطل ماجدده الظلمة من الجور والرسوم المكروهة .  
وبالغ الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات وارتكاب المظالم فلم يلق اهل البلد من التجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولايته مالقوه من ظلمه وسوء فعله ، فخرت اعمال دمشق وجلا عنها اهلها وخت الاماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحها .

\* \* \*

تجري العدل في الدولتين } والغالب ان المكوس والضرائب كثرت  
النورية والصلاحية } وأخر حكم العباسيين والعبديين في الشام .  
وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطلها نور الدين ، واطل ابق الصوفي الاقسط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة . واطل صلاح الدين مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة وتعين ضياع موقوفة عليها بالديار المصرية .  
قال ابن ابي طي : ان الذي أسقطه السلطان صلاح الدين والذي سماه لعدة سنين

آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن زيف الف دينار والتي الفاردب ،  
 سماح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه من المعاملين ، وكذلك فعل اخوه ابو بكر  
 ابن ايوب فانه أبطل كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش والخجور  
 والقمار ، وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار ، الا ان المكوس  
 عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ أزال المكوس وكانت  
 الولاية في اهلها قدسائت وأسرفت ، واليد المعتدية قد امتدت الى أموالهم وأجسفت .  
 قال العاد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج  
 والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع  
 ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها . وكان  
 والده زنكي ينهي اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول معها كانت البلاد لنا فأبي حاجة  
 لكم الى الاملاك ، فان الأقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد من أيدينا فان  
 الاملاك نذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لأصحاب السلطان ظلوا الرعية وتعدوا  
 عليهم وغضبوا أملاكهم .

قال ابو يعلى : تجتمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التعرض لنور الدين على  
 إعادة ما كان أبطل وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعريضة البقل والانتار ،  
 وصانهم من إعنات شرار الضمان وصولاً الاجساد ، وكرروا لسخف عقولهم الخطاب ،  
 وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض ، وكتبوا بذلك حتى أجبوا الى ما راموا ،  
 وشرعوا في فرضها على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا ، فما اهدوا  
 الى صواب ، ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب ، وعسفوا الناس بجهلهم بحيث  
 تألموا واكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين ، فصرف همه الى النظر في هذا الامر ،  
 فنتجت له السعادة واينار العدل في الرعية الى إعادة ما كان عليه ، فأمر باعادة الرسوم  
 المعتادة الى ما كانت من إمانتها ، وتعفية اثر ضمانها ، وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه  
 بإبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على الناس كافة بابطال  
 هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير  
 الى أخذها الاجحاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه ، فقد ضم حراماً الى حرام .



ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين ، كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام ، فأطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . وأسقط صلاح الدين فريضة الاتبان المقسطة على أعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقبة ومزارعها ، ولما فتح حلب أطلق المكوس والضرائب وساح باموال عظيمة « ومنها ماهو على الأثواب المجلوبة ، ومنها ماهو على الدواب المركوبة ، ومنها ماهو في المعايير المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور « إن أشقى الامراء من سمن كبسه وأهزل الخلق ، وأبعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق » . وكان هذان الملكان من أزهدهم الناس في المال فلم يخلفا في خزائنها الا التافه .

كتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين لما عزم على الحج وأراد صرفه عنه : « يامولانا مظالم الخلق كشفها أم من كل ما ينقرب به الى الله ، وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقتطمعين على المقتطمعين ما لا ينادى وليده ، وفي وادي بردى والزبداني من الفتننة القائمة ، والسيف الذي يقطر دماً ، ما لا زاجر له ، وللسلمين ثغور تريد التصمين والنخيرة ، ومن المهات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخراج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل ، وفرع من غير اصل اه » .

وخلف الملك الأفضل ستائة الف الف دينار عيناً ، ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال ، في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير ، وصندوقين كبيرين فيهما ابرذهب يرسم الجوارى والنساء ، عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق . وهذا ما لا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً ، لاستخراج هذه الأموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقتها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية ، وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان نخر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تصمين المكوس والخمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة النقوية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب ، فقد امر

سنة ٦١٨ برفع الجبايات ومحو اسمها وإهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانتها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما أطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان أضيف اليه ما يستغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل ضماناتها وقلة دخلها بهذا السبب كان الف الف درهم او ما يقاربها .

\*\*\*

موازنة حلب وهي } لم نعتبر لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة  
وحيدة في بابها } وقد قال ابن ابي طي : حدثني كريم الدولة بن شرارة  
النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع سنة تسع وستائة في الايام  
الظاهرة ، دون البلاد الخارجة عنها والضياح والاعمال ، فبلغ ستة آلاف وتسعمائة  
الف واربعة وثمانين الفاً وخمسمائة درهم قال : ومما أحطت به علماً في ايام الملك الناصر  
ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه ،  
كان على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكانت ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع  
بـ ٧٣٠٥٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما يهد مالك حلب في ايامه وهو الملك العزيز  
محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى  
الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها  
الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان .

قال ياقوت الحموي : أوقفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابوالحسن  
علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي أدام الله تعالى ايامه ، وختم بالصالحات أعماله  
وهو يومئذ وزير صاحب حلب ومدبر دواوينها على الجريدة بذلك وأسماء القرى  
وأسماء املاكها ، وهي بعد نقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم .  
قال لي الوزير الاكرم أدام الله تعالى علوه : لو لم يقع إسراف في خواص الامراء ،  
وجاعة من أعيان المفاريد ، لقامت بأرزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية  
المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم  
الى خمسة عشر الف درهم ، ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس ، وفي  
أعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بدخاثرها وأرزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع



ما ذكرناه وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الأقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عنباً وحبوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم ، وقد ارتفع في سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبي فيها العشور من الفرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم . وهذا مع العدل الكامل ، والرفق الشامل ، بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهم ولا مهتم ، وهذا من بركة العدل وحسن النية اه .

\* \* \*

الضرائب من الأترك } ولما قبض الأترك والشرا كسة على زمام الاحكام  
والشرا كسة } في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت  
المكوس كثيرة جداً وزادوها ثم وثقتوا في ضرورها حتى صعب احصاؤها وحفظها ، وكانت الخمر في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان صاحب امين الدولة في مدة وزارته للملك الصالح اسماعيل حصل له أموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من أملاكهم . وأبطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ضمان الخبيثة وامر باحراقها . والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمر والمكيفات ، بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير . فقد ابطل الظاهر برفوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في الشام ضمان المغاني اي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك . وضمن المغاني كان معروفاً في مصر فأبطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع أعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وأبطل الناصر قلاوون ضمان المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك انفلو خرجت اجل امرأة نقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها ، لما قدر اكبر من في مصر ان يمنعه عن البغاء وعمل الفاحشة ، وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لا جرم ان دولة الترك والشرا كسة في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها ، وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر

بإبطال بعض الرسوم والضرائب ، ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير ، دع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالأقوال ، والأفعال على خلاف ذلك ، هي دولة سيئة ادارتها المالية . فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية ، وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين أخرجوا غالب البلاد الشامية ، وحدث في ايامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الي التجاريد . واخرج الي التجاريد او الحملات كان من جملة الاسباب التي نتهيا للوك الشراكية ليسلبوا الناس اموالهم ولا تكلف التجريدة اقل من نصف مليون دينار . فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الي خزانة السلطان حتى يجبي مثلها من الرعايا المساكين .

\* \* \*

إبطال المظالم ايام } وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالا عظيما من  
الشراكية } جميع الأملاك والأوقاف بدمشق وظاهرها ، فكان  
من داخل دمشق حق اربعة اشهر ، واخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر اموالها  
ثلث ثمانتها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة  
مقل ستة ثمان وتسعين وسبعمائة ، فعظم ذلك على الناس وهرب خلق كثير واستخفي  
جماعة ، والذين وقعوا بايديهم قطعوا أشجار الباقين وأباعوها حطباً بحيث أباعوا  
القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب ، ومن شدة الطلب  
وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ أصدر الملك المؤيد صاحب حماة امرأ الي جميع نوابه ان لا يقبل  
أحد حماية لأحد ، بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم ، وذلك لان  
الاسماء عليهم كانوا في مصياف لا يدفعون لسلفه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت  
الأموال من الجميع . وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة الي نائب حلب بان  
يروك البلاد الحلبية اي يمسحها ويعين عليها مالا كما فعل في البلاد الشامية فراكوا  
جميع البلاد الحلبية وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري ،



وابطل في هذه السنة مكوس الغلة بالشام ، وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الفرارة  
ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما ابطلوه - في ادوار مختلفة من الرسوم ، وهو ما نوردته مثلاً من حالة  
تلك الأيام ، ما بطله برقوق مما كان منقراً على البردارية في كل شهر من المال ،  
وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة ، وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق  
في البيرة ، وما كان مقرراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر  
والولاية بغلة او ثمنها خمسمائة درهم . وابطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم  
وظيفة ناظر الزكاة ، وهو ان يؤخذ من عنده مال زكاته ، فان مات الرجل صاحب  
المال او عدم ماله بقي ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر ، يؤخذ من اولاده او من  
ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم واحد . وفي سنة ٧٩٦ ابطل الامير احمد النعموري  
ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف ، المكوس والمظالم والرسوم  
التي احدثها قبله النواب بالقدس ، ونقش بذلك رخامة ألصقت على باب الصخرة .  
وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجباية بدمشق  
من القمح خمسة دراهم من المكس ، بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر اصناف الغلة  
بجميع الشام ، وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء .

وتجد الى اليوم على السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من  
الغرب اربع وثائق في ابطل المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى  
سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي الحمزادي كافل المالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على  
الأسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي  
ما امر به الظاهر جقمق بابطال المكوس على الاقمشة المحصية وفرع الاردية وفرع  
القطن وغيرها . والثالثة بتاريخ سنة ٨٥٢ نقول بانه ورد مرسوم شريف من مولانا  
السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص  
والسمك البوري والحنا والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة !  
والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

أُسلو بهم في نشر الاوامر السلطانية } وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم ، فقد نقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة وألصقها على باب الجامع الأموي في هذه المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة ، وكذلك ابطال في القدس ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ، ونقش ذلك على رخامة والصقها بباب الجامع الأقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مساحمة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة ، وهذه مساحمة بمال عظيم ، وكتب بالمساحمة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس ، وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمريّة .

وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الشرا كسة يجمع الذهب اذا قلّ او الفضة وتسلمها الى الملك ليضرب بها سكة وتقوداً ، وكثير في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ، ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة ، وكثيراً ما كانوا يخسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يبعثون الفضة وينزلون عيار الذهب ، فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا ، كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تتخبط بدون قاعدة مستقرة ، والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ، ويتولى المالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا ، كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فأركبوه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية أشهر وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ، ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير ، وهو في حجر المرضعة ، وقبلوا الارض أمامه ، ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احول العين .



غني الشام في القرون ١ وكانت ايام الشرا كسفة فريدة بثروة عمالها والغالب  
الوسطى ٢ ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي  
الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل خمسين سنة ولكن الثروة كانت شيئاً  
كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد . فقد اخذ تيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣  
عدا الماء كمول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة  
فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار  
او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب ، فنزل بالناس باستخراج هذا  
منهم ثانياً بلاءة عظيم . ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف  
الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظيهر لي انكم عجزتم . ثم اخذ اموال  
المصريين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير  
وصغير عشرة دراهم شامية . وأفرد على اوقاف الجوامع والمساجد اجرة ثلاثة اشهر ،  
فتزايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا وأعمرها على ما قال ابن تغري  
بردي ولذلك هان عليها ان تجمع بضعة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة  
هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ابرة .

\*\*\*

المكوس على التجار } وكانت المكوس على البضائع الصادرة والواردة تؤخذ  
في الحدود بين الشام والروم ، وكثيراً ما كان الروم  
اذا قويت شوكتهم في الشام يقيمون في حلب رجلاً منهم لاخذ مكس البضائع كما  
جرى في القرن الرابع . وكان للصليبيين في الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة  
يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلهم ، وبعد المعاهدات  
التي عقدت بين سلطان مصر والشام قلاوون وابنه خليل كثر مجي البنادقة والجنوية  
الى سواحل الشام في التجارة ، وتكاثر كما قال صالح بن يحيى حضور مراكب الفرنج .  
وكانت تؤخذ ضرائب الصادرات والواردات ببيروت ، وهي جملة مستكثرة ، وكان  
على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاذ ، يوليهم نائب دمشق والمتوفر  
عن المرتبات يجعل الى دمشق ، ولم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب .

رسوم غربية } رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي ، فقد نبتت  
 أنواعها في عهد الشرا كسة ومنها ما كان الخلف بلغيه على  
 غير ارادة السلف ، ففي سنة ٨٢٤ امر الناصر بابطال مكس القمح ببلاد الشام كلها  
 وكان يؤخذ على كل اردب ثلاثة دراهم وكانت المتحصل عن ذلك في كل سنة الف  
 الف ومائتي الف درهم أقره وأزيد . ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ بمرسوم السلطان  
 بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الأموي والقلعة ودارالسعادة قال  
 الاسدي : فنقش ذلك وعلى الظن الغالب انهم لا يفون بذلك لما علم من عادة السلطان .  
 وترى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في إلغاء الرسوم فالسارية الاولى  
 كتب عليها ان الملك دمرداش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية .  
 الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلاماً من الدالين في سوق  
 الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ بابطال الملك الظاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة  
 سنة ٨٤٦ بابطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٧ بابطال  
 مكس الزيتون من قرى عنزاز . السادسة سنة ٨٦٤ بابطال ما يتجدد على المصبغة بقلعة  
 القصير عن كل خابية عشرة دراهم ، وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية .  
 وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ، ومنها ما كتب سنة ٨٨٢  
 بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ، ومنها بابطال ما على الدباغين بديركوش من  
 المكس ، ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الخنة من سوق الخناوية ،  
 ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ، ومنها ما صدر سنة  
 ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السحاق ، ومنها بابطال ما هو  
 معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسسي . ومعظم هذه الاوامر مسطورة على  
 الاعمدة مشفوعة بجملة ملعون ابن ملعون من جددها او اعادها الى غير ذلك من استجلاب  
 اللعنات على من يجدها ، ومنها كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة الى غير ذلك من  
 القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد ، فما كان  
 في طرابلس لا يجبي مثله في حمص ، وما كان في القدس لا عهد لحلب به ، وما في



دمشق لأمثيل له في المدن الأخرى . وهاك أمثلة أخرى من هذا القبيل في مدخل جامع طرابلس امر بإبطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح والحم والخبز والفراخ وغير ذلك ، وذلك في أيام ابي النصر شيخ سنة ٨١٧ وفي مدخل هذا الجامع امر من صاحب طرابلس بإبطال منع استيفاء رهم الدخان ، وما يستأديه من يكون متكلاً في ديوان الحجوبة الكبرى واستادارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ، ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكف والخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً ، وعلى حائط مدرسة الشمسية امر كتب سنة ٨٢٦ بإبطال الملك الأشرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخليل بالبريد ورسم الملك الأشرف بإبطال التحكير بالخانات والكوس على الخطب والتبن وغيره وجهر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الأموي ونقش به رخامة . وإبطل المقر السبئي نائب السلطنة بمحصر سنة ٨٤٤ جميع ما أحدث في محصر من ظلمات الحرير والصوف والبر والخبز والزيت وكتب على باب جامع سيدنا خالد بن الوليد وصية بذلك وفيها اسم السلطان جقمق .

وفي سنة ٨٤٦ سوح عوام القدموس بما على أنوال الحياكة وخراج السكرم بالقدموس مسامحة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير . وفي سنة ٨٥١ أبطل ما تجدد على عوام القدموس والكهف والمينقة والعليقة والخواوي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار . وفي سنة ٨٥١ أبطل الظاهر المظالم من القدس ونقش بذلك بلاطة وألصقت بمحائط المسجد الغربي عند باب السلسلة وإبطل الظاهر خشقدم المظالم من القدس ونقش بذلك رخامتين وجهزهما الى القدس في أواخر عمره وألصقتا بمحائط المسجد الأقصى ( توفي سنة ٨٧٢ ) .

وفي مدرسة طرابلس رسم بإبطال ما على النخيرة ( المسلخ ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً ، وإبطل معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ، ومعلوم الحجوبة ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بإبطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح على التجار

والمتسببين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك . وفي سنة ٨٨٨ أبطل مكس الده اليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وأبطل مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاسا كفة بالقدموس والخوانبي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بإبطال المظالم والحوادث عن فلاحى الوقف وان لا يكرهوا فلاحى الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ أبطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من أبناء السبيل ، ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ، وان لا يؤخذ شي من باع سلعته بغير دلال . والغى قانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص .

\* \* \*

نفن الشراكة في } وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده  
 اقتضاء الأموال } في آخر ايام الشراكة وكان من اسوأ ملوكهم  
 شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعا الى جمع المال وفتح باب قبول البدل في  
 الأقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديوانا قائما بالذات وكان يعين البدل في المناشير  
 وهو مبلغ ثلاثمائة درهم فما فوقها . واخلاصة فان الشراكة نفنوا في طرح المكوس .  
 ومن غريبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شخصا من الممالك الشراكة كشف  
 رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو أفرع فضحك منه السلطان فقال ذلك  
 المملوك : اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان الى ذلك وأخرج  
 له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخاع عليه خلعة فصار يدور في الأسواق  
 والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أفرع يأخذ منه دينارا حتى أعيان  
 الناس ففج الناس منه وشكوه للسلطان فضحك ونادى بالامان للقرعان وان كل شيء  
 على حاله وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالا عظيما .

قال الاسدي في القرن التاسع ويكشف في كل سنة مقدار الارتفاع ومقدار  
 المصروف ، ومهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامع الشريفة فيرفع منه ما يرفع محمولاً



للخزائن الشريفة بالديار المصرية ، و يرفع منه ما يدخر في القلاع الحصينة لما يحتاج اليه عند حوادث الزمان . وكان يتحصل من كل مملكة من المال ( اي من ممالك الشام ) ما يوفي بمصروف ذلك العمل ، و بقي من بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج اليها . قال : وقد وجب في الشريعة المطهرة على الامام انه يأمر بتحصيل ماوجب استخراجه من المال الحلال على وجهه ، وانه يمان عن التدنس بالحرام ، لان المال الحلال محل للخير ، لما يوجد من حلول آثار البركة فيه ، و المال الحرام مفسد للمال الحلال ولا خير فيه . فاما المال الحلال فهو ما يؤخذ بحقه و يصرف على مستحقه من خراج الارضين و البلدان ، بعدما يجب من العارة و تأمين الرعايا ، و قسم الغلال بالحق و استخراج الزكاة و الجوالي و العشر و الخمس بالشرع ، و كذلك ما يجب استخراجه من زكاة الأموال و البهائم و الثمار و الأصناف المعين فيها و جوب الزكاة ، و كذلك ماوجب فيه الحق من الركاك و الموارث و الغنائم و التي و غير ذلك مما يحمل لبيت المال من الأموال الواجبة و المباحة . و اما المال الحرام فهو ما استخراج بخلاف ذلك على غير وجه الحق حسبما وضعه من الرسوم و الخدم الموضوعه في كل ديوان ، و ما رتبوه و اجرؤا به العوائد مثل الموجبات التي لاحق فيها و المكوس التي هي محرمة على مستخرجيها و آكلها ، و ما يرتكب في أبواب الحكم من وجوه التبعات و المظالم و ضروب الحوطات على أموال الناس التي هي لهم بالحق و أخذها منهم بوجوه المغارم . قال : وفي الظاهر ان هذه الأموال المحصلة بهذه الوجوه الخبيثة مصالح للسلطان ، و معونة للأعوان ، و في الباطن انما هي فساد و ظلم ، و تخريب و فسوق ، و عصابات و عوائد رديئة ، قد ظهرت و استمرت و صارت من القواعد لتخريب البلدان .

\* \* \*

الأموال أوائل } انتهى دور الشراكية المحزن المرمض ، و أمّلت الامة  
العهد العثماني } بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ، ان ترى ايام رعد  
وسعادة ، لانها دولة جديدة تتحامي ما أمكن الأغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ،  
ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراء . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام  
و مصر قال و قد ملأ خزائنه من أموال الشراكية بمد ان كان في ضائقة شديدة

اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار : اني ملأت الانابيب بالذهب ، وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه ، والافتق الى الخزينة السلطانية محتومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » محتومة بخاتم سليم . لا جرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ، ولذلك كانوا يرجحون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت أغنى في نظرهم ، وعلى شيء من الانظام في الجمل ، تسد مغامراتهم جيوشهم وخواصمهم ، وفيها من الجمال ما يكافي الاتعاب فيتمتع السلطان واهل درابنتهم بمن شاوروا من بنات المغلوبين وبنيتهم ، ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشناق والارناؤد والرومان والصرب والبغار والبحر والطلبيان والروم والبولونيين وغيرهم من أمم اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق (٩٢٢) فوض نيايتها وما اليها من بلاد الشرق الى عريش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين قال ابن طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم الغزي ان هذا السلطان نفن في ضرب المكوس ومن حملتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكبر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبدئ تغلبه على البلاد ، يجب عليه ان يربها شيئاً من العدل ينسبها مظالم الدولة الشركسية ، فحدث ما شئت ان تحدث . أحدثه أخلافه من البدع في الارناعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم : ان خراج ايلة الشام كله كان يعطى للمرأة السابعة من نساء السلطان ابراهيم وكان الجابي يأتي دمشق فيجيبها بنفسه ، لان نساء القصر لم يكنن يامن احداً من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الامة . فتأمل أيلة بل مملكة كهذه تعطي جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها وأزبايتها ، كيف تكون مجابيتها عادلة مصروفة في سبلها .



الخراج والعثمانيون والسخيف } وذكر مؤلفو التترك ان أقطاع الشام كله  
من ضروبه } كان مسانحة مليون أفجيه<sup>(١)</sup> ولأمير لوائها  
من مئتين الى ثلاثمائة الف أفجيه وفيها ١٢٨ زعامة و٨٦٦ أقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠  
من الفرمان . وكانت اباله طرابلس وارنفاعها السنوي خمسة بوكات<sup>(٢)</sup> ولدبوانت  
الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف أفجيه وحاميتها من الفرمان ١٤٠٠ وأباله حلب وخراجها  
ثمانمائة وسبعة عشر الف أفجيه ودبوانتها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف أفجيه  
وفي هذه الأباله ١٠٤ زعامات و٧٩٩ أقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة  
بوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة . وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد  
الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٦٠٠٠ دوكا  
والدوكا عشر أقباج والبارة ثلاث أقباج وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحاظتها ،  
وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ربهها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .  
وما يرحت الحال المالية في هذه الدبار في إدبار ، وهي تبع للوالي الذي يتولى  
زمام الحكم . فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل الكوس الزائدة ،

(١) كل ثلاث أقباج باره وكل ٤٠ باره قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً  
او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في الشام نحو  
خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي  
عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت ممككة عظيمة مسنقة  
وكان وزن كل مائة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الربال  
الجرماني الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيته ٨٠ الفه . وابل  
من استعمال الافجيه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) استعمال  
البارة فانتشر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ باره تحسب  
قرشاً وكانت الباراه تساوي ثلاث أقباج اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرش  
ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .  
(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

فأبطل مكس الخمرات ، وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على ير الشام ، ثم أبطل  
اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال  
كبير يدفعه للأغا والباشا ويكون في باب صاحب الشحنة ، بقطع الجرائم ، ويدفع المال  
عن اربابه ، يربح ديناراً عثمانياً كل يوم ، فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً  
دفعها عن اربابها ، وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً ، فاذا بقيت عليه اياماً حتى  
يسعى في تحصيلها نضاعفت عليه ، حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها ، فان كان له  
أسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او مآكلها لذلك اليسق كيف اراد ، فأدى  
ذلك الى تمويل الانكشارية وتملكهم كثيراً من الأملاك ، وأبطل اليسق من باب  
القاضي ، وربت الانكشارية مالا على البضائع المحلوبة ، وأبطلت المكوس التي كانت  
تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنين جديدة وعتيقة ، وطالبوا  
الامرائيليين بمال عظيم . ومثل هذا كثيراً ما كانت تتمد اليه حتى الى عهد قريب ،  
تطلب المال قبل استحقاقه ، وتسلب أموال الصيارف والمرايين ، بجهة الاستدانة منهم ،  
وحدث ان بعض الامراء والملوك صادروا النصارى واليهود خاصة كما فعل الملك  
الأشرف قايتباي فصادروهم مرتين في ايامه . وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨  
وكان كافل الشام أموالاً طائلة ، وصادر جماعات في دمشق واخذ أموالاً منهم بغير  
حق ، ولذلك كانت المصادر عامة تتنازل من كان في صندوقه مال اياً كان مذهبه .

وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها ،  
وجعل كل سلطاني بثانين قطعة جديدة ، زنة كل قطعة فيراطان ونصف فيراط ،  
وهبطت الاسعار وحصل الرخاء . وذكر بعضهم ان نغردين المعني كان يجبي تسعمائة  
الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة ، فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمائتي  
الف ليرة . ويدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط ، وكان الامير  
بشير كالا مير نغردين يحب البذخ ، وقد ضاعف خراج لبنان اربعة أضعاف .

ولا نعتقد ان جباية الامير المعني قد بلغت هذا القدر ، فقد ذكر في كتاب صادر  
عن احمد بن محمد المولى بنابلس سنة ١٠٣٠ ( جمادى الآخرة ) ان يتصرف خوشنبر



انا المستحفظ بمدينة نابلس ولوائها في جميع متحصلات القرى والخرب الكائنة بالجبل القبلي والشامي وبني صعب والقرى والخرب المقاطع عليه سابقاً ، من شتوي وصيفي وزيتون وخرنوب وعداد ورجالية وخراج واعشار واغفار وسائر المتحصلات الشرعية والعرفية العائد جميع ذلك للخزينة العامرة بدمشق الشام على الامانة وان يتحضر للخزينة العامرة سبعة آلاف سلطانياً ذهباً . فاذا كانت بلاد نابلس يضمن خراجها وضرائبها بهذا القدر وهي ما هي من الخصب واتساع الرقعة فمن الصعب ان تجبي من بلاد ابن مومن جباية كبيرة كالتى ذكرت واكثرها جبال قاحلة .

مثال آخر من قلة الجباية لنقر البلاد : في سنة ١٠٣٥ طلب المال من الأمير يونس الحرفوشي امين بعلبك عن سنة ١٠٣٣ و ١٠٣٤ فقال ان المطلوب من مقاطعة بعلبك عشرة آلاف سكة حسنة ، وانه لا يستطيع ضمها الا بعشرة آلاف قرش فبالنظر لاداء نفقات الحج الشريف ومال العلوقة أعطيت له المقاطعة بعشرة آلاف قرش عن سنة ٣٤ ولكن لم يتصل منها سوى سبعة آلاف قرش . اما سنة ٣٣ فلا يمكن تحصيل شيء منها لان ابن مومن خرب تلك الولاية كما يؤخذ من السجلات الرسمية في تلك الايام .

\*\*\*

نفن الجزائر في اخذ المال } وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر  
وطريقة العثمانيين } والثالث عشر في سلسلة مغارم ومظالم ، فقد  
تولى احمد باشا الجزائر دمشق لاول مرة سنة ١٢٠٠ وكانت مدة حكمه فيها خمس  
سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ، ومن طرح النقود وطرح البضائع  
المنوعة ، بينهم من جهات ويطرحها على أخرى باسعار زائدة . ومن مظالمه انه اذا  
وجد قتيل في احد الأتجار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذلك النهر ، يأخذون  
منهم مالا غزيراً ، وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على أشبع  
صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير      ظلم الناس وسبح  
فهو كالجزار فيهم      يذكر الله ويذبح

قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل الشام بالظلم واكرامية الباشا من البلاد ، واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وإرهاق القرى بالطروحة والاكراميات وافراض الدخائر ومعاينة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق . وفي سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا والي الشام وضع « مصر يتين » ضريبة على كل سكرة اي عقار في دمشق من جملة أسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان ( اي في أوائل القرن الثالث عشر ) ليست لحفظ أملاك ، ولا لحفظ أبدان ، وانما هي مجرد ظلم وعدوان ، فان غالب مصارف الوالي وأتباعه ، وعمارات منزله ومنزل عساكره ، وما يدفعه الى رسل السلطان الواردين بأوامر ونوامر وأمثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك بالذخيرة ، تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ، ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لأعرانه وحواشيه من أعيان البلدة ، وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدان القرية ، وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية ، فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً ، وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من معطاهما وتخمن على الأقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة ، واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة . ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس أشار اليها الاكرمي بقوله :

لحس الله ايام العوارض انها هموم لرؤياها تشيب العوارض

يضيق لها صدري واني لشاعر ضليع وبيني ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى ومزارع كثيرة في سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ ، فخرج اهلها عن ملكها ، ورضوا بالاستعباد على ان يكونوا احراراً مالكين . وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب الثقيلة التي لا تحمّلها نفس بشرية . ولطالما قصّ الشيوخ علينا قصة الطلبة يوم ندق



في قريتهم ، و يجبي أعوان الظلمة لأخذ المظالم من أهلها ، وهناك كنت تسمع من المولات وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة ، وتستغرب كل الغرابة من جنس هذا الناطق المتمرد ، ومن طرز إدارة العثمانيين التي تعرف كيف تستنزف دماء الامة وأموالها ، وقلما فكرت فيما يجلب لها الثروة ، ويحفظ عليها الحق وقيم بينها قسطا العدل . وكانت الامراء اذا خرجت لاخذ الصدقة تضرب الطبول عادة لم قديمة .

\* \* \*

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام	} الجباية على عهد المصريين	
كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم كمارك		} والمقابلة بين طرفيهم
وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكثير ،		} وطريقة العثمانيين

ولذلك اضطر بعض التجار الى اتباع حماية الأجنب حتى يستطيعوا ان يتجروا ، وهذا كان مبدأ اشتداد الامتيازات الاجنبية . كتب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ، ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأبالة أجنبية يقتضي الانتفاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها الا الزائد الأخير . ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض ما دفعه من المال ، ويجمع الثروة ، فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله ، مبتزاً منهم الأموال ، ومثقلاً كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الاستانة لتسقيم له الولاية مدة ، يواصل فيها استنزاف الأموال واملاء جيوبهم بها قال : فنشأ عن ذلك مظالم لا تطاق ، وابتزاز اموال لا تحصى ، وتعاقب على الأباله ولاية غير اكفاء للمنصب ، جائزون مرتشون ضاعون في جمع المال ، لا تشعب بطونهم ، خالون من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الأوضاع الإدارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ كانت تقسم الى أبالين أباله دمشق وأباله صيدا ، ودخل الاولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردي وجبل قلمون وحماة وحمص

وبعلبك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصبيا وراشيا وهوران وجبل الدروز وحصن  
الأكراد والقنيطرة وابكي قبولي ، من الخراج والأعشار والبذل العسكري والرسوم  
المختلفة ٤١٨٠٥ أ كياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الأوقاف  
وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وهوران وحمص وجبل الدروز وحصن الأكراد  
ومعرة النعمان وعجلون عيناً من الأعشار والرسوم ، وهو ١٨٧٥٩ اردباً من القمح  
و٢٥٨٨٤ اردباً من الشعير و ٩٥١ من الذرة و ١٣٣٩٣ اوقة ممن و ٣٢٠ اوقة حرير  
و ١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل أيلة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والسيجية  
و يدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عـليت والاقضية  
الشمسية ٣١١٥٤ كيساً ماعدا المستوفى عيناً من القمح والشعير والذرة والكرسنة  
والسمسم والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن . وكان مجموع دخل ايلة دمشق  
١٨٥ الف ليرة على ذلك العهد وايلة صيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً  
٣٥٠٠ كيس جزية وخراجاً .

\* \* \*

رأي انكليزي في اعنات } كتب المستر برانت فنصل انكلترا في دمشق  
البلاد بالضرائب } الى سفير دولته في الاستانة عن حالة ايلة  
دمشق في ١٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب ما يأتي : « ان الضرائب كانت باهظة على  
عهد الحكومة المصرية ، على ان استنباب الأمن وعدم يخل الحكومة على الشعب كانا  
يكفيان لاقناعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها ، وكان الدخل يدار  
بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد ونقوم بكل نفقات إدارة  
الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً ، اما حالة اليوم ( اي على عهدالحكم التركي ) فهي على  
عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبث ثقيل لا يطاق<sup>(١)</sup> مع انها أقل من

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على الشاميين كانت  
شديدة وما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر واديان مختلفة . قلنا ومن حسنات  
ابراهيم باشا انه أبطل الرشي والاصطناع وأبطل المصادرات وقرر حق التملك .



قبل والأمن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراثة الارضين ، وكل ما يمت جمعه ينفقه باسراف او يسرقه ، الموظفون والأموال اللازمة لادارة الحكومة نطلب من الاستانة ، وصار من الخلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش ، حسب حالة كل انسان ، وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية . ولما عاد الأتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها ، فأبدلوها بضريبة على البيوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال ، على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية ، وقد جرت بعض احتسكات وفرضت ضرائب جديدة على البنائات الحديثة ، للاستعاضة عن الدخل الذي أسرفوا به ، وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة ، وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه ، يجبي منها عشرة آلاف كيس وبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي ، وهذه يتعذر جباية قسم منها .

\* \* \*

رأي مدحت باشا } هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد وأصرح منه  
في مظالمهم } ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام

بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لأئحة في سياسة الشام وأموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط ، وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية ، وفتحت ابواب سوء الاستعمال ، وماعدا بعض الرجال من الموظفين أصبح كبار العمال وصغارهم لا يلفتون الى غير مصالحهم ، فطراً على المعاملات خذل ، وبسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس ، وكثر القتل والنهب والغارة على الأموال والعروض في كل مكان ، واختل الامن كل الاختلال . قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والأموال قد نزل ارتفاعها الى النصف ، وخربت مسائل الأعشار البلاد ، وقلّ البدل العسكري ، وحدث

ما شئت عن بلية « القائمة <sup>(١)</sup> » فن اجل سقوط أسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف ، وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .  
 وكلام مدحت باشا يشتمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين ، وبالطبع كانت فلسطين اقصى الجنوب وحلب في اقصى الشمال على هذه الصورة او أشد ، لان روح المملكة كانت واحدة ، وهي المركزية الشديدة ، وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها أشبه بالفوضى . ولم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الأتراك عنها ، وان كانت الارتفاعات زادت في العقود الاربعة الأخيرة ، لانتشار الأمن في الجملة ، بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء ، وكفت البادية عن العيث في البلاد القريبة من المعمور ، بعد ان كانت تأتي لاختد الخوة من القرى القريبة من الحواضر الكبرى ، ولزيادة النفوس بقلة الاوبئة وتجنيف بعض البطائح . وسد العجز المالي ، ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من أبناء الشام ، فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم على بلادها ، فالدخل ينقص على الدوام بسلب الممالك من جسمها ، والخرج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات ، يشقى هؤلاء لينعم اوائك ، ويبنوا القصور ويثمتعوا بالخور والولدان .

\* \* \*

الاشتطاط في الاعشار } ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور  
 والقسط في الجباية } حتى بلغت ثلاثة عشر اربعا في المئة ، تؤخذ  
 من الحاصل والمحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين ، وهو قد يبلغ عشرين

(١) الورق النقدي الذي أصدرته الدولة في حرب روسيا وكانت سبب ابتزاز قسم عظيم من ثروة الامة .



في المئة او اكثر من ذلك في بعض الانحاء ، ولم يكفها زيادة الأموال والضرائب الأخرى الى ضعفين بل الى أضعاف ما كانت قبل عشرين سنة ، بل زادت في العشر والخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة ، دع ما أحدثته من التكاليف الحربية واستلبته من أموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ، ولولا ارتفاع الأسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من ألمانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعته وجلبته من القاصية ، لولا ذلك لبقى عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ، ولأضحت الحال أنعس مما كانت قبل ستين او سبعين سنة ، ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقلّة الأيدي العاملة ، فيجلبون أناساً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمغارم في بلاد الشام خصوصاً لقلّة الذهب في الأيدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي ، فزادت الجباية في بعض النحال اربعة أضعاف ، فعلت الشكوى ، وأخذت أسعار البضائع تملو وتسفل في المدة القليلة ، والمقرر على الرعايا ينزل ويرتفع على تلك النسبة ، فنضرر الناس من هذا وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة ، او لم تواز قيمته قيمة الذهب ، واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق أكثر من قبل على صفار عمالها وكبارهم ، لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشى والتلاعب بمقوق المساكين والضعفاء ، وان تقوم ببعض الأعمال اللازمة في الحكومات المتقدمة ، فانزجت مسافة الخلف بين الدخل والخروج ثم تماذلا واخذت الحكومة تفكر في إلغاء طريقة الأعشار والاستعاضة عنها بمال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة اجورها .

\*\*\*

خارج الارض } هذه الضريبة من التكاليف غير الشرعية التي أحدثت  
والعقارات<sup>(١)</sup> } أو اخر ايام سلطنة السلطان بايزيد الثاني العثماني ،  
وكانت المرتبات التي تلمع على كل بلدة من البلدان توزع بمعرفة لجنة مؤلفة من الوالي

(١) كتب هذا الفصل المالي المحقق السيد رفيق الحسامي .

او المتصرف او المتسلم ورجال الشرع الشريف ووجوه البلدة وأعيانها براعى فيها عدد النفوس المذكور ، او الدور الموجودة في كل بلدة . وكان هذا التوزيع يسجل في المحاكم الشرعية ، وكانت كل فرد يخضع لذلك التوزيع ، و يدفع ما يصبه مرتاحاً بحيث لا يبقى منه شيء في ذم المكلفين . وقد دام الحال على هذا المنوال مدة اربعة او خمسة عصور .

ولما تسرب الخلل الى القوانين الموضوعه وأعلنت التنظيمات الخيرية ، كانت من جملة الاصلاحات التي تذرع بها السلطات محمود الثاني وأقرها السلطان عبد الحميد . تسجيل الأرضين والعقارات كافة في عامة البلدان والقرى ، وذلك بتقدير قيم لها ، واستيفاء الضريبة على نسبة قيمتها . وكانت هذه الضريبة تجبي بمعرفة الخنثار في المدن والقرى ( شيوخ الصلح او شيوخ القرية ) . وهذا بموجب تذكرة إجمالية « طوب مركي » تدفع الى الخنثار فيجبي ما يصب كل شخص من المكلفين ، و يدفع المجبي في كل اسبوع او خمسة عشر يوماً او شهر بحسب مقدار ما يجبي او بحسب تمقيب الحكومة او إجمالاً .

ولما رأت الحكومة بأخرة ان بعض الخنثارين يتلاعبون بهذه الأموال ، وكثيراً ما كانوا يفرضون على الاهلين فرائض تربو على ما يصبهم من التكاليف بدعوى النقص في الأموال حتى آضت الحسا الى تعذر الجبايات — منعت الخنثارين من مداملة الجباية وألفت لجاناً خاصة ، وأنشأت ترسل لكل مكلف تذكرة باسمه حاوية مقدار ما أصابه من الضريبة في كل سنة . ويجبي جابي الفرع المقيم به المكلف بموجبها ، والذي يتأخر عن دفع دينه نجومياً ( نفاسيط ) معينة نذره رسمياً حتى اذا لم ينادر في عشرة ايام من تاريخ تبليغه الانذار الى دفع ذمته : تحجز امواله الماقولة او غير المنقولة فيما اذا لم يكن له أموال منقولة واذا كان ممن لا يملك شيئاً غيرها يجبس احد وتسعين يوماً ، اذا ثبت اقتداره على الوفاء .

وفي سنة ١٩٢٥ اصدرت الدولة قانوناً للجباية لم يخرج بجوهه عن النظام السابق الا ما كان من الاكتفاء بجبس المدين شهرآ واحداً بدلاً من احد تسعين يوماً على ما كان



في النظام السابق الى غير ذلك من العقود الشرعية التي لا علاقة لها بجوه هذا النظام القديم ولا يزال التعامل جارياً على هذا النمط .

\*\*\*

رسم المواشي } هذا الرسم من الأوضاع الشرعية وكان يُتقاضى اوائل عهد الحكومة العثمانية عيناً وهو غنمة واحدة من كل عشرة اغنام ولا يُتقاضى شي من بقية الميوانات ، ثم طبق هذا القانون على اصول التلزم . وفي سنة ١٠٤٠ الهي اصول التلزم وأخذوا يستوفون الرسم بتقدير قيمة للمواشي واستيفاء بارة عن كل قرش من قيمتها . وفي سنة ١٢٤١ أعيد استيفؤها عيناً . وفي سنة ١٢٥٥ عندما أعلنت التنظيمات الخيرية كان يقدر نتاج كل دابة ، واخذت الرسوم تستوفى على نسبة عشرة في المئة من ذلك النتاج بحيث صار يستوفى عن كل رأس من الغنم والماعز اربعة قروش ، وعن الجاموس والابل عشرة قروش . وبدأت تترقى هذه الرسوم بنسبة اسعار المنوجات الى ان أصبحت ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن والماعز ، وعشرين قرشاً عن كل رأس من الابل . وهذه الرسوم على قسمين كان قسم منها يستوفى عند العد وقسم بهد ذلك . اما القسم الذي يستوفى عند العد فهو ما كان للتجار وغابري السبل ممن لا تعرف اما كن سكانهم . واما القسم الثاني فهو ما كان يُستوفى من البناء سكان القرى والعربان .

\*\*\*

الأعشار } العشر من التكاليف الشرعية القديمة وكان يُنقى على عهد الأقطاع في تموين الجنود وزعمائهم . وقد اصبح في سنة ١١٠٠ يحال لسنة واحدة اوسنين متعددة على بعض الصيارف المتمرلين . وفي سنة ١٢٥٦ اخذوا على عهد اعلان التنظيمات الخيرية يستوفون الأعشار على طريق الأمانة اي على ذمة الحكومة بمعرفة جباة خصوصيين وبعد ذلك اي في سنة ١٢٥٨ أعيدت اصول التلزم واخذت يباع عشر كل قضاء عن سنين من الملتزمين . وفي سنة ١٢٦٣ تقرر اجراء معاملة الاحالة لرجال السلطنة وخدامها وبمض ذوي اليسار والسعة من التبعة العثمانية منفردين ومجتمعين لخمس سنين وذلك باخذ متوسط بدلات الثلاث السنين التي

تقدمت السنة المذكورة ، على ان يضاف على البدل المتوسط المنوه به في السنة الثانية التي تلت سنة التزيم واحد بالمئة وثلاثة بالمئة ، على بدل كل من السنة الثالثة والرابعة والخامسة ، بحيث تصبح الاضافة عن السنة الخامسة عشرة بالمئة .

ولما نشبت حرب القرين في سنة ١٢٦٩ أعيدت اصول الأمانة لضمان تموين الجيش ، وظل الحال على هذا المنوال لغاية سنة ١٢٧١ . وفي سنة ١٢٧٢ رجعوا الى اصول التزيم ايضاً فأخذت تباع اعشار القرى في مجالس الأفضية قرية قرية . وفي مجالس الألوية والولايات قضاء قضاء على ان لا تحال أعشار لوائين لاحد الملتزمين مجتمعين . ولما أعلن القانون الأسامي في سنة ١٢٩٣ أعيدت اصول الامانة . وفي سنة ١٢٩٧ وضع نظام التخميس وذلك بحساب بدلات كل من سنة ١٢٨٩ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ واخذ متوسطها ، على ان يوزع ما يصيب كل قرية على حساب الدونمات . وفي سنة ١٣٠١ أعيدت اصول الأمانة ايضاً . وفي سنة ١٣٠٢ عاد الى طريقة التزيم ايضاً على اساس القرى لا القضاء او اللواء كما كان آنفاً . وظل الحال على ذلك الى سنة ١٣٣٠ اي سنة اعلان النفير العام وفيه خلال ذلك وضعت اصول التخمين موضع الاجراء وظلت الى سنة ١٣٣٣ حتى اذا كانت سنة ١٣٣٤ طبقت اصول الامانة وبعد مغادرة الحكومة العثمانية هذه الديار أعيدت اصول التزيم ايضاً . وفي سنة ١٩٢٥ م وضعت اصول التبريع وذلك باخذ متوسط بدلات كل من سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ واتخاذها اساساً لوضع بدل معين على كل قرية من القرى . ولم تبرح هذه الاصول معمولاً بها . اما اصول جبايتها فهي تابعة لقانون الجباية حريفاً اي أصبحت تجبي على نحو ما تجبي الضرائب .

\*\*\*

رسوم الجمرك } ان اصل هذا الزعم يرجع الى الزكاة التي هي من جملة التكاليف الشرعية ، وكان يجبي من التجار الوطنيين على نسبة واحد من اربعين ومن التجار الأجانب على نسبة واحد بالعشرة من مجموع أموالهم . وظل الحال على ذلك من اول تأسيس الدولة العثمانية الى الزمن الذي عقدت فيه المعاهدة التجارية مع الدول الغربية فأنشأوا يستوفونه على الصورة التالية :



اولاً - رسم الواردات عن البضائع التي ترد برآ و بجرأ الى البلاد العثمانية .  
 ثانياً - رسم الصادرات عن البضائع التي تخرج من البلاد العثمانية الى البلاد الاجنبية  
 ثالثاً - رسم التصدير عن البضائع التي تستهلك في الداخل كالدهان والاسماك .  
 رابعاً - رسم المرور ( ترانسيت ) عن البضائع التي تمر بالبلاد الأجنبية عن طريق البلاد العثمانية ولا تستهلك فيها .

وأخيراً قسمت هذه الرسوم الى قسمين داخلي وخارجي . اما الرسم الخارجي فينقاضي وفقاً لاحكام المعاهدات التي عقدت مع الدول المجاورة بحسب العلاقات التجارية . واما الرسم الداخلي فيستوفي وفقاً لاحكام المقررات الخاصة التي كانت تقررها بحسب الاحوال وعلى نسبة التعرفة المخصوصة . ولما كانت علاقة الاجانب بالتجارة الخارجية تؤوقف على رخصة خاصة كسائر المسائل كانت يمنح الاجانب حق تعاطي التجارة في البلاد العثمانية على انه كان ذلك بامتنياز خاص بالتاجر . ولما كانت المواد التي تقضي المعاهدات بايرادها وإصدارها تذكر في تلك المعاهدات نوعاً فنوعاً أصبح ذكر تلك المواد يدل على منع سواها ، ولما زادت الصلات التجارية مع الاجانب قبلت باديء بدء حرية التجارة الى حد محدود وبعد ذلك بدأت بالتوسع فأعطي على عهد السلطان محمد الفاتح الامتياز المعلوم للبنادقة وصادق السلطان يازسليم على المعاهدة التي وقع عليها ملك مصر . وفي عام ٩٧٠ عقدت المعاهدة المعلومه مع النمسا . وفي سنة ٩٨٣ مع حكومة البندقية . وفي سنة ٩٨٤ مع حكومة النمسا ايضاً . وفي سنة ١٠٨٤ اي في سلطنة محمد الرابع عقدت معاهدة مع ملك فرنسا جاءت مؤيدة للمعاهدات السالفة التي كانت ترمي لاستيفاء رسم الكرك على نسبة ٣ بالمئة بدلاً من الخمسة ما خلا رسم التصدير . ولما عقدت المعاهدة الجمركية بين فرنسا وانكلترا في سنة ١٢١٦ اشتركت الحكومة العثمانية معها بتلك المعاهدة التي كانت عبارة عن تجديد نصوص العهد القديم . وفي سنة ١٢٥٤ عقدت معاهدة تجارية مع فرنسا كان من جملة أحكامها التوسع في معاونة التجار الفرنسيين وشركائهم وما الى ذلك ، على ان يتناول ذلك عامة البضائع والمتاجرات وقد تضمنت هذه المعاهدة فيما تضمنته استيفاء رسم الواردات على نسبة ٥ بالمئة ورسم الصادرات ١٢ بالمئة ورسم المرور ( ترانسيت ) ٥ بالمئة من مجموع

قيمة البضائع والسلع وبقية المعاملات السابقة بحالها على ان تعدل مرة في كل سبع سنين .

ولما نشرت نظام التنظيمات الخيرية انشأوا بتوفيق هذه الرسوم بطريق الامانة اي على ذمة الحكومة ثم اخذوا يحيلونها الى بعض الصيارف والملتزمين ودام ذلك الى سنة ١٢٧٤ . وفي سنة ١٢٧٥ وضع نظام خاص جامع لجميع المقررات التي قررت من بداية التنظيمات الخيرية الى ذلك العهد وجرى تطبيق ذلك على جميع ما يتقاضى منه رسم الجرك ما خلا رسم مواد البناء والدخان والسعوط والمسكرات . وجرى في عام ١٢٧٧ و ١٢٧٨ تعديل ذلك بعد عقد المعاهدات مع بلجيكا والدانيمرك وفرنسا وانكلترا واطاليا وهولاندا والنمسا وروسيا والسويد واسبانيا واميركا ، وكان من جملة أحكام تلك المعاهدات إبلاغ رسم الواردات الى ٨ بالمئة ونزول رسم الصادرات الى ٨ بالمئة ايضاً على ان ينزل من اصله واحد بائمة في كل سنة الى ان يصبح واحداً في المئة فقط . وقد اعتبر رسم المرور اثنين في المئة على ان ينزل في ثماني سنوات تبدأ من تاريخ العقد الى واحد بالمئة فقط .

وبعد ذلك وقع التذرع كثيراً لتعديل هذه الرسوم وصورة جبايتها فلم يأت تذرعهم بثمره تذكر بهد انه أضيف في سنة ١٣٢٣ على رسم الواردات ثلاثة بالمئة بموافقة جميع الدليل العظمى بحيث أصبح احد عشر بالمئة على ان يؤخذ خمسة وعشرون بالمئة من الزيادة التي عينت لتسديد الديون العامة وخمسة وسبعون بالمئة لتسديد ديون الولايات الثلاث الخ .

\*\*\*

الجمارك الشامية ووجوه } كان محصول الرسم الاصلي الذي هو ٨ في المئة  
تفقاتها وتوزعها } حتى يوم ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٦ يوزع بين  
الدول الشامية الموضوعه تحت الانداب الفرنسي ، وكان الرسم الاضافي ثلاثة بالمئة يدفع لحساب الدين العام العثماني . وقد صدر قرار في ٣ نيسان سنة ١٩٢٤ يقضي برفع الرسوم الجركية من ١١ الى ١٥ بالمئة ابتداءً من شهر ايار سنة ١٩٢٤ وقضى القرار المؤرخ في ٢٣ شباط سنة ١٩٢٦ بان الأموال الباقية من تحصيل ضرائب الرسوم الجركية



من ١ ايار سنة ٩٢٤ حتى ٣١ كانون الاول سنة ١٩٢٥ (٦٢ مليون) تؤلف مائة مائة مائة  
يؤخذ منه ما تستلزمه الضرورة والمبالغ الخاصة لسد جميع النفقات المترتبة من الثورات  
التي نشبت في الدول الموضوعة تحت الالنداب . على ان يجري توزيع ذلك فيما بعد  
بصورة قطعية وتقرر في ٢٥ ايار سنة ١٩٢٦ رفع رسوم الواردات اعتباراً من ١ حزيران  
سنة ١٩٢٦ الى ٢٥ في المئة .

وما زال محصول الرسم الاصيلي ١٥ في المئة المخصص للدين العام باقياً الى ان  
يجري اتفاق مع حاملي الاسهم بشأن عملة الدفع .  
ويتضح من عمليات المستشار المالي في المفوضية العليا انه يمكن ان يلاحظ لعام  
١٩٢٧ ما يلي :

١٢٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك محصول الجمر من الرسم الاصيلي ١٥ في المئة .

٦٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ضرائب ١٠ في المئة .

المجموع ١٨٥٠٠٠٠٠٠٠

وتوزع كما يلي :

٨٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك لدائرة الدين على ان تجري التزييلات التي يقبل بها

حاملي الاسهم .

٥٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك نفقات جيش الشرق .

٥٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك يقتضي توزيعها بين الدول .

ومن الممكن ان ينزل الرسم ٢٥ في المئة لانه اذا كان قد طبق هذا الرسم لاحوال  
استثنائية فلا يكون اليوم الا عثرة في سبيل تنمية اقتصاديات البلاد .

\*\*\*

ضريبة التمتع } يرجع تاريخ احداث هذه الضريبة الى قسمين : القسم  
الاول ما احدث قبل التنظيمات الخيرية وكان اصلها

رسم الاحتمال الذي احدثه السلطان محمود سنة ١٢٤١ وهو عبارة عن ضريبة  
تؤخذ باسماء مندوعة تسمى يومية الدكاكين وشهريية الدكاكين ورسم الماء كولات  
والمستهلكات والذهب والفضة والمجوهرات والمنسوجات وما شابه ذلك .

ثم بناءً على الأمر السلطاني الصادر في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٥٤ أُلغى رسم الاحتساب ونشر نظام مؤرخ في ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٥٤ بقضي بتوزيع التكليف على الأهالي عن طريق تعيين مقدار الأملاك والأرضين والحيوانات ، وبيع التجار والأصناف السنوي ، غير أنه لم توضع ضريبة مخصوصة على الأرباح السنوية بل وضعت موحدة على الثروة الذاتية المقدرة لكل فرد على نسبة أملاكه وأراضيه وأمواله وحيواناته وأرباحه .

والقسم الثاني ما وضع بعد التنظيمات الخيرية وظلت هذه الضريبة تعد من الضرائب الموحدة من سنة ١٢٥٥ - ١٢٧٥ وقد أصبحت اذ ذاك تؤخذ على نسبة ثلاثين بالألف من مجموع الربح السنوي . وبناءً على القرار المؤرخ في ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٧ الصادر بشأن الأملاك والأغنام والأعشار بلغت اعتباراً من ذلك التاريخ الى أربعين في الألف . وفي عام ١٣٠٣ أبلغت الى خمسين وشملت أصحاب الرواتب والمشاهرات أيضاً ، ولما كان الأجانب غير مرخص لهم بتعاطي التجارة داخل البلاد العثمانية كان هذا الرسم محصوراً بالعثمانيين لا يتناول احداً من الأجانب . ولما جرى الانساق على قبول إقامة الأجانب في البلاد العثمانية وتعاطيهم التجارة ألفت لجنة مختلطة في نظارة الخارجية - في سنة ( ١٨٨٠ م ) ونظمت لائحة تتضمن حمل الأجانب على أداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين . فقاوم سفراء الدول هذه الفكرة مقاومةً حالت دون تطبيقها الا على رعايا صربيا وبلغاريا ورومانيا والجبل الأسود واليونان وايران . وفي عام ١٣٢٣ أحدث نظام خاص يقضي باستيفاء الضريبة المذكورة على قسمين: مقطوع ونسبي وخصصت به من يجب تكليفه بالضريبة المقطوعة ومن يجب ان تنقاضي منه الضريبة النسبية من ارباب التجارة والصناعة . وفي عام ١٣٣١ ألغت القانون السابق وأحدثت قانوناً جديداً ألغت به الامتيازات الاجنبية بتامها فقضي على جميع رعايا الدول اداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين بدون تفرق بينهم على ان تطرح هذه الضريبة على ثلاثة اوجه نسبي ومقطوع ومختول .



الضريبة النسبية } يحقق هذا القسم من الضريبة بالنظر الى الايراد غير  
الصافي المقدر للمحل الذي يشغله المكلف وجعل هذا  
القسم على ستة أنواع كل منها يحتوي على قسم من أنواع التجارة والصناعة ومقدار  
نسبة الضريبة التابعة لها . فالنوع الاول تدخل فيه اصحاب المصارف ونسبة ضريرتهم  
عشرون بالمئة من الايراد غير الصافي المقدر للعمل المتخذ مصرفاً . والنوع الثاني يحتوي  
على شركات النقل والمشتغلين بالاوراق المالية والمتوسطين في إجراء البيع والشراء  
والمتعهدين والاطباء والمهندسين ووكلاء الدعاوي وأمثالهم من اصحاب الصناعات  
والاعمال العلمية ونسبة ضريرتهم خمسة عشر في المائة من الايراد المذكور .  
ويشمل النوع الثالث التجار البائعين بالجملة والصارفة والخياطين وباعة الاقمشة  
وخاطتها وباعة الاحجار الثمينة وأمثالها ونسبة ضريرتهم ١٢ في المائة . والنوع الرابع  
يتناول بائعي الألبسة والأقمشة والأدوية والعمود وأشياء ذلك من عامة المعاملات  
والمصنوعات ونسبة ضريرتهم عشرة في المائة . والنوع الخامس يدخل فيه ارباب  
الصناعة كالنجار والحداد والخياط ومن يبيع حبوباً ومأكولات واخشاباً وأشياء  
حديدية واصحاب الفنادق والقهاوي والألعاب وأمثالها ونسبة ضريرتهم ثمانية في المئة .

\* \* \*

الضريبة المقطوعة } يحتوي هذا القسم على من لم يتخذ محلاً مخصوصاً  
لممارسة الصنعة من متعهدين وأطباء ومهندسين  
وأمثالهم فاعتبرت ضريرتهم مقطوعة وجعلت خمسة اقسام باعتبار نفوس البلدة فقط .  
فالنازلون في العاصمة من القسم الاول وضريرتهم ٣٠٠ قرش والنازلون خارجها من  
الصنف الثاني مكافون بـ ٢٥٠ والثالث بـ ١٥٠ والرابع بـ ٧٥ والخامس بـ ٥٠ قرشاً .  
وكذلك الحال في ذوي الصناعة من معارين ورؤساء اشغال وعملة قد كلف  
كل منهم حسب بلده ومكانه صناعته بمقدار معلوم ومسطر في جدول مخصوص من  
القانون المذكور تبثدي ضريرتهم من خمسة عشر قرشاً الى ثلاثمائة قرش .

\* \* \*

الضريبة المتخولة } ان هذه الضريبة جعلت قسامين القسم الاول يطرح  
 على اصحاب المحال التجارية والصناعة لاستفادتهم من  
 خدمة العاملين عندهم والمعاونين فتبتدي الضريبة من ستة قروش الى مائة قرش  
 بحسب صنوف البلدة ونوع التجارة وعمل العامل ، اما اصحاب الرواتب فقد كلفوا  
 بموجب المادة السادسة بثلاثة قروش في المئة من مجموع ايرادهم السنوي ان كان  
 زائداً عن النفي قرش ديناري ومن لم يزد ايراده عن ذلك فهو مستثنى من الضريبة .  
 والقسم الثاني يطرح على حسب الوسائط العائدة لاجراء الصنعة كعجلات الركوب  
 والنقل والحيوانات والآلات التجارية وجعلت درجات باستبار صنعة البلد ونوع تلك  
 الوسائط وكذلك الشركات فقد كلف كل منها بنسبة معينة في المادتين الرابعة والخامسة  
 وقد ألفت لجان للنظر في الاعتراضات بداية واستئنافاً وتمهيزاً ، وبقي معمولاً به من  
 السنة المذكورة الى يومنا هذا . اما التعديلات التي طرأت عليها من ذلك التاريخ  
 حتى الآن فلم يكن من شأنها ان تنير هذه الأسس ، بل انها محصورة في بعض  
 المعاملات الفرعية التي لا علاقة لها بهذا البحث انهي كلام السيد الحسامي .

\* \* \*

الرأي في الجباية } لاجرم ان الأموال اذا جبيت كما تجب في البلاد  
 والنفقات } المتعددة بالرفق ، وبحسب طاقة المكلفين ، يتوازن مع  
 الزمن الدخل والخرج ، بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات ،  
 كأن تكتفي الشام بما تخرجه لها ارضها ويفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية وورصف  
 الطرق وتعييدها في المدن وبين القرى ، وعلى الاسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية ،  
 وتجنيف البطائح واصلاح طرق الري ، واقامة معالم العلم ودور التهذيب .  
 وكل مماثلة تسد عجزها بالاقتراض ، ولا تستثمر بايدي رجالها ما في سطحها وبطنها  
 من الخيرات ، يكون مصيرها الى الاستعباد الاقتصادي ، وهو اشع ضرور الاستعباد  
 في هذا العصر . ومالا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يجعله اليك .  
 وكل امة لا تفرض الجباية باقل ، ولا تجبها بطرق العدل ، ولا تبذل على المرافق  
 العامة منها الفضل ، نحل بل تضحم .



## الوقوف

—>000<—

منشأ الوقف } من أهم القوانين الاجتماعية التي أثرت في عمرات هذه  
الديار وأخلاق أهلها قانون الوقف ، وهو حبس العقار  
او الارض عن البيع وحصر مغلها في يد شخص او أشخاص على مقصد معين . كان  
الوقف معروفاً عند الرومان ومنه الخاص والعام وكذلك هو معروف عند الامم المسيحية  
لعهدنا وكان اهل الجاهلية من العرب لا يعرفونه . قال الشافعي : لم يجبس اهل الجاهلية  
فيما علمت وانما حبس اهل الاسلام . فاستنبط الرسول صلوات الله عليه الوقف لمصالح  
لا توجد في سائر الصدقات ، فان الانسان ربما يصرف في سبيل الله مالا كثيراً ثم  
يفنى فيحتاج اولئك الفقراء تارة أخرى ، ويحيى أقوام آخرون من الفقراء فيبقون  
محررومين ، فلا أحسن ولا اذنع للعامة من ان يكون شيء حبساً للفقراء وابتاء السبيل ،  
تصرف عليهم منافعه وبقى اصله على ملك الوقف . وقد وقف رسول الله بعض ماظهر  
عليه من الارضين فلم يقسمها وقد قسم بعض ماظهر عليه ، ووقف ثمانية عشر سهماً من  
خبر لمن نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس والوفود وما نابه من نواب  
الناس . وفي صحيح مسلم ان عمر أصاب ارضاً بخيبر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم  
يستأمره فيها فقال : يا رسول الله اني أصبت ارضاً بخيبر لم أصب مالا قط هو أنفس  
عندي منه فما تأمرني به ، قال : ان شئت حبست اصلها وتصدقت بها . قال :  
فتصدق بها عمر انه لا يباع اصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب قال : فتصدق عمر  
في الفقراء وفي القرى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على

من وليها ان يأكل منها بالمعروف ويطعم فقيراً غير مشمول فيه ، وفي رواية غير متأثر  
مالاً . قال بعض الفقهاء : انما وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه سواد الكوفة  
لانه ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه ، ولو كانوا حازوه وجمعوا ما فيه من السبي  
والأموال كان غنيمة ليس للإمام ان يقفه حتى يخرج منه الخمس لله ثم يقسم اربعة  
أخماسها بين الذين حضروا فتحه .

وذكروا ان احد شهداء أحد واسمه مخيريق عهد الى الرسول قبل قتله ان يضع  
أمواله حيث أراد فحبسه على سبعة حوائط وهي كروم النخل في المدينة فأصبحت  
الأموال المحبوسة من ذلك العهد لا تشرى ولا تورث ولا توهب واخذ بعض الناس  
يحبسون أموالهم على أعقابهم وأعقاب أعقابهم . وغزوة أحد كانت في السنة الثانية  
للهجرة وغزوة خيبر في السابعة فيكون وقف مخيريق اول وقف في الاسلام . وقد  
تصدق النبي بسبعة حوائط في المدينة ، ووقف الصحابة وغيرهم اوقافاً . قال زيد بن  
ثابت : لم نر خيراً للميت ولا للحي من هذه الحُبُس الموقوفة ، اما الميت فيجري اجرها  
عليه ، واما الحي فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

\*\*\*

تعريف الاوقاف } قالوا ان ولاية الاوقاف من باب التعاون على البر  
وطرقها } والنقوى ، ولا ينهض بحملها الا الأمين القوي ،  
فان أبوابها متسعة ، وأربابها متنوعة ، وشعابها منفرعة ، فانهم أصناف مختلفون ، وطوائف  
موصوفون ، فمنهم الأشراف المتصلون بالرسول ومنهم الهاشميون والعباسيون والعلويون  
والحسينيون والحسينيون وغيرهم ، ومنهم الفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة  
وغيرهم ، ومنهم الصوفية والفقراء والنزاة والاضراء والامسرى وابناء السبيل والمرضى  
والمجانين ، ومنهم تكفين الموتى واصلاح أسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة  
المساجد ومصابيحها وأئمتها ومؤذنيها وقومتها ومصالح المدارس واقامة وظائفها ، وكذلك  
الربط والخواتق والمشاهد ومواطن العبادة الى ما سوى ذلك من وقف على تعليم اليتامى  
الخط ، ووقف على من انكسرت له آية لا يقدر على عوضها وغير هذا من أبواب  
الطاعات وجهات الخيرات ، فهذه الوقوف العامة جميعها على اختلاف مصارفها وتباين



جهاتها مشتركة في ان المقصد بها التقرب الى الله تعالى فانها معدودة من الصدقات ،  
داخلة في باب القربات ، فيجب اتباع شروط وافقيها والعمل بها .  
وما برحت الاوقاف تنمو في بلاد المسلمين بنمو الثروة والتبسط في مناحي الملك ،  
وامتداد السلطنة بامتداد الفتح ، حتى تكاملت اجزاؤها ، وتكاثرت موادها ، في صدر  
الخلافة العباسية وخصوصاً على عهد الخليفة المأمون فانه وقف الاوقاف الكثيرة في  
العراق وغيرها على العلماء ودور العلم والجموع والمباني العامة ، لتبقى دائمة الانتفاع على  
الدهر وتكفي العلماء مؤونة قرع أبواب الملوك والامراء ، والمحاربين واصحاب الزمانات  
والعاعات من التكفف والاستجداء ، فمن ثم كثرت الأوقاف النافعة كثيرتها في  
الولايات المتحدة الاميركية لهذا العهد ومعظمها على دور العلم والباسين .

\* \* \*

اول اوقاف الشام | واول وقف حبس في بلاد الشام فيما بلغنا اراضي  
وسوء استعمالها | بطارقة الروم فيها ممن فروا من جيوش الاسلام  
او قتلوا في الحرب وكانوا قواد جند الروم ، فأصبحت أملاكهم شاعرة فأوقفها الفاتحون  
على بيت المال ، وكان العمال يقبلونها اي يضمونها ويضيفون دخلها الى بيت المال ،  
وكان من العمال من يجبس القرى على مصالح المدينة ومرافقها ، قاصداً بذلك عمارتها ،  
وكان من البلاد المفتوحة عنوة ما ليس يملكه السلطان فيباع « لانه في المسلميين يقوم  
مقام الوقف على جميعهم » قال القاضي ابو يعلى في الاحكام السلطانية : ان ارض  
السواد صيرها عمر وقفاً بنفس الفتح ، والارض لا تصير وقفاً حتى يقفها الامام ، فعلى  
هذا يجوز له بيعها اذا رأى بيعها أصلح لبيت مال المسلمين ، ويكون ثمنها مصروفاً في  
عموم المصالح وفي ذوي الحاجات من اهل النبي واهل الصدقات . وقد قال احمد في  
رواية عبد الله : الارض اذا كانت عامرة هي ابن قاتل عليها الا ان يكون وقفها من  
فتحها من المسلمين كما فعل عمر بالسواد فاعتبر ايقافه .

ومن أحسن القوانين الصريجة عند المسلمين أحكام الموارث فانها تقضي على  
المورث ان لا يوزي بغير الثلث من ماله في وجوه المبرات وان يبي الثلثين لوارثيه  
يستمتعون به استمتاعه من قبل ، ولذا لم يكن الا في الوقف مندوحة في خرق هذه

القاعدة ، فتوسع القوم فيها لاسيما ما كانت منها اهلياً حتى كاد ينقلب الخير الى شر  
 ومحال ايجاد الخير المحض . فان الواقف يقف املاكه او شطراً منها لتكون من بعده  
 وسيلة الى التعارف والتعاطف بين الدراري والأعقاب ، فما هو الا جيل او جيلان  
 حتى تغدو اوقافه ذريعة للنقاطع والتدابير ، فنقوم نائزات الخصومات بين الأسمرات ،  
 الاستئثار بادارة الوقوف واقتسام مغلها ، خصوصاً عند كثرة المستحقين وقلة الانصبه ،  
 وربما تكاثرت ذرية الواقف بعدد حتى يصيب الفرد من المدخل بضعة قروش . ولا تسئل  
 كيف تكون حال تلك المقارن والارضين الموقوفة من العمران ، ففي تعدد الموقوف  
 عليهم تعدد للناسحي وتباين في الآراء . وربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون أشد  
 المستحقين مراساً ، فينصب حقوق الآخرين . من اجل هذا ترى الغاصبين وفي  
 مقدمتهم المتولي او الناظر يقضون حياتهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوي  
 الحقوق بالحق والباطل ، حتى جرى في حكم الأمثال قولهم « نصف الاوقاف موقوفة  
 على الحكام » .

\* \* \*

شرط الواقف وخراب }  
 أوقاف الشام }  
 بالغ المتأخرون في احترام الاوقاف اهلية كانت  
 او عمومية حتى قالوا : ان شرط الواقف كنص  
 الشارع ، ولو كان فيما هو ظاهر ضرره ومكروه عند العارفين . وعُدت الاوقاف على  
 طول الزمن من أعظم القُرُبات حتى قالوا ان من لم يمت عن وقف فكأنما مات ميتة  
 جاهلية . وقد ردّ ابن قيم الجوزية قول من قال ان شرط الواقف كنص الشارع  
 فقال : ان شرط الله أحق وأوثق ، بل يقولون ههنا نصوص الواقف كنصوص الشارع  
 وهذه جملة من أبطل الكلام ، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره ابدأ ، بل  
 نصوص الواقف بتطرق اليها التناقض والاختلاف ، ويجب إبطالها اذا خالفت نصوص  
 الشارع وإلغاؤها ولا حرمة لها حينئذ البتة . ويجوز بل يترجح مخالفتها الى ما هو  
 أحب الى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه . وقال علماء الحنفية ان  
 قولهم شرط الواقف كنص الشارع لافي وجوب العلم به والاثم بتركه بل بالاخذ بمفهومه  
 وانه لا يستحق المعلوم اذا خالفه .



وقال ابن القيم أيضاً عند كلامه على الحيل الجديدة في مسائل الوقف : ومن الحيل الباطلة تحيلهم على ايجار الوقف مائة سنة مثلاً ، وقد شرط الواقف ان لا يؤجر أكثر من سنين او ثلاثاً ، فيؤجر المدة الطويلة في عقود منفردة في مجلس واحد ، وهذه الحيلة باطلة قطعاً ، فانه انما قصد بذلك دفع المفسد المترتبة على طول الاجارة فانها مفسد كثيرة جداً ، وكم قد ملك من الوقوف بهذه الطرق وخرج عن الوقفية بطول المدة ، واستيلاء المستأجر فيها على الوقف هو وذريته وورثته سنيماً بعد سنين وكم فات البطون اللواحق من منفعة الوقف بالايجار الطويل ، وكم اوجر الوقف بدون اجارة مثله لطول المدة وقبض الاجرة وكم زادت اجرة الارض او المقار أضعاف ما كانت ولم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها . الى ان قال : اللهم الا ان يكون فيه مصلحة الوقف بان يجرب ويتعطل نفعه فتدعو الحاجة الى ايجاره مدة طويلة يعمر فيها بتلك الاجرة ، - فهنا يتعين مخالفة شرط الواقف تصحيحاً لموقفه واستمراراً لصدقته ، وقد يكون هذا خيراً من بيعه والاستبدال به ، وقد يكون البيع والاستبدال خيراً من الاجارة والله يعلم المصلح من المفسد اه .

وبهذا النقل رأيت ان الوقف يصبح بيعه واستبداله اذا كان هناك مصلحة ، وان تلاعب المتلاعبين أدى الى تبدل الاوقاف وجعلها حرة تباع وتشترى منذ المئتين الثامنة او من قرن قبله ، ولولا ذلك لأصيحت هذه البلاد الا جزءاً قليلاً منها أوقافاً كلها بمرور الايام ووقفت بالوقف حركة العمران وقوقاً هو الجود بعينه . وفي الجود المير والفناء . ولكن المولى تعالى أرفق من ان يسلب منافع الارض مخلوقاته ، ويجعلها خاصة بفتنة معينة لا تنقطع عنهم مادتها ، ولولا ذلك لكأن ابن الغني غنياً على الدهر وابن الفقير كذلك ، ولبطل هذا النظام الطبيعي لذي لا تقوى القوانين على تغييره .

قالوا ان الامير جكم العرضي المتوفى سنة ٨١٠ الذي تسلطن بحلب والشام أخرب غالب البلاد الشامية ، وأخرج اوقاف الناس في ديار الشام وفرقها أقطاعات بثلاث على جماعته . وفي سنة ٨١٢ أخرج الملك شيخ الاوقاف التي بدمشق وجعلها أقطاعات وفرقها بثلاث على عسكره . وفي ايام الملك الناصر فرج بن برفوق المتوفى سنة ٨١٥

خرجت غالب أوقاف الناس في البلاد الشامية والحلبية . فاستدلنا بذلك ان الاوقاف لم تزل حالة واحدة ، والرأي في تعطيلها لصاحب القوة اياً كان .  
 كان أكثر العمال وأصحاب الأموال في عصور المصادرات يقفون الاوقاف على الجوامع والمدارس والرُّبَط والمستشفيات وغيرها فرازاً بأموالهم من مصادرات الملوك اذا غضبوا عليهم ونحوهم عن وظائفهم ، او قضاوا نخبهم فطمعوا في وفهم ، وهذا كان الشأن مع الاقوياء والامراء وارباب الاقطاعات . ومن الاوقاف ما منحه الملوك بعض عمالهم وحاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا احياء على سبيل الاقطاع فما عتَمَ المنعم عليهم ان جعلوا ذاك العقار او تلك القرية بواسطة القضاة واهل الحكم اوقافاً شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فننزع عليهم بعد ان يكونوا ألوا الاتكال ، وانقطعت أيديهم عن الاعمال ، الا من بسطها للنساول ريع اوقافهم الحقيمة . واذا كان بعض الواقفين توقعوا من اوقافهم ان تقي أبناءهم وأحفادهم عوادي الفاقة ، فان اعتماد اناسهم على ما خلفه لم آباؤهم قد يرميهم فيما كانوا يحاذرونه من الفقر ، وذلك لتوزيع الوقف بتعدد الأنصبه ، ولان المستحقين لمغل الوقف يعتمدون على ريع اوقافهم التي تأتيتهم بلا عمل غالباً ، وينسون ان الثروة هي العمل وان من لا يعمل لا يثري ولا يتنعم سنة الله في خلقه .

\* \* \*

النفنن في الاحباس } ولقد نفنن القوم في أنواع الاوقاف حتى لا يكاد  
 والتلاعب بالموقوف } يخطر ببالك خاطر في الوقف الا وتجد من سبقك  
 اليه مما أوشكت ان تكون معه معظم بلاد الاسلام موقوفة وكاد يصبح نصف اراضي  
 المملكة نقرياً من نوع الوقف ، وكانت ثلاثة ارباع الاملاك في البلاد العثمانية  
 وفقاً على الجوامع والمساجد . والاحباس والاقواف عامة وخاصة فالعامة هي ما جعل  
 عينها وريعتها بدون قيد ولا شرط وفقاً على أعمال الخير والبر او على المصالح العامة .  
 والخاصة هي التي جعل واقفوها حق الاستمتاع بريعتها الى وارثيهم مباشرة ولا تؤول  
 الى الاوقاف الا بانقراض نسل الواقف . قلنا ومن العادة في معظم البلاد الاسلامية  
 ان يشرط الواقفون في أواخر صكوكهم شروطاً منها ان الوقف اذا نحل يفقد الذرية



وانقراض المستحقين يعود بمجملته الى الحرمين الشريفين ومن الناس من يقفون عليها مباشرة فلماذا كثرت اوقافها كثرة زائدة .

لما ولي علي بن عيسى الوزارة للمقتدر العباسي فشت صدقاته ومبراته ووقف وقوفاً كثيرة من ضياع السلطان وأفرد لها ديواناً سماه ديوان البر جعل حاصله لاصلاح الثغور وللمحرمين الشريفين .

وفي صك وقف الملك سيف الدين بلبلان لزور للمحسنين في شيزر من عمل حماة سنة اربع عشرة وسبعمائة : « انه وقفه وفقاً صحيحاً شرعياً على نفسه الزكية الطاهرة الرضية مدة حياته أحياه الله الحياة الطيبة ثم من بعده على أولاده ذكوراً وأناثاً على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ الانثيين ثم على نسله وعقبه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على الشرط المزبور على ان من مات منهم عن ولد او ولد ولد او نسل وعقب كان نصيبه لولده ثم لولده ثم لنسله وعقبه . يقدم الاقرب فالاقرب ومن مات ولا ولده ولا نسل ولا عقب كان نصيبه للاقرب فالاقرب لمن هو في درجته وذوي طبقتهم فاذا انقضوا باجمعهم وخت الارض منهم ذكراً وانثاهم رجع هذا الوقف باجمعه على الفقراء والمساكين والايتام والأرامل والمنقطعين المجاورين بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة الطيبة . . . » وشرط ان لا يؤجر جميعه ولا شيء منه في عقد واحد اكثر من ثلاث سنوات ولا يستأنف عقد حتى تنقضي مدة عقد الاول . وعلى هذا جرت عادة الواقفين باتباع هذه الشروط وسطروا وقفياتهم عليه . ومن الوقفيات العربية التي اطلعنا عليها حجة نقلت حوالي المئمة العاشرة عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمائة للهجرة جاء فيها ان « الست الجليلة صاحبة خانون ابنة الامير الكبير صلاح الدين بن بهلولان ابن الامير الكبير شمس الدين الاكبري الآمدي وقفت وحجبت وابدت ، في صحة منها وسلامة وجواز امرها ، جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادي الدخائر عمل دمشق المحروسة وتعرف احداهن بالبويضا والثانية بالبريصا والثالثة بالحميرا والرابعة بدير عطية والخامسة بالحمرا » وقد تغيرت معالم هذا الوقف ولا يعرف بهذه الاسماء غير بدير عطية والحميرا في تلك الجهة وانتقلت القريتان الى ايدي أخرى .

ونحن الواقفون في صدقاتهم ومبراتهم في الشروط التي شرطوها ، وفي كتاب

وقف الوزير لالا مصطفى باشا ووقف زوجته فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري ، وكتب الأول سنة أربع وثمانين وتسعمائة والشافي سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، مثال من هذا الفن . ووقف الأول على منزل في قرية القنيطرة للمتددين بين مصر والشام وزائري القدس ومشهد الخليل وجامع قرية الشعراء من عمل القنيطرة ومكتب على الصبيان وعمارة على الضيفان الى غير ذلك من ضرور البر ، وفي هذا الكتاب كلام على المتولي ووظيفة الواقف وأولاده والبنات منهم اذ تقرأهم ، وجباة الوقف ووظيفةهم وخطيب الجامع والامامين ورئيس الحفاظ والقراء والمؤذنين ووظيفة ثلاثين قارئاً ومفترق الاجزاء ومن يقرأ سورة يسن وعم والنصر وتبارك ومعلم الكتاب وخليفته والمخبر ، والمشروط لثمن القناديل والزيت ووظيفة الشعال والبواب والقيم والكناس والفراش ومعاونه والبواب بالحوش ، وشيخ العمارة ونقيب اللحم والخبز ووكيل خرج العمارة والكيلاردار ومعاونه وحافظ الغلال والخباز وتليذه والطباخ وتليذه ومن يغسل الصحون وبنقي الارز ودقاق الخنطة والبناء والبستاني ومصالح الصحون وكناس منازل المسافرين والذاكرين في مسجد القنيطرة والمؤذنين بجامع الأموي بدمشق ، والمشروط لحصير المكتب بالقنيطرة ، ووظيفة من يرم الموقوفات ورئيس الشواة ، وشرط الواقف في الاطعام ومدة إقامة المسافرين الى غير ذلك من الشروط والقيود ما لا بصر الا عن أناس ذاقوا طعم الحضارة وأشربت نفوسهم بحبة الخير . ولهذا من الامثال في البلاد مئآت والوف وقد بلغ ربيع الاوقاف التي استصفتها الحكومة في الشام وأدخلتها في موازنتها بضع مئآت الالوف من الليرات وقد اكل اكثر منها ولو صرفت على ما وضعت له لما بقي في القطر جاهل ولا معوز الا قليلاً . وفي وقف تكية السلطان سليمان بدمشق المؤرخة سنة ٩٦٤ غرائب من شروط البر ما لا يختر في الفكر . منها إطعام ثمانمائة فقير في كل غد وعشية وان يكون الخازن على غلاله حفيظاً فظاً غليظاً حتى لا يبي في توزيع الغلال وأخذها منه . وكان الواقفون يعينون على الاكثر المبالغ التي تعطى للمباشرين لخيراتهم من العلماء وغيرهم ، كما عينوا نوع الصدقات ومقدارها في كتاب وقف المدرسة الدلامية بدمشق ان صاحبها رتب بها اماماً وله من المعلوم مائة درهم ، وقيماً وله مثل



الامام ، وستة انفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر ، ومن شرط الامام الراتب ان يتصدى لاقرأ القرآن للذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الائمة عشرون درهماً وستة ايتام بالكتب الذي على بابها ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر ايضاً . وقرر لهم شيئاً وله من المعلوم في الشهر ستون درهماً ، وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستائة درهم ، ورتب المرتب في كل عام مثلها ، وللبيع ولقراءة البخاري والتواريخ مائة درهم ، ولارباب الوظائف خمسة عشر رطل من الحلوى ، ورأسي غنم أضحية . ولكل من الايتام جبة قطنية وقميص . . . . . وتاريخ هذا الوقف ٨٤٧ هـ .

ومن غريب الاوقاف وأجملها قصر الفقراء الذي عمره في ربوة دمشق نور الدين محمود بن زنكي . فانه لما رأى في ذلك المنزه قصور الاغنياء عزاً عليه ان لا يستمتع الفقراء مثلهم في الحياة فعمر القصر ووقف عليه قرية داريا وهي أعظم قرى الغوطة وأغناها . وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

ان نور الدين لما ان رأى في البساتين قصور الاغنياء

عمر الربوة قصراً شاهقاً زهرة مطلقاً للفقراء

وذكر القرماني ان داريا كانت وفنها لعامة فقراء دمشق نفرق عليهم غلاتها ، وما برحت كذلك وفقاً الى القرن الحادي عشر كما قال كاتب چايي .

ولقد اُخِر الاستكشاف من الاوقاف سير الشرق في مجلة التبرقي ولا يزال مؤخرآ لها وكم في البلاد من آثار ودور . قصور ومحال عامة هجرت وتعطلت بضياع أوقافها وكثرة المنازعين عليها ، وكان من الاوقاف ان اضرت بالجباية التي تصرف في مصالح الدولة قال بلوك : ان العقار الموقوف على الاعمال الخيرية عند المسلمين لا يعني من الضرائب فقط بل انه لا يباع ، وهو امتياز انتفع به كثير من رؤساء البيوت واستخدموه في تدبير ثرواتهم ، ولذلك كثرت الاوقاف كثيرة زائدة فأضرت كل الضرر بالمصلحة العامة ، وذلك لان إعفاء الاحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءاً مهماً من ريعها وارتفاعها . وحظر بيع الوقف بعينه على وجه الاجمال ، لان اموال الاوقاف وعقاره لا تستثمر استثماراً جيداً .

ولقد شدد الواقفون في شروط أوقافهم خصوصاً إذا كانت عليها مسحة الاوقاف المسبلة على المصالح العامة ، ومع هذا انتهت أيدي الضياع ، وسطت على ريعها وأعيانها مخالب السارقين والمزورين . وهذه مدينة دمشق كان في واديها في القرن التاسع زهاء الف وخمسمائة مسجد وجامع ، وليس فيها اليوم مائتان وخمسون ، وكان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة وعشرون مدرسة ورباط و خانقاه وتكية ومستشفى وليس فيها اليوم من كل ذلك الا يرث القديم خمس مدارس وربط . يصح ان يطلق عليه اسم مدرسة او رباط اللهم الا من باب التجوز ، وقد بدلت أعيانها كلها واختلست أحباسه ، ومنها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على أحجار آبائها حتى الساعة نقرأ بلسان عربي مبين ، على كثرة ما بدل المبدلون وتلاعب المتولون والمستحقون ، وهكذا قل عن مدارس القدس فانها أكثرها بما عبت به النظار والمتولون ومثل ذلك قل في مدارس حلب وهي تعد بالعشرات كمدارس العاصمة ورباطها وزواياها وجوامعها فانها أصبحت وأوقافها أثراً بعد عين ولم يكتب البقاء الا لبضع منها .

\* \* \*

اوقاف نور الدين وصلاح الدين } راجت أسواق الاوقاف على عهد صلاح  
ومن تقدمهما وخلفهما } الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وآل  
بيته ، فان حاشيته وأولاده أكثروا من أعمال الخير اقتداءً به حتى وقف عبيد دولته ورفيقاته وأبناؤه وأحفاده وبناته اوقافاً حجة على الخير في بلاد الشام وغيرها . وكان ربع اوقاف نور الدين في الشام سنة ٦٠٨ تسعة آلاف دينار صورية كل شهر ليس فيها غير ملك صحيح شرعي ظاهر أو باطناً .

وفي الروضتين تقدم نور الدين باحصاء ما في محال دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً . وقد وقف نور الدين وتصدق في سبيل الخير ، ووجوه البر والصدقات ، ما تقدير ثمنه مائتا الف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون الف دينار ، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأتمتها ومدرسها وفقهاها ، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما وقفه على أبناء السبيل في



طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأُمري وتعليم الايتام ، وقصر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه جماعة من الاولياء والغزاة والمجاهدين . هذا عدا ما أنعم به على اهل الثغور من أملاكهم فانه بضاهي هذا المبلغ وزيادة . ولهم أوقاف على فكاك الأُمري ومنها وقفان مجيلا على الحجر بالحرف الكوفي في مدينة بصري في حوراث تاريخ احدهما سنة ٥٦١ ووقف جاوولي اربعة حوانيت ووقف آخران فرناً وداراً على من لا يكون له اهل ولا يقدر على فكاك نفسه .

قال ابن جبير من اهل القرن السادس عند كلامه على مشاهد دمشق : وكل مشهد من هذه المشاهد اوقاف معينة على بساتين وارض بيبضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها ، وكل مسجد يستحدث بناؤه او خانقة يعين لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها الملتزمين لها ، وهذه ايضاً من المفاخر الخلدية ، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط او مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الاوقاف ، ومن الامراء من يفعل مثل ذلك . وذكر ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٧ في رحلته كلاماً يقرب من كلام ابن جبير قال :

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها وحصارها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ان يحج عن الرجل كفايته ، ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لاهلن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأُمري ، ومنها أوقاف لانباء السبيل يعطون منها ماياً كاون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورضنها ومنها أوقاف لسوى ذلك من افعال الخير . قال : مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت بها مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها ، فدفق له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . قال : وهذا من أحسن الأعمال فان سيد الغلام لا بد له ان يضر به على كسر الصحن او ينهره ، وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل هذا .

انما الدنيا هبات وعوار مستردة شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

تكاثر الاوقاف } استولى الخراب على البلاد بعد تحزيب تيمور دمشق  
ومضار الجمود } أوائل المئة التاسعة ولكن عاد الى الشام رونقه ، فتمجد  
على عهد الدولة الشركسية ، فلما جاء العثمانيون اخذت البلاد تراجع حتى بلغت هذه  
الدركة من الانحطاط الذي نراه وليس في البلاد جزء صغير من ذلك العمران المستجير  
وقد نال الاوقاف ما نال غيرها من التشتت ، وكان يد القدرة قضت ان لا تدوم  
سعادة السعيد ولا تنقاء الشقي ، ولو دامت مثلاً تلك الحركة المباركة التي كان الناس  
او اهل الثروة منهم يقلد فيها بعضهم بعضاً من إنشاء معاهد الخيرات والصدقات على  
اطراد واتصال ، لاصبحت بلاد الشام بامرها لهدنا مجموعة اوقاف يتناول ربعها الاشراف  
والاجلاف ، واصبحت سائر الامة خدمة وأجراء .

ولذلك كان العقلاء على مثل اليقين ان الاوقاف التي وقفها بعض ابناء الطائفة  
المارونية في جبل لبنان وبلغت لهدنا نحو ربع الجبل على ما يؤكد بعضهم بتصريف فيها  
بطريركهم وينفق من مستغلها على بعض الاديار والبيع ، لا تلبث ان يقوى عليها  
أصحاب القوة والمكثنة ويتخذون من القانون حجة ليهيئوا او يمرض لها عارض آخر - كما  
وقع في فرنسا على عهد ثورتها الاولى أواخر القرن الثامن عشر في استصفاء الحكومة  
أموال البيع والاديار والجمعيات الدينية - فتمزق الاوقاف وتعود الى الامة ، لان  
مثل هذه الاوقاف التي حبسها اهل الخير على أعمال البر في الغالب لم تنفع ابناء تلك  
الطائفة في زمن المحنة اي في الاربع سنين الاخيرة على عهد الحرب العامة ، ولو صح  
الاجتهاد وأظنه يصح في مثل هذه المواقف لانه هو المعقول ، والشرائع تسير على  
المعقولات ، لكان على شمامسة الموارنة وقساوستهم وأساقفتهم وبتريركهم ان يعمدوا  
الى بيع تلك الاوقاف او رهنها على الاقل ليصرفوا ثمنها على إطعام ابناء طائفتهم ولو  
فعلوا لما مات جوعاً في لبنان من الموارنة الوف .

\*\*\*

تأثير الوقف في ) رأينا في ايامنا مزارع ومنها البعيد عن المدن ، المتعذر  
العمرات } استثاره بحسب العرف ، قد أصبحت حدائق غلباً بفضل  
نوفر أربابها على نهبه ، وطول آمالم في تحسينه ، ارادة ان يستمتعوا به هم وأولادهم



من بعدهم ، ولو كانت من نوع الوقف لخربت وبارت ، ولا عرضوا عن تعهدها كل الاعراض كما هو المشاهد في القربة الموقوفة . ولكم رأينا الدائر العاصر الى جانب الزاهر العاصر . وحالة المستغلات او العقارات كحالة المستغلات أدهى وأمر . وكذلك الحال في الانامي الذين يعيشون من اوقافهم ومن يعيشون من زراعتهم او صناعتهم او تجارتهم ، فتجد في الاولين انكالا مجسما وعمما متراخية ، وفي الآخرين مضاء وعزما وشما وحسن ثقة بانفسهم . وعندي ان من وقفوا الاوقاف وحبسوا الاحباس لابنائهم ومن يحيي بعدهم قد أضروا بهم اكثر مما نفعوهم ، والرزق كالحياة لا طاقة لصغير او كبير ان يضمه لنفسه فيكيف به لغيره ، والمرء لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

كانت الاوقاف نافعة في الصدر الاول لقلتها بالنسبة لمجموع البلاد ، ولانها محبوسة على وجوه البر وعلى البائسين خاصة . فقد سأل عمر بن الخطاب شيئا عاجزا من اهل الذمة فقال له : ما انصفناك اخذنا منك الجزية زمن شبابك ، ولم نكفك مؤونة التكفف ايام عجزك ، وامر له من مال الصدقة بما يكفيه . من اجل هذا كانت الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يسع عاقلا انكار نفعه . ولكن الملوك ومن بعدهم من رجال الدبل انشأوا يجمعون من أموال المغارم اوقافا ، وقلما تشاهد المخلص فيما حبس ووقف .

\*\*\*

الاقواف عند قدماء  
العثمانيين  
} فقد كان ملوك بني عثمان في مبداء امرهم تغلب عليهم البداوة والسذاجة والتدين ، ولذلك ملأوا بروسه وادرنه والاسنانة وكوتاعية وازنيق باوقافهم ومدارسهم ، وكذلك فعل وزراؤهم وكانوا يتنازلون أرزاقهم من مقاطعات يقطعهم اياها سلطان الوقت . فلما غلبت عليهم الحضارة وفتحوا مصر والشام في عهد سليم ونكملت فتوحهم في عهد السلطان سليمان أصبحوا يفتنون في ضرب الضرائب على الرعية وقد غدا دخلهم لا يوازي خراجهم كما كان سابقا ، وأمسى رجال الامر فيهم يسبرون على سيرة ملوكهم يعرفون لحم الامة ليجمعوا أموالا ربما وقفوا بعضها على الأعمال الخيرية ، فكانوا كالثي ترفي وتصدق ، وما كانت صدقاتهم في الحقيقة الا فرارا بأموالهم من المصادر ، لان مصادر

الوزراء والامراء بعد المئة العاشرة أصبحت في الدولة العثمانية مورداً من الموارد التي تعيش بها الدولة ، بعد ان كانت لاول امرها تقتصر في دخلها على الجزية الشرعية والخراج الذي كانت لتقاضاه من ملوك الصراينة وأعشار الاملاك السلطانية وربع الجمارك والملاحات والخمس الشرعي من أموال الغنائم .

واذا كان عمال الدولة لا يأخذون الاموال الا من حلها كيف استطاع مثل سنان باشا فاتح اليمن ان يصرف على خبراته ما يربو على مليوني ليرة بسكة زماننا ، ولو قدر هذا المال بقيمه العرفية اليوم لبلغ عشرة اذ عشرين مليوناً . لا جرم انه لم يحسب هذا المبلغ الذي تعجز أمة من الامم الراقية اليوم عن المعاداة به الا بارتكاب ضروب المظالم والمغارم . ولو فتح هذا الفاتح ما بين المشرقين وارتكب مثل هذه المنكرات في أموال العباد ما نفع شيئاً في قرباته وصدقائه .

واذا كان مثل جنجني خوجه من مشايخ السلطان ابراهيم وهو من ارباب الخرافات والخزعبلات بالطبع ، قد جمع من الرشاوى والهدايا والارقات ما يربو على مائة الف كيس والكيس خمسمائة قرش يوم صودر واخذ خطه بها ، فكيف حال من يقبض على زمام الامر من الوزراء والولاة ويظل مدة في منصبه ثم هو يظن ان انشأ مدرسة او جامع مما يبرر أعماله ويكفر عن سيئاته ، وان ذراريه بتأمن من النقر لان الملوك في الغالب كانوا يتركون لم العقارات والارضين ويكتفون بمصادرة الاموال فقط .

\*\*\*

الوقف من مال غير محلل } قال في « نتائج الوقوعات » : وولفه من وزراء السلطنة  
في عهد السلطان عبد العزيز في الرد على من قال ان  
الاسلاف لم يجسوا ما جسوه الاخوف المصادرة واردة ان يتركوا لاولادهم وأحفادهم  
مورداً يعيشون به : اذا كان من الوانقين من هم على هذه الصفة فان اكثرهم على خلاف  
ذلك لا محالة ، وقد رأينا في صكوك أحبابهم انهم وقفوها على الجوامع والمدارس  
والكتاتيب والخانات والحمامات وعلى إنشاء القلاع وإعاشة القائمين عليها من المرابطين  
وعلى أبناء السبيل . اذا عرفت هذا وشاهدت ما بقوه من هذه الآثار البجسية النافعة  
التي ساعدوا بها على نشر المعارف والعلم وعمروا بها البلاد ، فليس من الانصاف ان



تقدم الاصل على الفرع وتذهب الى سوء الظن فيهم . قال : واذا جئنا نبحث عن المبالغ التي أنفقت على هذه الاوقاف وهل اكتسبت من وجوه محللة ، فانا معك بان كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب ، اما وقد جمعت تلك الاموال بصور مختلفة فان انفاقها بما يرفع العامة من الاعمال السالحة ازين في العاقبة . وأدعى الى المحمدة من صرفها في الإسراف والسفاهة ، وحاسبها يذكر بالرحمة ، ويستفيض اسمه المسجل في عداد المتصدقين .

هذا ما رآه الوزير التركي وفي كلامه نظر عند العقلاء اذ اي طاعة ثبتت سيف جنب تلك المعاصي . ولعمري متى ساغ للمرء ان يأكل أموال الناس بالباطل ، ثم يتصدق بها : ببعضها ويحمد الخالق والخلق أثره . وقد أحسن هذا الوزير بقوله ان صرفها في هذه السبيل ادلى من غيره على كل حال .

قال حجة الاسلام الغزالي : ارباب الاموال والمقترون منهم يفرق ، ففرقة يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والتكاثر وما يظفر للناس كافة ويكتبون اسمائهم بالاجر عليها لتخلد ذكركم ، ويبقى بعد الموت اثرهم ، وهم يظنون انهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد اقرنا فيه من وجهين : احدهما انهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فاذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى ، وردھا الى ملائكتها اما باعيانها او برد بدلها عند التجز ، فان تجزوا عن الملائكة كان الواجب ردها الى الورثة ، فان لم يبق للظلم وارث فالواجب صرفها الى أهم المصالح .

نم نحن على رأي صاحب « نتائج الوقونات » من ان جميع الواقفين لم يكونوا على نسبة واحدة في تحصيل الثروة ، وقوله ان اكثرهم صالح يحتاج الى نظر بليغ ، بل الاولى ان يقال ان منهم الصالح الذي جمع أمواله من طرق مشروعة وجعلها قرينة لمولاه لما ائتمرب من لقائه ، كأن يدخر المال ويقتصد فيه ويكون أنطائه اوراثة عظيماً او يرث من آباءه اذ غيرهم او يتجر ويزارع الى غير ذلك من وسائل الاغناء

المشروع ، وفي سير بعض الامراء والعلماء وبعض صدور الناس حوادث كثيرة تؤيد هذه القضية .

\*\*\*

مزار الأوقاف } وكيفما دارت الحال فان الأوقاف على الصورة التي وصلت اليها في هذه الديار عامة كانت او خاصة قد حملت في مطاوعها من المضار ، أضعاف مانوقع واقفوها منها من المنافع ، وخصوصاً الأوقاف الأهلية فانها ضارة من كل وجه ، اما الأوقاف على وجوه البر والنقوى فليس في استطاعة احد منعها ما دام المرء حراً بما له بصرفه كما يشاء .

وقد أدرك الميثاقون في العهد الاخير مزار الأوقاف الأهلية فقصوا بقسمتها اذا كانت صالحة للقسمة او بيعها وتقسيم ثمنها بين الشركاء ان لم تكن كذلك بمجرد طلب احد الشركاء ، وبذلك تخلف مضرتها . على ان اوقاف الجوامع والمدارس وسائر القربات ايضاً قد تخلص من ربقة الوقف بحيل يسمونها شرعية واخترعوا لها اناء كالتحكير والاحترام والاجارتين والمرصد واخرجوها بهذا العمل عن ملك الوقف الى ملك خاص .

وبهذا نقل الأوقاف حيناً وتكثر تارة أخرى ، وفي حلب اليوم الف واربعائة وقف ينظر فيها ديوان الأوقاف و يبلغ ريعها ما يوفى قرش ما عدا الأوقاف الأهلية وكذلك الحال في دمشق والقدس واوقاف كل بلد بحسب غناه ونفوسه .

\*\*\*

منافع الأوقاف } ان إخراج الزكاة عند المسلمين في القرون الاولى للإسلام ، ثم إنشاء المعاهد الدينية وغيرها في القرون الوسطى وما بعدها ، وحبس الاموال لإطعام الفقير والزمن والعاجز عن الكسب ، قد خفف ولا شك من شرور المجتمع العربي بعض الشيء ، وان كان فيه من جهة أخرى تحبيب التوكل والتواكل الى بعض الناس . ولم نر في بلادنا ، تحصيل الرزق فيها أهون منه في اوربا مثلاً ، ما نسمع به من ضرور الشقاء الذي يسوق هالك الى الانتحار والى ارتكاب الفظائع . وبعض الامم المتمدنة اليوم تفكر في قتل العجائز لقلّة



فأندتهن في المجتمع ، والابقاء على الكلاب وهذا من أغرب ما سمع . اما المجتمع العربي فلم يعهد فيه شيء من هذا بفضل ما حبسه المتصدقون على ضرور البر ، وان كان هذا الإفراط والتضامن ، والافضال على العاجزين عن الكسب ، قد يورث الخمول ويقعد بالهم عن الكدح والانكماش .

الى اليوم لم ينشأ للبشر مجتمع كامل في غاية صفاته على كثرة ما جاءه من الشرائع وسن لاجله من القوانين ، والسعادة لم يسسها الناس بأيديهم وكأنها محالة الآن . وما ندري ان كانت اسبابها تتم في مستقبل الدهور والعصور ، فلا الواقف وفي الناس من الفقر ولا عدمه أقرهم . هذه القوانين قد تلطف من شرارة الشر ، ولكنها لا تستأصله من جذوره ، لان ذلك اسباباً أخرى لم ترسخ نواعدها في المجتمعات ، ولعلله لا يتم المطلوب قبل انتضاء أيام ولبال ، وانضاء آجال وأجيال ، والله يحكم لا معقب لحكمه .

\*\*\*

تقسيم الاوقاف } بقسم<sup>(١)</sup> الوقف الى خيرى وأعلى ، وينقسم الخيري وإصلاحها } الى ديني محض كحبس المساجد والمعابد ، والى ديني دنيوي وهو يشتمل جميع أنواع الوقوف الخيرية كوقف مدارس العلم ودور الصناعات ورباطات المجاهدين ، وفنادق أبناء السبيل ، ومستشفيات المرضى ، ومقابر الموتى ، ونحو ذلك من وسائل الارتفاق العام ، ومثله ما تحبس عينه ليرتفع بربعه مصارف الصدقات الشرعية سواء أكان الحبس على جميع المساكين ام على فئة مخصوصة منهم .

واما القسم الثاني وهو الاهلي فينقسم الى طائفي وذري ، والابل ما حبسه الواقف على طائفة مخصوصة من الناس . والثاني ما حبسه على ذريته من بعده . وهذه الاقسام تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق ، لانه ينقسم باعتبار متلقه وعوارضه الى اقسام

(١) افترحنا على صديقنا الشيخ سعيد الباني من علماء دمشق ان يكتب لنا رأيه في الاوقاف وطرق إصلاحها فكتب كتاباً سماه «الكشاف عن أسرار الاوقاف» وهو لا يزال مخطوطاً فاقبستنا منه ما هو بمثابة نعمة لما كتبناه في الفصل السابق .

كثيرة ، فالمتعلق الموقوف له كالعبادة التي وقفت لاجلها المعابد ، والثاني الموقوف عليه وهو الخلفوات التي تتمتع بنعمة ما حبس عليها ، والثالث الأعيان الموقوفة . واما العوارض فهي كالصحة اذ عدمها من الوجهة الشرعية ، وكالضبط او الالحاق من الوجهة الادارية ، وقد يتداخل بعض هذه الاقسام مع فروعها فيقال مثلاً وقف خيري صحيح مضبوط . ولا تقسام الاعيان الى ثابتة ومنقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق الى وقف الأموال الثابتة ووقف الأموال المنقولة ، فالثابتة كارض الزراعة المملوكة الرقبة والحوائط والبساتين والعرضات والمعقارات المسقوفة . وهذا النوع لا خلاف بين جمهور علماء المسلمين بصحة وقفه . واما الأموال المنقولة صائمة كانت او ناطقة ، فقد اختلف الفقهاء بصحة وقفها ، والمعتمد الصحة وفقاً لما جرى عليه تعامل المسلمين في القديم والحديث من وقف المصاحف والكتب والجنائز ونحو ذلك ، وبالاولى معدات الجهاد كالسلاح والكراع .

والارض الاميرية سواء اكانت عشرية ام خراجية لا يصح وقفها الا اذا كانت مملوكة الرقبة ، فاذا ملكها السلطان ملكاً شرعياً فله ان يقفها على من يشاء كتصرفه ببقية أمواله المملوكة . والواجب اذا تقييد وقف السلاطين الارض الاميرية بالاقواق الاهلية اذ لا يسوغ للسلطان ان يفرز مزرعة من ارض بيت مال الامة العام ويخصصها بفتة من الناس على سبيل الحبس والتأييد ، كما فعل السلطان سليم الاول العثماني حينما استولى على الشام بافرازه كثيراً من المزارع بدون تملك رقبتها ، ووقفها على ارباب الزعامة الدينية وذرائعهم . والعشر الذي تُنقضاء اليوم البقية الباقية من الذرية او اديان النسب المندسون بها هو ضرب من السمح يجب ان يتحول مجراه عن هذه الخليات الطفيلية الى مصالح الامة ومرافقها الخيرية العامة .

وخلاصة القول ان هذا النوع من الاوقاف السلطانية غير صحيح ، وبالأخلق وقف الوزراء وعمال الولايات . ولو اتهم بموافقة سلطانهم الأعظم ، لان عمال القرون المظلمة في عهد الحكم الأقطاعي كانوا يقترفون في أباالانهم ما شاؤوا وشاءت أهواؤهم فيقتلون البررة والابرياء ، ويعفون عن الجناة ونطاقع السابلة الاشقياء ، وبصادرون اموال من يشاءون ، وبصلون بها من يشاءون . فاذا كان الموت والحياة



بين شفقتهم ، وحقوق العباد الخاصة أتعوبة بين ايديهم ، وأموال الرعية مباحة  
لديهم ، فأخلق بهم ان يعيشوا بالحقوق العامة كأرض بيت المال الشائعة الانتفاع بين  
أفراد الامة فراغاً بالبيع او انتقالاً بالأرث ، او إحياءاً بالعمل مقابل البدل . فقد  
كان هؤلاء الظلمة يضعون ايديهم على ما يختارونه من ارض أبااتهم الاميرية المملوكة  
الانتفاع فضلاً عن الشاغرة ( وهي ما تدعى بمصطلح قانون الارضين بالمحولات الاميرية )  
ويتملكون هذا الحق بالنفويض من انفسهم لانفسهم ، لانهم الكمل بالكل لا يسألون  
عما يفعلون ، ما داموا يستترن الولاية على الأيالة بثمن مقطوع ، يؤدونه مسانحة الى  
سلطانهم او أعوانه ، وبعبارة ثانية يفهمها عوام المرظفين الحكوميين ، ما دام الولاية  
يلتزمون الولاية على الأيالة من أعوان السلطان بالمزايدة حتى تصل الى بدلها اللائق  
او الفاحش ، ويقع عليهم المزداد الأخير وتحال الى عهدتهم إحالة قطعية .

وكل وقف من أوقاف السلاطين يقول من منفعة خاصة الى مصلحة عامة فهو  
صحيح والعكس بالعكس . وحكمة ذلك سد الذرائع بوجه الوزراء و ال الايالات  
الظالمين الذين كانوا يطوقون بنف ذم الارض الشاغرة ، ويغتصبون المملوكة وينتفعون  
بحق قرارها ثم يخالون بوقفه خشية المصادرة . وقد مهد لهم سبل الاحتيال المنقبة  
المصانعون ، فأفتوهم بصحة الوقف على النفس الذي يروى القول بصحته عن بعض علماء  
السلف لمصلحة عامة ، وهي ترغيب الناس بالوقف لان مصيره بعد موت الواقف  
وانقراض ذريته الى جهة لانقطع وهي الفقراء والمساكين الذين لا يتخلو منهم الارض  
في كل عصر وقطر . لكن مئة مئة السوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة فأعانوا الظلمة بهذه  
العتوى وأضرابها على إفراز المزارع من ارض بيت المال ، وحبس حق قرارها على  
انفسهم في حياتهم وعلى ذرياتهم من بعد مماتهم .

هذا رأي نبديه من الوجهة الفقهية النظرية ولا نفقي ولا نقضي به من الوجهة  
الشرعية العملية ، وان كانت مناطه المصلحة العامة التي ترمي اليها الشريعة السححة  
الواسعة ما لم تنفق عليه كلمة اهل الحل والعقد من علماء الشريعة الاسلامية لان الفرد  
يخطئ ، و يصيب . لكن الذي نقطع باجحه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق  
قرار الارض من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث والزرع بدون

معدرة شرعية ، لان المتصرف بالمنفعة لم يملكها الا باسباب شرعية ، وكل ما يملك  
بسبب شرعي لا يجوز نزع من مالكه الا باسباب شرعية .

\*\*\*

ضروب الخيل وانتمالك } الناس محتاجون بسائق الاضطرار الى البيع  
حرمة الارقاف } والابتياح والمقايسة والمقاسمة ، مادام الانسان  
مدنياً بالطبع مضطراً الى التعامل بالتبادل الذي هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية  
وهي دعامة العمران . وقد أورث تهاافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد  
بحركة التعامل الاقتصادي الضروري الاستمرار ، لان التصرف بالعقارات الموقوفة  
بمما او شراءً ممنوعاً شرعياً ، وبواعت العمران والاقتصاد نقضي هذا التصرف طبعاً ،  
دراً لخطر الآفات الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، التي تؤدي بحياة العباد ،  
وخراب البلاد .

ولذا اخترعوا — والحاجة أم الاختراع — ابتزاعاً على ما يقولون من قواعد ناصر  
السنة الامام احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ما يدعى في الديار الشامية بالمرصد .  
وهو الدين الذي على ذمة العقار الموقوف او الاستيفاء من أجرته بعد استيفاء المتولي  
عليه مقداراً مالياً محجلاً من المستأجر يسمى « خدمة » وفرض مقدار محجل عليه  
يستوفي منه مسانحة يسمى ديناً مؤجلاً ، بشرط ان يكون المستأجر على الموقوف لعمارته  
او ترميمه ديناً بذمة شخصه ، فاذا أيسر فللمتولي ان يؤدي الى صاحب المرصد ما كان  
له على رقبة الوقف ليعيدها الى جهته طوعاً او كرهاً . ومرعى هذا المخرج ومغزاه تحرير  
العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بمما وشراءً مراعاةً للمصلحة الاقتصادية ،  
مع تقدير مراتب مقابل هذا المنح ، ومع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد اداء الدين حرمة  
للاحكام الشرعية ، وبنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلاً تكاثر المرصد .  
هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة ، واما الارضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا  
لمنح التصرف بها ، فراعاً او انتقالاً ، مخرجاً آخر وهو سراية « شد السكة » من الارض  
الاميرية الى الموقوفة . ومعناه استحقاق الحرائث في الارض التي ليست مملوكة الرقبة  
للحراث مقابل أداء العشر او الخراج ان كانت اميرية ، واداء مراتب الوقف ان كانت



موقوفة الرقبة بعد أداء حق قرارها . وقد أصبحت قضية ارض الزراعة الموقوفة في الشام ذات غموض عظيم في زماننا ، لاختلاط الموقوفة بغيرها ، واختلاط الموقوفة وقتاً صحيحاً لتملك رقبتها بالموقوفة وفقاً غير صحيح لعدم تملك الرقبة ، وكذلك لاختلاط ذات الوقف الاهلي بذات الوقف الخيري فضلاً عن ضياع وقف أغلبها واندثاره بنقادم العهد ، ما عدا الارضين التي صانت الحكومة وقفها وضبطته ، مقابل إفراز العشر والاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواءاً كانت خيرية ام اهلية ، وسواءً أكان الوقف صحيحاً ام غير صحيح .

وإذا كانت قضية الارض الاميرية باعتبار ذاتها من أشكال المشكلات ما طرأ من التبديل على الخطة التي رسمها سيدنا عمر رضي الله عنه بعد فتح الشام ، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الأنواع التي استمرت على ابناء هذا الزمان ، ما لم يتخ لهم الاطلاع على كتب الواقفين ، ومناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين او المتولين ، و يندر ان يطلعوا عليها احداً لعينهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية ، واختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الاهلية . على ان أغلب ارض الزراعة الموقوفة لا تختلف أحكامها في عهدنا وربوعنا عن بقية الارضين من وجهة الفراغ والانتقال .

ونحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج لعلنا ييسر الشريعة واتساعها وملاءمتها لمقتضيات الزمان والعمرات لا يسعنا انكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الاوقاف الاسلامية وانتهيار معالمها ، لانه فسح مجالاً لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الاوقاف وطمس معالمها ، ودرس معاهدها . ولما أدرك ارباب الطمع ان المرصد يملكهم العقار الموقوف ملكاً باناً لان لتولي الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى اليه دينه على الوقف ، كادوا للاوقاف الاسلامية بحيل ابتدعها بعض منفقبة القرن الوسطى ، ما عرفها الشرع ولا عرفته ووضعوا أسماء لهم سموها ما انزل الله بها من سلطان وهي : القيمة . الجدك ( الكدك ) . الخلو . القميص . الحكر . الاحترام . ويشمل هذه الانواع ما يسمى حق<sup>(١)</sup> القرار في البلاد الشامية والكردار

(١) هو غير حق القرار بالاراضي الاميرية المراد به التمتع بحق حرائثها وزرعها .

في بلاد خوارزم ، وهو غير حق القرار في الارض ، بل يريدون به تجوزاً الاعيان القائمة سواءً أ كانت متصلة كالجدران والسقف ، ام منفصلة كالآلات والعدد .  
وتختلف اسمائها باختلاف ما حلت به من الامكنة ، فان حلت في البساتين والحدائق فاسمها في ديارنا «قيمة» والمراد بها جدران البستان (الدكوك) وما يشتمل عليه من جذور ونجعه .  
ويعتبر العمامة (شروش الفصة) ومعين مشمشه (بمصطلح العامة) جرن معك مشمش القهر الدين) وقمامته (المزيلة) . وان وجدت في الحمامات فالمراد بها الفرش والاثاث كالسجاد والوزرات والطاسات . وان كانت في الحوانيت فتسمى جدكاً وهو ما يضعه المستأجر متصلاً كالأبواب والرفوف . اما اذا كان منفصلاً كهدد انقاهي وآلات الخلافة فيسمى خلواً او حق السكنى . ويغلب على الظن ان هذا غير الخلو الذي اصطلح عليه منقبة القطر المصري بل الأرجح انهم يعنون بالخلو ما يدعوه منقبة الشام بالمرصد ، ويقرب منه ما يدعوه منقبة بلاد الروم بذي الاجارتين وهو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد والقدم .

ثم ان هذه الاعيان اذا كانت في المطاحن فانها تسمى قبيصاً ، والمراد به آلات الطحن كالقطب وحجري الرحى ونحو ذلك من آلات الطحن المقلولة . واذا كانت مادة بناء قائم في عرصه موقوفة فتسمى حكرأ . وصورة احتكارها ان يأذن متولي الوقف للمستأجر بالانشاء في العرصه الموقوفة على ان يكون ما يبنيه ملكاً له ، بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معيناً يسمى خدمة ، ويتعهد باداء مقدار مؤجل يؤدي مسانحة يسمى ديناً مؤجلاً . وان كانت غراساً فيسمى غرسها احتراماً . وصورته ان يأذن المتولي على ارض موقوفة — ماعدا ارض الزراعة — بغرسها لانسان على ان ما يغرسه يكون ملكه او ان يكون البعض ملكه والبعض الآخر ملك جهة الوقف على سبيل التابعية للارض بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معيناً يسمى ايضاً خدمة ، ويتعهد بمقدار مؤجل يؤدي مسانحة يسمى ايضاً أجره او ديناً مؤجلاً — هذا ملخص ما نص عليه المنقبة المتأخرون .



مصائب الأوقاف } ان غلو الواقفين بالتهافت على الوقف ، واتخاذ الظلمة  
 المتجربين بالدين الوقف دريئة لصيانة اموالهم المغصوبة  
 من المصادرة ، وتخريج أئمة الحرج الذين ممامم بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم  
 المنفقهة المنطعمون ، وتشديدهم على الناس او نضيقهم ما وسع الله تعالى على عباده  
 ونسائل منفقهة السوء بابتداع حيل الاوقاف لافعام جيوبهم وإشباع بطونهم النهمه  
 التي لا تشبع بالقليل لانهم يأكلون بسبعة اعماء — كل ذلك كان من اعظم البواعث  
 على إضاعة الاوقاف الاسلاميه في قطر الشام ، لان اغراق الاسلاف المتقدمين  
 بالتهافت على الوقف ضيق على الذين يلونهم من الأخلاف المتأخرين سعة الارض  
 الحره بالحبس عن التصرف بهما او ابتياعاً او مقايضة او قاسمة الى آخر ما هنالك من  
 ضروب التصرف المدني . على حين مبني الشرائع الآئيهة كما قال ابن القيم على الحكم  
 والمصالح ، وكها رحمة وحكمة ، ومصالحة وعدل ، وكل قضية خرجت عن الرحمة الى  
 التقمة ، وعن الحكمة الى العيب ، وعن المصلحة الى الفسدة ، وعن العدل الى الظلم ،  
 فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل . وارى ان كل ما كان كذلك فهو  
 من الشرع المبدل .

أضاع هؤلاء الجامدون حكمة الوقف ومصالحته ، وحالوا دون نمو ربيع العقارات  
 الموقوفة كحرصهم على شرط الواقف وصفته ، ولو اقتضت منفعة الوقف التغيير والتبديل .  
 وقد نجم عن التهافت على الوقف غلو في الدين او تجاربه ، وعن تشديد المنفقهة  
 على الناس ابتداع الحيل التي أودت بالاوقاف ، فطفق الناس يتماكون العقارات  
 الموقوفة تملكاً محضاً وان ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر او القيمة  
 او التميميص ونحوها من الحيل الكردارية التي جرأت الظلمة فيا بعد على اختلاس المساجد  
 والمدارس والمقابر مباشرة مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيل في  
 زمن آثر كثير من ابنائهم الدنيا على الدين لفرط جشعهم . فانتجج بركان الجرأة على  
 الشريعة لتضيق أئمة الحرج ، وفجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف .  
 ولم يجد اختراع مخرج المرصد تفعلاً لصيانة العقارات الموقوفة . اذ لم نسمع ولم نشهد ان  
 المتكلم على وقف ادى الى صاحب المرصد ما كان له ديناً على رقبة الوقف واسترجعها

الى جهته ، بل نفي الينا عكس ذلك وهو ان أصحاب المرصد كانوا يرشون المتسككين على الاوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد الى الملك الحر ، ويرشون ايضاً مفوضي تمليك العقارات ليسيجلوا المقار الموقوف ملكاً صرفاً ، بل ان بعض المتولين انفسهم كانوا يخونون الوقف بالتخاذم مخرج المرصد حيلة ، اذ يتذرعون به بدون اضطرار اليه لتحويل المقار من الوقف المحض الى المرصد ، اذاماً للجيوب ويرشون قضاة سوء ليثبتوا اضطرار الوقف الى الدين والاستدانة .

\* \* \*

اوقاف الذرية } قوام الوقف ركنان وهما الحبس والتأيد ، ففي حبس  
 اوقاف العين عن التملك وأبد الحبس بالتقييد الى جهة  
 لا تنقطع أصح الوقف ، وربما وأضحيت العين محبوسة شرعاً . ولا يمكن تحريمها من  
 قيد الوقف ، ورجوعها ملكاً صرفاً كما كانت البتة ، لان الشرع صانها للجهة الموقوف  
 عليها من تصرف الانتقال والتملك . ولخوف الوائف من سفه ذريته ، وتبديدها الثروة  
 من بعده ، او لخوفه من المصادرة او لغير ذلك من الاسباب المختلفة باختلاف النيات ،  
 لجأ الى الوقف وقيدته بقيود وشروط تلائم رغائبه ، وأبده بالتقييد الى جهة لا تنقطع  
 بعد انقراض الذرية لئلا يفقد الوقف احد ركنيه . وما التجأ الوائف الى الوقف  
 الا التجأ الى كنف الشريعة التي شرعت الوقف وصانته باحكامها . وغير خفي ان  
 حامي حامي الشريعة امام المسلمين المكلف برعاية احكامها ، والنائب عنه من هذه  
 الوجهة وزارة الاوقاف في العاصمة ودوائرها الفرعية في الأيالات وملحقاتها . والشريعة  
 لا ترد اللاجئ الى حماها بالطرق الشرعية . ولهذا لم تفرق قواعدها وأحكامها بين  
 الاوقاف الخيرية والاهلية بالمناعة والصيانة ، فكل من النوعين منيع مصون بنظر  
 الشريعة . واللاجئ الى الشريعة لاجئاً طبعاً الى المكلف بمجابتها ورعاية احكامها ،  
 فكان حقاً على امام المسلمين والنائبين عنه من الوجهة الوافية ، صيانة الاوقاف الاهلية  
 كحرصهم على صيانة الاوقاف الخيرية . فهذه القواعد منشأ سيطرة دوائر الاوقاف  
 الحكومية على الاوقاف الاهلية المحضة ، ولا سيما ان الوقف الاهلي الصرف يحتمل  
 ان ينقلب خبيراً محضاً في أقرب وقت . بانقراض الموقوف عليهم ، لان مال الاهلي



الى الخيري بالمعجل او الآجل ، لتقييد الوقف بالتأييد الى جهة لا تنقطع . وكل ما يعود الى هذه الجهة فهو من الاوقاف الخيرية فتحق على دوائر الاوقاف ان تكون في كل آن راقفة بالمرصاد أمام تصرف نظار الاوقاف الاهلية . على ان اغلب من تذرعوا بالوقف الاهلي لصيانة الثروة ، ولا سيما الوزراء وعمال المقاطعات ، كانوا يتبرعون بالاوقاف الخيرية ليوطدوا الاولى بالثانية ، ويعهدوا بلولاية على الجميع الى الارشد من ذريتهم . فرعاية لشروط الواقفين لانتزاع دواوين الاوقاف الولاية من المتولين على الاوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الاهلية ما دام المتولي يؤدي دفتر المحاسبة نقيماً من الشوائب . واذا كان الامر كذلك لا يسوغ لديران الاوقاف ان يضبط الوقف بل يذره ملحقاً ، لكن يحق له ان يجبر المتولي ان يؤدي حساباً عن الوقفين الخيري والاهلي لتدخلها وان لم ترفع اليه شكوى من ارباب الاستحقاق .

\* \* \*

الاوقاف في العهد العثماني الاخير } لهذا العهد ثلاثة ادوار الاول دور السلطان عبد الحميد الثاني . الدور الثاني دور اخيه محمد رشاد الخامس . الثالث دور اخيها وحيد الدين محمد السادس خاتمة ملوك بني عثمان . ولم تكن دوائر الاوقاف في الشام على العهد الحميدي أقل من بقية الدوائر الحكومية من وجهة تحلل الفوضى والاختلاس وقلة النظام والانظمة ، بل كانت أكثر اختلالاً من غيرها لان لها وجهة دينية ذات اتصال بمشايخ الدين الحشوبين او الدجالين الذين هم ابعد الناس عن النظام والانظمة ، فكانت الشؤون الدينية في عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين واكتفائه على الجملة بالتمسك به بشعاره الصورية ورسومه الرسمية ، وكانت أعوانه يبيعون على مسمع ومرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعي والفتيا والتدريس العام والوعظ والإرشاد . ومن جملة ما يبيعون وظيفة مدير الاوقاف التي كانت تكند وتجد وتبذل الجهد في جباية أموال الاوقاف ، لتبعث بها بعد السلب والنهب وانقسامها الى العاصمة ، فيفيض السلطان من هذه الاموال على الدجالين من مشايخ الطرق وعلماء الرسوم والرتب والارصمة باسم ( احسانات او صدقات سلطانية او فدية عن عافية ذاته الملوكية ) ويكتر بيديه بالصرف على علماء

الدين العاملين فساءت لذلك حال — أئمة المساجد وخطباء المنابر والسدنة والمؤذنين والواعظين لفرط التفكير عليهم حتى انحصرت هذه الاعمال في البأسين والكسالى والزمنى .  
 تنقسم الاوقاف الى خيرية واهلية . وتنقسم الخيرية الى مضبوطة وملحقة ، نناط الاولى بدائرة الاوقاف مباشرة . وتركبت الثانية لئظارها مع احتفاظ ديوان الاوقاف بالنظارة العامة عليها ، وللدوان حق السيطرة على الاوقاف الاهلية ولا سيما اذا كانت مختلطة بالخيرية . وهي تنقسم الى جليلة وخفية . فالاولى من متعلقات الاوقاف الخيرية المضبوطة ، وهي نفقات ارباب الشعائر الدينية والاختلاس منها تافه جداً بالنسبة الى نفقات تنوير المساجد والمعاهد وابتاع ما يلزم من الاثاث ، وعوايضاً حقير بالنسبة الى ترميمها وترميم الاعيان الموقوفة عليها . واما الانشاء المحدث او المجدد فلم يكن معهوداً في ذلك العهد لان ديوان الاوقاف يجبي الأموال من الشام لتبعث بها الى العاصمة .  
 وبالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجليلة شيئاً مذكوراً قياساً مع الوسائل الخفية وهي عديدة : اولها ان كثيراً من المساجد والمدارس والزوايات ( زوايا مشايخ الطرق الصوفية او المتصوفة ) والمعاهد الخيرية كالمستشفيات او مطاعم الفقراء ( التكايا ) ونحوها من الأمكنة المضبوطة أوقافها ، كانت مهجورة او مقفلة الابواب لكونها في القرى او في أحياء منزوية عن المدينة ، فكان ديوان الاوقاف يحسب عليها جميع ما تحتاج اليه من النفقات أضعافاً مضاعفة كما لو كانت عامرة أهلة مفتحة الابواب ، في حين انها لا تنفق عليها شيئاً سوى مقدار زهيد لقاء تطبيق المعاملة على الاصول المرعية الاجراء ، بالحصول على وثائق وصول النفقات الى البأسين المستعارين الذين يستعيرهم الديوان مقابل توقيع الوثائق والاستناد الكاذبة . والوسيلة الثانية أشد خفاءً من الاولى ، وهي مواطأة دائرة الاوقاف مع نظار الاوقاف الملحقة الغزيرة الربع على اكل أوقاف المسلمين الكثيرة العدد وهي مما حبسها السراة والامراء والوزراء الاسبقون على ذرارهم ، وعلى المعاهد الخيرية والمعابد ، وجعلوا الولاية عليها في الارشاد على ذريتهم . وذلك ان هؤلاء النظار نظار الاوقاف الخيرية الملحقة كانوا يتقاضون أعشار القرى المضبوطة الوقف من الخزانة العامة باسم الاوقاف الاهلية والخيرية ، على حين درس جل بل كل المدارس والمساجد وأصبحت اسماء لامسميات لها ، درست



وانقلبت حوائت وفنادق ودوراً وقصوراً ، وسجلت في سجلات التملك ملكاً حراً لهؤلاء النظار المختلسين ، ثم انتقلت لورثتهم ولمن ابتاعها منهم . وكانوا يتقاضون أموال العشر الخاصة لهذه المعاهد ، ويدرجون بكل قحمة وجرأة مبلغاً وافراً باسم النفقة على ثوبها وترميمها وفرشها وإقامة شعائرها ، ثم يتغاضى ديوان الاوقاف عن محاولة النظار تحويل الاعيان الجارية بملك الوقف الى مرصداً كرदार بدون سبب قوي ثم اغضاه هذا الديوان عن تحويل الاعيان الموقوفة من الوقف المحض الى مرصد الكرदार الى الملك الصرف ، ثم تسجيل المقارنات الموقوفة على المعابد والمدارس ملكاً صرفاً للنظار المختلسين الى غير ذلك من انواع المواظآت بين ديوان الاوقاف والنظار عليها ، وكلها ترجع الى اختلاس الربع وتغيير الاعيان الموقوفة . وكان ديوان الاوقاف يكتب من حين الى آخر الى وزارة الاوقاف في العاصمة بانه ضبط مدرسة كان بعض الأشرار اتخذها سكناً فأرجعها معبداً نقام فيه الشعائر والصلوات والادوارد والاذكار والأدعية للخليفة الخ .

اما القلب وأعني به مجلس إدارة الاوقاف الاعلى فقد كان على جانب عظيم على الضعف ، وفقاً لمقتضيات العهد الحميدي التي يرومها عباد المنافع الخاصة واعداء المصالح العامة . واذا كان القلب الذي هو مصدر الحياة ضعيفاً بنفعن حجيرانه المنبعث عن تغلب الجرائم الذرية الفتنك ، فكيف تكون حالة شرايين الجثمان وأعضائه ودورة دمه . لا ريب انها تكون كحال هيكل ديوان الاوقاف وإدارتها ، مادام أعضاؤها عاطلين من الاهلية علماً وخلفاً ، ولا كثيرهم علائق بوقف خيري او اهلي ، مما هو مخالف للقانون . فهم لا علم ولا نزاهة ولا غيرة . اما نظار الاوقاف الاقوياء بالمجد الكاذب ، فقد كانوا يتصرفون تصرف الملاك بالاعيان الموقوفة الربع على المعاهد الدينية والخيرية وعلى ذرية الواقفين فضلاً عما يختلسونه من المدارس وأمنية المساجد يتخذون جميع ذلك دوراً وحوائت وحدائق وينقلونها في سجلات التملك من الوقف المحض الى الملك الصرف . واذا طالب بعض ارباب الغيرة باعادة الاوقاف الى حالها وإجراء امورها على حقيقتها نقام عليهم الدعاوى المزورة ، ونصب لهم المكابد واشراك الانتقام . وكان لسان حال ديوان الاوقاف ومجلس إدارتها ورئيسه يقول لنظار الاوقاف

المخلصين (سكننا عنكم لتسكنوا عنا) لآل جميعهم باستنزاف الاموال وسميح الضعفاء سواء .

ولقد انظم ديوان اوقاف الشام في الجملة بعد اعلان القانون الاسامي (١٩٠٨م) وتسرب اليها شي من الاصلاح بفضل الخطط التي رسمها وزير الاوقاف العثمانية العربي خليل حمادة باشا ، وثناقص النهب والاختلاس بالنسبة الى العهد المنصرم ، غير ان معاهد البلاد ومعابدها لم تنل حظاً من زيادة الواردات ، لانها كانت تنفذ الى العاصمة فنفق كغيرها من واردات اوقاف الايالات العثمانية كانشاء فنادق كبرى للوقف في الاستانة . وظلت قوانين الاوقاف كما كانت في عهد السلطان عبد الحميد حبراً على ورق . وبما يسجل من أعمال الدولة في الحرب العالمية انها انتهكت الحرمات باسم الجهاد المقدس وذلك باخذ المعابد وفي مقدمتها الحرم النبوي الشريف ، والمدارس والمعاهد الخيرية وملاجي الاسعاف العام ثكنات لماوى الجنود واصطبلات لربط الخيول ، وحبس الانعام ، ومستودعات لادخار انواع الذخيرة وضروب الميرة . ولما انجلي الترك آخر الحرب الكبرى عن ربوع الشام ، اثاروا على سبيلات الاوقاف ووثائقها وادرافها الخطيرة وتقودها كما اثاروا على وثائق اغلب الدواوين وسجلاتها ونهبوا تقودها وفي عدادها اموال الينامي وامانات المصارف الزراعية فأصبحت دواوين الاوقاف من اجل هذا بمصيبة عظيمة .

\*\*\*

الاوقاف بعد العهد التركي } وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية ألف  
والى اليوم } ديوان الاوقاف تأليفاً جديداً ، ولم تلبث ان فاضت واردات الاوقاف عن نفقاتها لآل البالغ الباهظة التي كانت ترسل الى العاصمة التركية ظلت في خزانة الدائرة التي شرعت توسع على ارباب الشعائر وتحدث كثيراً من الوظائف . واخذت ترمم المساجد والمدارس والاعيان الموقوفة ونفسي المعاهد كالمدرسة السيمساطية بدمشق التي نقضت من اساسها وأنشئت خلفاً جديداً — ومثل ذلك الاصلاح الذي تم في ترميم الاعيان الموقوفة او ا إنشاء الجديد منها في حلب وغيرها — حتى اذا نقل صل ظل سلطان الملك فيصل واحتلت الجيوش



الفرنسية داخلية بلاد الشام أصيب ديوان الاوقاف بتبليبل مالي ، وذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية ، واتخاذ القرش السوري محور التعامل وحظر التبادل بالقددين الذهب والفضة قبضاً وصرقاً ، في حين ان الورقة السورية كميزان الحرارة لا تثبت على حالة واحدة في اليوم الواحد ، فارتبكت معاملات دواوين الاوقاف بهذا التبليبل وزاد في نضوب خزائنها على الرغم مما زاده القائمون بادارة شؤونها من زيادة الضمان الفاحشة على الديون المؤجلة .

وقضت إرادة المفوض السامي الاول الجنرال غورو ان يتدخل المنندوبون في الشؤون الاسلامية المحضة وذلك بالاشراف على اوقاف المسلمين دون اوقاف اليهود والنصارى ، في حين ان الدولة العثمانية الاسلامية لم تداخل بشؤون اوقاف اليهود والنصارى المنضوين تحت لوائها سواء أكان ذلك إبان قوتها ، ام ايام ضعفها ، وتركت إدارتها الى المجالس الطائفية كما ان الدولة البريطانية لم تداخل في مصر بشؤون الاوقاف الاسلامية فاستننت وزارة الأوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة وساطة المستشارين وتركتها مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة .

وقد نهجت ايضاً هذا النهج في فلسطين فتركت إدارة اوقاف المسلمين وجميع شؤونهم الدينية كتنفيذ القضاء الشرعي والفتيا والوعظ والإرشاد والخطابة والامامة الى مجلس ينتخب اعضاءه المسلمون يدعى بالمجلس الاسلامي الاعلى . اما في البلاد المشمولة بالاننداب الفرنسي فقد أنشئت المراقبة العامة على شكل مبتدع بين الاشكال الحكومية ، ووضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية . وكذلك يقال في مجلس الاوقاف الاسلامية التي قضت بتأليفه ففصلت بذلك دواوين الاوقاف الاسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية ، ووصلتها مباشرة بالمفوضية العليا ، وجعلت لها مستشاراً غير مسلم يتصرف في شؤونها الإدارية والمالية بسلطة واسعة . وكان من إحداث مراقبة الأوقاف إرهاب خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة ، ولم تأت بعمل يذكر مجارة لمقتضيات العمران والترقي الحديث استناداً الى قواعد الشريعة العامة التي يحظرون الاستنباط منها ، ذلك لان معظم اعضاء مجلس الاوقاف من اعداء التجدد وعشاق الاحتفاظ بالقديم وإبقائه على قدمه ، فقد نقضوا قرار مجلس رياسة العلماء

المنطوي على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التي لم تعد صالحة للإقامة الصلوات مع استناده الى مذهب الامام ابن حنبل بالشروط المنصوص عليها .

\* \* \*

وسائل اصلاح الاوقاف } ضيق بعض منقصة القرون الوسطى دائرة  
الشرعية الواسعة ، وقلبوا يسرها عسرا ،

ومردنتها صلابة ، وصوروها عقبة كؤوداً في سبيل الارتقاء والعمران ، بما ابتدعوه من القيود المنبثثة عن التجود ، وبما أقاموه من السدود المنيعة دون دخول منافذ ينابيع العلم ، وما سدوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل . كما ان فريفاً منهنس احتالوا على الشريعة فاختلقوا باسمها حيلاً نقلها رأساً على عقب ، اتياداً لاهواء العلماء والاغنياء بسائق الجشع وحب الجاه ، وافتاتوا على دين الفطرة بحشوا او دس ما نبيو عنه حكمته واصوله وفروعه التي ترمي جميعها الى السعادة البشرية في الدارين . فقد قيد المنتظمون بالتحريف والتشديد الوقف بقيود وشروط وحدود ، حالت دون ارتقاء الاوقاف وعمرانها ونمو ثروتها ، وقضت على حكمة الوقف وإرادة الواقفين ، كما ابتدع المحنلون حيلاً نجم عنها ضياع الاوقاف كالمصد وضروب الكردار حتى آل حال الاوقاف الى ما آل من المصير الفاجع .

وبعد فالواجب الآن على اهل الحل والمقد تأليف لجنة مختلطة من علماء الشريعة المجددين وعلماء الحقوق والإدارة والاقتصاد ، ليدون اعضاؤها مجموعة لاحكام الاوقاف الشرعية على نسق جديد ، معترفين من بحر الشريعة المحيط ، ومن كل مذهب من مذاهب الائمة المجتهدين ، ما هو أصلي وأصمن لسعادة الاوقاف وارتقائها وإثرائها وصيانتها من عبث العابثين ، واعتداء المعتدين ، وجمود الجامدين ، وما هو أكثر ملائمة لروح الزمان ، ومقتضيات العمران ، وفقاً لما يرمي اليه الشرع وقواعده العامة من ارتقاء الأصلح وترجيح الأحسن .

ثم ان الملحق بالشعائر الدينية نوعان وهما التدريس الخاص بالمدارس الدينية ، والإرشاد الدقيق في الزوايا الصوفية . اما الاول فهو تعليم العلماء تلامذتهم العلوم الدينية ووسائلها ؛ وجل هو لاء ان لم نقل كلهم متبرعون فلا تعلق والحال هذه



لدواوين الاوقاف بهم . وانما التذرع باصلاح أساليب تعليمهم واستئصال الفوضى الضاربة أطنابها في هذه المدارس وهذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كركنيس العلماء او شيخ الاسلام مثلاً . اما اذا وجدت وظيفة تدرّس خاص باحد العلوم في احدى المدارس باجر رتبة الواقف ، وكان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانة الاوقاف ، فان للدائرة حق النظر فاذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم اهليته فانه يعزل ، وان كان غير قائم بها كسلاً فانه ينذر . اما النوع الثاني وهو الارشاد الدقيق فقد أجذبت الزوايا الصوفية من التصوف بمعناه الصحيح ، وأقفرت من المرشدين الكاملين والمريدين الصادقين ، وأضحى مقر المشايخ الدجالين المعطلين ، والمريدين الكسالى العطلين . فأمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التي لم ينشئها الواقفون ليأوي اليها الضالون المضلون باسم التصوف والطرق الصوفية ، واذا كان لهم اوقاف يجب تحويلها الى مصارف البر والاحسان والاسعاف العام .

أشرنا الى ما انتاب الاعيان الموقوفة من الدرس والضمس والاختلاس سواء أكانت معابداً ام مدارس ام مقابر ام ملاجئ اسعاف ام عقارات موقوفة الربيع . وهذا النوع الاخير أضحى من المنعسر ان لم تقل من المنعذر اتقاذه من الاختلاس بعد مرور الزمن وعدم دلالة الظاهر عليه كدار كانت جارية بملك الوقف ، ثم لعبت بها الايدي ، فانتقلت من ملك الوقف الصرف الى ملك مخلصها المعتدي الاثيم . اما اذا لم يمض عليها مرور الزمن ، وكانت معلومة الحدود والبقعة ، فيجب حتماً على دواوين الاوقاف إقامة الدعوى على المخلص او ورثته ، كما يجب عليها التقيب على ما كان من هذا القبيل . والمرجع في الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية وكتب الواقفين . والواجب على دواوين الاوقاف الابعاز الى نظار الاوقاف الأهلية والخيرية الملحقة بابرار كتب الواقفين فيما اذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية وانذارهم بوضع اليد على الوقف اذا أبطأوا بالابرار . اما النوع الاول فهو أسهل اتقاذاً من العقارات الموقوفة الربيع ، لان ما اختلس من نحو المساجد او المدارس او المقابر وانقلب حوائث ماو دوراً او حدائق او غير ذلك وأضحى ملكاً صرفاً للمختلسين او ورثتهم او المتباعين منهم مضموسة ، لتبديل شكل المدرسة مثلاً بعد اختلاسها وطمس معالمها ، فان كانت

آثارها لا تزال قائمة كالقباب والقبور والحاريب فعلي دائرة الاوقاف التدرج بالوسائل القانونية لا لتفادها من المختلسين ، وان تبدل شكلها وهي رسمها ، وجهلت حدودها ، ومضى عليها مرور الزمن ، وانقطع الامل من إرجاعها فهي برقة مختلسها . ومصباح الهداية المنير الى المعابد والمعاهد المختلصة والمدارس والدارسة والمقابر المندرسه ، هو كتب تواريخ المدن الشامية والرسائل والاسفار الموضوعه في الخطط والآثار .

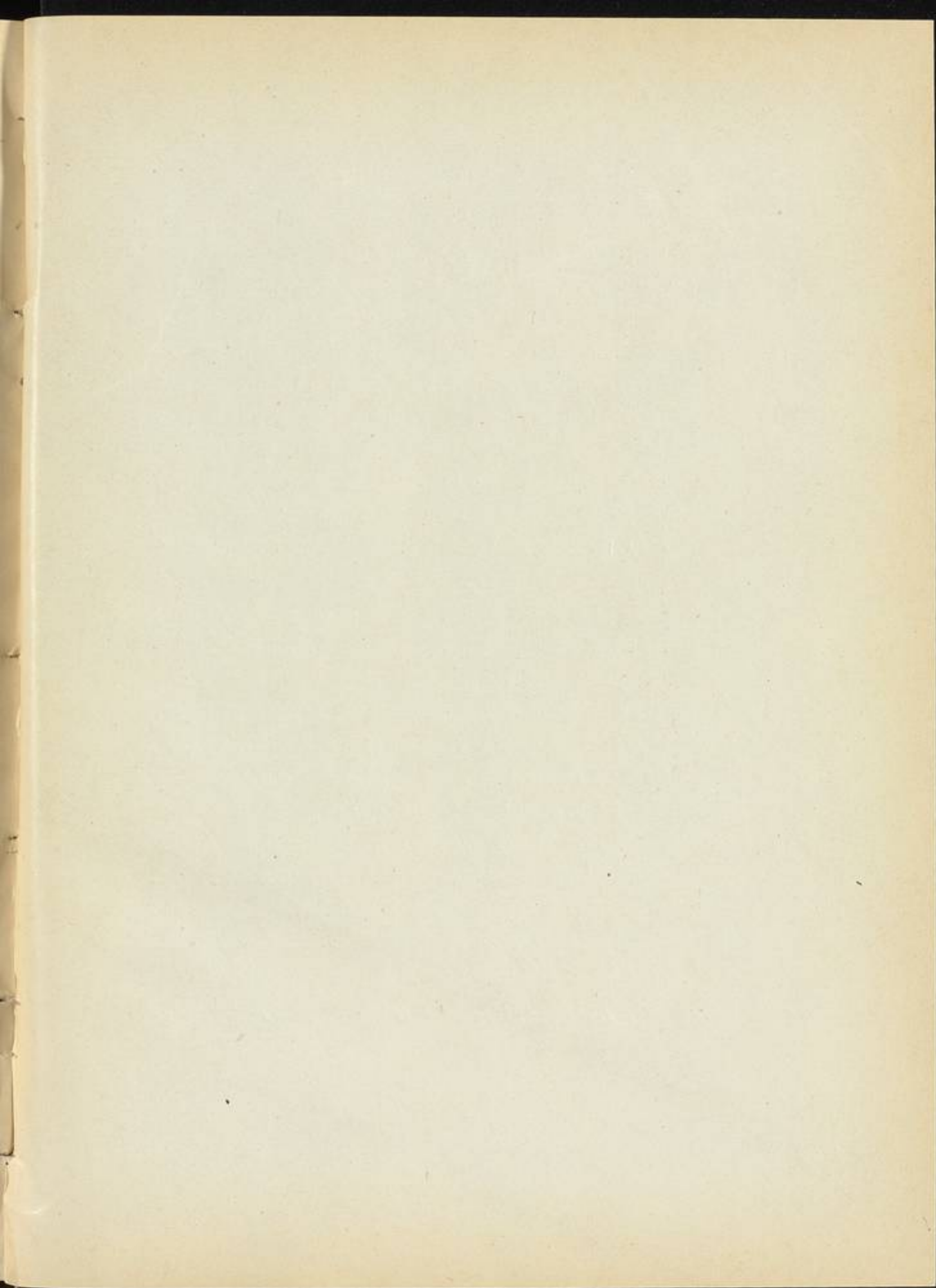
وما دعا الى هذا العبث باعيان الاوقاف وربعها الافقدان وازع بزغ القسامين بهم ، او مؤثر أدبي يردعهم ، او رأي عام يكبح جماحهم ، او مؤاخذة حكومة تضرب على أيديهم . ولم نسمع ولم نشهد في ربوعنا ان ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن او تعزير وتشهير او بتضمين ومصادرة ، بل جل ماشهدناه في عصرنا الحاضر ان الناظر الضعيف اذا ظهر اثناء محاسبته أدنى شبهة او خيانة ينفي عن العمل ويساق الى المحكمة الشرعية ، وهي اما ان تحكم بعزله ، واما ان تبرئ ساحته وهو الأغلب ، لان مؤثرات الشفاعة والحنان ونحوهما تعمل عملها . واما الناظر القوي فلا يسأل عما يفعل . وربما أعين على ظلمه وخيائنه واختلاسه مع التيجيل والتوقيير !

وإذا كتب لدواوين الاوقاف حظ من التجدد والاصلاح فالواجب ان تشرع بمحاسبة النظار ، نناقشهم الحساب ، فتبدأ بالاقوياء منهم ، وتغافل عليهم ، وتكرهم على إبراز كتاب الواقف الاصيل المسجل بحكم الحاكم الحالي من شائبات التحريف والتبديل ، الحالي بتوقيع او خاتم القاضي الحاكم بصحته ، فيما اذا فقدت سجلاته ، وان لا تعتبر الصورة المنقولة عن اصله لانها عرضة للتحريف والتبديل كما يقع ذلك من النظار الخائنين . واذا ابرز الناظر على وقف كتاب الوقف الاصيل يمثّر ديوان الاوقاف في الأغلب على موارد اموال غزيرة مختلصة ، وعلى مساجد ومعاهد دارسة ومدارس مندرسه ، كما يمثّر عرضاً وانفاقاً من يخفر بئر ماء على كنز ثمين او ركاز دفين ، واذا امتنع الناظر من إظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الاوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ما انقطع ثبوته ، واشتهت مصارفه ، وجهلت شرائطه ، لعدم وجوده في سجلات القضاة ، وما كان كذلك يتحول الى الاسعاف العام ما لم يبرهن المرتزقة على استحقاتهم باثبات الوقف وشروط الواقف ونسبتهم اليه او الى الطائفة الموقوف عليها .



واري ان تُعْطَى المفوضية العليا في بلاد الاندلس الفرنسي من التدخل باوقاف المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسي المستمد منها نفوذه مباشرة ، فانه لا فرق بين هذا التدخل وبين التدخل بشؤون الصلاة والزكاة والصيام والحج لان الولاية على الاوقاف الخيرية ولا سيما الدينية المحضة هي من القضايا الشرعية الصرفة ، فلا فرق والحال هذه في الحظر بين إمامة النصارى المسلمين بالصلاة ، وبين ولايته على اوقاف مساجد ومعابدهم . وهذا الحظر غير محصور على الاسلام بل هو من ضروريات جميع الديانات فان النصرانية مثلاً تحظر ان يتعاطى اُحبار المسلمين ومشايخهم ما يتعاطاه أساقفة النصارى وقسيسوهم من التعميد والتكليل والتكريس والحرمات والعقوبات ، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على اوقاف كنائس النصارى المثلثين وأديارهم . وهذا سر إجماع الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل باوقاف اليهود والنصارى من رعاياها وتركها ادارة اوقافهم والولاية عليها لمجالسهم الطائفية . فالواجب على حكومة الجمهورية الافرنسية الفخمة ان تترك المسلمين في هذه الديار طلقاء التصرف في اوقافهم وتقتصر عنايتهم على الإرشاد في الشؤون المدنية .

ولا أجنح بته الى رأي من يقول بالغاء دواوين الاوقاف الحكومية وإناطة الولاية على الاوقاف الاسلامية بمجلس اسلامي أهلي ينتخبه الاهلون على منوال مجلس اوقاف فلسطين ، لان المجالس الاهلية معها بلغت من النظام والانظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤولة والمؤاخذة قانوناً على الكبيرة والصغيرة . وليسع التسام مايسع مصر والعراق . ومن رأيي ان تربط ادارة الاوقاف بالحكومات المحلية ويجعل لها ديوان خاص يعد في جملة دواوينها . اما اوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة إناطة إدارتها بالمجلس الاسلامي الأهلي . لان البلاد محكومة حكماً مباشراً ، بيد انه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق والتخاذل بين الفلسطينيين ما انقسم الناس في الحكم عليه الى مادح وقادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضاربة . اما شرقي الأردن او حكومة الشرقي العربي فانها مليئة باوقافها التي اثنائها ما انتاب اوقاف بقية الأقاليم من الاختلاس في القرون المظلمة ، ولعل الحكومة تؤسس فيها ديوان اوقاف يشرف على ما في صقعها من معاهد وقف ووقوف محبوسة الربيع اه .





## الحسبة والبلديات

— ٢٠٠ —

العرب دعاة مدنية } لم تقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة  
لأعصارهم ، فاستنبطوا بعقولهم ، وطبقوا على  
شسر يعتمهم ، كل ما يعلي امرهم ، ويدفع عادية الفوضى عن مجتمعاتهم . وكما ارتقت  
حضارة الغرب ، ونوفر العاملون من أبنائه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية  
العربية الاسلامية ، تجلي لنا امور ما كنا نحن أصحاب تلك المدنية نعلمها ونعمل بها من  
قبل . انتقلت المدنية الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام  
بما فيه من العوامل القوية ، والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول  
من روح الكتاب والسنة ، باجمل مدنية عرفها البشر اذ ذلك ، وما نظنه مها ارتقى  
في الأزمان التالية يخرج عن حدتها كثيراً . ونظام العقل نظامه في كل  
دور وطور .

لم يترك العرب باباً من أبواب المدنية الا طرقوه ، ولا علماً من علوم الصناعات  
الا برزوا فيه وعانوه . ولقد تجلت مدنياتهم باجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر  
والشام والاندلس أكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام ، وكانت العرب  
أساندة أبنائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار ، على أسس  
مدنيات قديمة كان من أول الدواعي الى تجويد مدنياتهم ، ورفع شأنها بين الأمصار  
على اختلاف القرون والاعصار ، وللأقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول ،  
ونبذ الجود ومنابهة الجمول ، وتعويد القرائح الإبداع والاختراع .

ضاعت او كادت وآسفاه أوضاع مديننا القديمة ومشخصاتها ، لان العرب تمزقوا  
وئفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم ، كانوا دونهم في سلامة الذوق  
وجودة الفطرة ، فأفسدوا أخلاقهم بإحمولهم اليهم من عاداتهم وتقاليدهم المختلفة ، حتى  
أوصلهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر  
وخير الدين باشا في تونس ومدحت في الشام والعراق لاصمحل عمرانهم وباد سلطانهم  
الاقليلاً .

\*\*\*

تعريف الحسبة } وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات  
الاسلامية السالفة ، يعلم ان أجدادنا هيأوا لمذنبهم  
وسكانها جميع ضرور الراحة والهناء ، وحاولوا ان يبعدوا عنها ما أمكن الجور والشقاء .  
والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله ، نقول  
فعلته حسبة وأحسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر . وكانت الحسبة  
وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم  
بامور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان  
على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على  
المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الخمايين واهل  
السنن من الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها ، وإزالة ما يتوقع  
من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها ، من الإبلاغ  
في ضررهم للصبيان المتعلمين - قاله ابن خلدون .

وقال ابن تيمية : وبنو آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض ، واذا اجتمع  
اثنتان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما ائثار بامر ، وثناء عن امر ، وادب الامر أصحاب  
الامر ، وذوو القدرة واهل العلم والكلام . فلهذا كانت اولو الامر صنفين العلماء  
والامراء ، فاذا صلحوا صلح الناس ، واذا فسدوا فسد الناس . كما قال ابو بكر  
الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سألته ما بقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت



لكم أمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فإنه من اولي الامر .

وقال ابن الأخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية ، وقد كان أئمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها ، وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله ، واصلاح بين الناس ، والمحاسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية ، والكشف عن امورهم ومصالحهم ، وبيعاتهم وما كوطم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرفاتهم ، وأمرهم بالمعروف وتمهيمهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقنن ص ٣٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من تسند اليه الا من وجوه المستلين ، وأعيان المعدلين ، ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته اذا رآها ، والولاية تشد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة أقسام : احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى ، والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين ، والثالث ما يكون مشتركاً بينهما . ويمكن ان تقسم الحسبة الى دينية ومدنية ، فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعويض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية ، وبقية الحسبة معروفة في مصر الى أواسط القرن الثالث عشر . ومصر آخر ما اضمحل من أقطار العرب وادل من نهض .

\*\*\*

الحسبة تجمع الشرطة } فالحسبة والحالة هذه أشبه بديوان الشرطة  
والصحة والبلدية وعملها } والصحة والبلديات لعهدنا ، وكان المحتسب  
او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ، ويجازي عليها في الحال ،  
فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الأسواق ، ويشدد على السوق والباعة  
في صحة القناطر والأرطال والمتاقيل والدرام والموازين والمكاييل والأذرع ،  
ويجري قواعد الحسبة على المحانين والعلافين والفرائين والخبازين والشوائين

والنقائقيين<sup>(١)</sup> والكبوديين والبواريين والجزاريين والرواسيين والطباخين والشرايين  
والهراسيين وقلائي السمك والزلايسة والحلاويين والشرايين والعتارين والشماعين  
واللبانيين والبزازيين والدلالين والحاكمة والخياطيين والرفائين والقصارين والحريريين  
والصباغين والقطنيين والكتانين والصباف والصاغة والنحاسيين والحدادين والاساكفة  
والبيطرة وسماصرة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسداريين<sup>(٢)</sup>  
والنصادين والحماميين والاطباء والكحاليين والمجبرين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين  
والوعاظ والمنجمين وعلى أصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخرف والكيزان  
والفاخرانيين والغضاريين<sup>(٣)</sup> والاباريين والمسلاتيين والمراديين<sup>(٤)</sup> والحناويين  
والامشاطيين وعلى معاصر السيرج والزيت الحار والغرابيين والدباغين والبططيين<sup>(٥)</sup>  
واللبوديين والحصريين والتبانيين والخشابين والقشاشيين والنجارين والنشاريين والبنائين  
الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات ، وتدليس ارباب الصناعات والبياعات .

\* \* \*

الحسبة قانون مدني } وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها  
اراقة الخمر كلها وكسر المعازف واصلاح  
الشوارع ، وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاوحال والارداغ  
والدكانجة (?) على الباب ، ومنع جلوس الباعة عليها ، ومنع سوق الحجر والبقر للخشابين  
والاجر بين ونحوهم ، ومنع ربط الناس دوابهم فيها ، ومنع عمارة الحيطان في شي  
من الشوارع ، ومنع شغل هواء الشوارع بالجناح ويسمى ( برون دشت ) ، ومنع

(١) النقائقيون هم الذين يعملون النقائقي اي المصير المحشو باللحم والقلوب .  
(٢) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولا  
ينفع . (٣) الفاخرانيون والغضاريون وهم الذين يصنعون الصحف ( الزبادي او  
السلطانيات ) . (٤) المرادنيون الذين يعملون المرادن ، آلات الغزل القديمة ، تعمل  
من خشب السامم او من السنط الاحمر . والمسلاتيون صناعات المسلات : (٥) البططيون  
كانها نسبة الى بطة والجمع بطط وبطة الدهن قارورته .



المبرز في الجوار ، بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ، ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح ، مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة ، كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك ، كغصب قطعة من الارض ، ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعابين ، وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ، ومنع النساء عن التشبه بالرجال .

وامر الذبولين<sup>(١)</sup> بطهارة مائهم وثقية أورتهم عن الحصة ، ومنع الناس عن تطهير الحمام ، ومنع البغايا وتعزيرهن ، ومنع أوليائهن ومواليهن وأزواجهن ، وامر غير المسلمين بتطهير الأواني التي يبيعون فيها المائعات كالدهن واللبن ، وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى ، وحفر القبور والحمل ، وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ، ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور ، وتفحص الجامع يوم الجمعة ، والمصلي يوم العيدين ، وإخلاقهما عن البيع والشراء ، ومنع الفقراء عن التخطي ، ومنع القصاص عن القصاص المقررة ، ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ، ومنع الصبيان والمجانين منه ، ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور ، والنهي عن الفحش والامر بالتنظيف ، ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدث الرجال مع النساء في الشوارع ، ومنع النقاشين والصباعين والصواعين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح<sup>(٢)</sup> وكبر الصور ، ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الأصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبخنج<sup>(٣)</sup> .

ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة ، وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد ، على مشابهة الخروج الى الحج ، ومنع النساء عن التبرج والتفرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ، ومنع الناس عن التصرفات في المقابر بلا ملك ،

(١) التامول التانبول ضرب من اليقطين الهندي طعم ورقه كالقرنفل يمضغونه بقليل من كلس وهو مشه مطرب باهي مقو للثة والمعدة والكبد وهو خمر الهند يمازج العقل قليلاً . والنبولي بائع النبل . ولكن لا معنى للنورة مع النبول . (٢) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها . (٣) البخنج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية مبيخته .

ومنع المطلسة والسحار والكهان عن بدعهم ، ونهي أصحاب الحمامات عن منكراتهم ،  
بتطهير المياه وإخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه ، وأمرهم بالتخاذ الحجب بين  
الرجال والنساء ، ومنع الناس عن تعلم علم النجيم مما لا يحتاج اليه في الدين ، وتصديق  
الناس الكهان والنجمين ، ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ، ومنع الناس للعاينين  
بالترد والشطرنج ، وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتأثيلهم ، ومنع القوابل عن إسقاط  
جنين الحوامل ، ومنع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس ، ومنع الناس من  
الإقامة في المساجد ووضع الأمتعة فيها ، ومنع الذي أصابه اللحم عن التكلم بالغيب ،  
واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في إخباره بالغيب ، ومنع الخطاط ومعلم القرآن  
ومعلم النحو بأجر عن الجلوس في المساجد ، ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النيروز  
والمهرجان ، وينذر المحتسب معلمي الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في  
مقتل ، وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التعرير باولاد الناس ، ويقفون من كان سيء  
المعاملة فينهونه بالردع والأدب .

\* \* \*

عمل المحتسب } وكانت وظائف المحتسب تزيد وتقص بحسب البلد ،  
بحسب البلد } ولا يعدو عمل المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل  
مجتمع . فالحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق  
مثلاً . ففي بيروت يُعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصير والبوري  
وقلائي السمك والطيور وصيديهما ، ونجاري المراكب وتقديرات المراكب . وجميع  
المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والأشربة والمعاجين والقلائد  
والخرازين وصناع الشرك والأسكفة وصناع الخفاف وصناعة السرايات والزفاتين  
والنحاتين والدهانين وغشهم والكمكارين وغشهم وكساجي السجاد وحمالته والغرايل  
ومناخل الشعر والوراقين والمبهرجين ، وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع  
والدروج وكتاب الشروط ، والولاة والقضاة وتديسهم ، والميازيب ومضرتها والمراصد  
والمراقب وطباخي الولايم والحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان  
يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .



وذكر السبكي ان على المحتسب النظر في القوت وكف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه من ذلك والاحتراز في المشروب ، فلطالما أوهم الخمار انه فقاعي او اقسماوي<sup>(١)</sup> والمالول ، وطالما أوهم الطباخ ان لحم الكلاب لحم ضأن فليثق الله ربه ولا يكن شيء في إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث ، ويحرم عليه التسمير في كل وقت على الصحيح ، وقيل يجوز في زمن الغلاء وقيل يجوز اذا لم يكن مجلوباً ، بل كان يزرع في البلد وكان عند الشتاء . واذا سعر الإمام اتقاد الرعية لحكمه ، ومن خالفه استحق التعزير . ومن مهات المحتسب ولا سيما في بلاد الشام امران ان يبطا به احدهما النقود من الذهب والفضة المضروبين . ولا يخفى ان في زغها هلاك أموال البشر فعليه اعتبار العيار في محك النظر والنثبت في سكة المسلمين ، وثانيها المياه فعليه الاحتراز في سيقها وقد جرت عادة أناس في الشام ان يشتري بعضهم قدر معلوماً من نهر ثورا وباناس مثلاً ويخيل لصحته بان يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء وهو كذا أصعباً ، ثم يسوقه ويحمله على مياه الناس يرضي طائفة يسيرة منهم . وكان الشيخ الامام رحمه الله يشدد التنكير في هذا وله كتاب فيه سماه (الكلام على أنهار دمشق) . والحاصل ان الخلق في أنهار دمشق سواء يقدم الاعلا منهم فالاعلا ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره ولا يفيد رضى القوم ولا كلهم لانهم لا يملكون الا الانتفاع ، بل ولا رضى اهل الشام بحملتهم لان رضاهم لا يكون رضا من بعدهم من يحدث من الخلق اه .

\* \* \*

ثلاثة آراء في الحسبة  
 وليس هذا كل ما يُطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ايضاً . ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد أنشأه لمنصب الحسبة : . . . . . واعلم ان الناس قد أماتوا سنناً وأحيوا بدعاً ، وفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيئاً ، وأظلم منهم من أقرهم على أمرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها

(١) الاقسماوي بائع السويق او المتلجات ولم نعرف المالول .

كلاماً باتيانها ، ولم يأت بنسأ الله الا ليعيد الدين قائماً على اصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك ان أنصفح أحوال الناس في أمر دينهم ، الذي هو عصمة مالم ، وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ أولاً بالنظر في العقائد ، واحد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواظب الحق فأقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا أدياناً ، وعبدوا من الاهواء أوثاناً ، واتبعوا مالم ينزل به الله سلطاناً ، ولونشاء لأربنا كهم فلعرفتهم بسياهم ولتعرفتهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فماتكدرت الشرائع بمثل مقلته ، ولا تدنس علومها بمثل أثر جهالته ، والمنتقي اليها يعرف بنكره ، ويستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظهر زياتها وتقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار ، وما يجده من كتبها التي هي سمو نافعة ، لا علوم نافعة ، وافاعي ملقفة ، لأقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله باهلها من التحريق ، ولا يقنعك ذلك حتى تهتد في نفع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهاراً ، ولينكل بها إشهاراً ، وليقل هذا جزاء من استكبر استكباراً ، ولم يرج لله وقاراً ٠٠٠٠

ومن أجمل التقاليد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور ان تصرف أعنة العناية الى ترتيب نظامه ، وتقصير غايات العهم عن تنمية إتمامه ، امر يتعلق به ثبات الدين ، وبنعطف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فان فيه تثقيب الزائفين عن الحق ، وتأديب المنهمكين في الفسق ، وتقوية أعضاء أرباب الشرع وسواعدها ، واجراء أعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، وبنبغي ان يكون منقلد هذا الامر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد الريب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب ، لابساً مدارع السداد ، سالكاً مناهج الرشاد ٠٠٠٠ وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ، والتقوى دثاره والعلم معلمه والدين مناره ، ثم بأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، و يقيم حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار ، ومقتضى السنن والآثار ، من غير ان يتسور الحيطان ،



ويتسلى الجدران، ويرفع الحجب المسدولة، ويكسر الابواب المسدودة، ويسلط الاوباش على دور المسلمين وحرَم المؤمنين، حتى يغيروا على اموالهم، ويمدوا الايدي الى عوراتهم وأطفالهم، ويظهروا ما أمر الله بستره وإخفائه، ونهى عن اشاعته وافشائه، فان عبادة الاوثان خير من ذلك الاحتساب، والعقوبة الابدية أولى بمباشرة من الاجر والثواب.

وقال ابن فضل الله في وصية محتسب: وقد ولي امر هذه الرتبة، ووكل اليه النظر في مصالح المسلمين حسبة لله، فلينظر في الدقيق والجليل، والكثير والقليل، وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر، وما يشتري وبياع، وما يقرب بتقريره الى الجنة وبعد عن النار، ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها الا قدر باع او ذراع، وكل ما يعمل من المعاش في نهار اوليل، وما لا يعرف قدره الا اذا نطق لسان الميزان او تكلم فم الكيل، ولا يعمل لديه معدلاً لكل عمل، وعياراً اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل، وليتفقد اكثر هذه الاسباب، ويحذر من الغش فان الداء اكثره من الطعام والشراب، وليتعرف الاسعار ويستعلم الاخبار، في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار، ليقيم عليهم من الامناء من ينوب عنه في النظر، ويضمن به وان غاب اذا حضر، وبأمره باعلامه بما أعضل، ومراجعتهم بما أمكن فان رأيت مثله أفضل، ودار الضرب والتفود التي منها ثبت، وقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث، فليتصد لها بصدرة الذي لا يخرج، وليعرض منها على الخك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضة ويخرج، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه ويقم عليه من جهته الرقباء، وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء، وليقم الضمان على العطارين والطارقية في بيع غرائب العقاقير الايمن لا يستراب فيه وهو معروف ويحظ مطب ماهر لمريض معين في دواء موصوف، والطارقية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسان، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة وياكلهم باللسان وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لانسان، امنعهم كل المنع واصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينجر له صدع وصب عليهم النكال والا فماتجدي في تأديبهم أداة التأديب والصفع، واحسم كل هذه المواد الخبيثة واقطع ما يجر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرثيثة، ومن وجدته قد عث مسلماً او اكل بباطل

درهما ، أو أخبر مشير بزائد أو خرج عن معهود العوائد ، أشهره في البلد واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد ، وغير هؤلاء ، من فقهاء المكاتب وعلامات النساء وغيرهما من الأنواع من يخاف من ذئبه العائث في سرب الظباء والجآذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر ، وارشقتهم بسهامك وزلزل أقدامهم بأقدامك ، ولاندع منهم الا من جربت أمانته واختبرت صيانته ، والنواب لا ترضى منهم الا من يحسن نفاذاً ويحسب لك اجر استنابته اذ انيل لك من استنبت فقلت هذا . وثقوى الله هي نعم المسالك ، ومالك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

\* \* \*

الحاجة والحسبة } ولقد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة  
امن واليوم } بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل  
كل بلد لا تتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة  
العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنىً وضمناً اذا لم  
يتضامنوا هلكوا وهيبت ان تتم للفرد فيه سعادة لا تتناول المجموع . والغالب ان  
قانون الاحتساب كان يسد حاجات المجتمعات في هذه الديار . نعم ان تلك الاوضاع  
قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال ،  
وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدينة اليها ، ولكن  
ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة  
آخذة برقاب المنافع ، دافعة أعناق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل  
في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به أهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا  
فسبحان الملهم العظيم .

\* \* \*

تأسيس البلديات (١) } يبدأ عهد الاصلاح في الدولة العثمانية من تاريخ  
اعلان المنشور السلطاني الصادر في غرة جمادى

(١) كتب فصل البلديات بقلم الاداري القانوني السيد امين الحشيمي .



الآخرة سنة ١٢٧٢ وفيه القواعد الأساسية التي بني عليها ذلك الاصلاح في الشؤون المختلفة ، وفي جملة المعاهد التي أنشئت ، المجالس البلدية التي أحدثت عقب صدور المرسوم المذكور ودرضع لها نظام خاص جرى فيه تعديل بحسب الاحوال .

فان النظام المؤرخ بيوم ٢٣ ربيع الاول سنة ١٢٨٤ الذي يجوي في مطاوبه اصول تأليف المجالس البلدية في مراكز الولايات والألوية والاقضية ، قد جرى تعديله فيما بعد كما هو مصرح بذلك في الفصل السابع من قانون ادارة الولايات العمومية المؤرخ بـ ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ و٩ كانون الثاني سنة ٢٨٦ ، ويقضي هذا القانون باحداث مجلس بلدي في كل مركز من مراكز الولاية والمتصرفين وقوام المقامات مؤلف من ستة أعضاء ومن رئيس ومعاون ومن طبيب البلدة والمهندس بصفتها عضوين مشاورين و كاتب ومحاسب موظفين . و ينص بان هيأت المختارين ( العمدة ) والشيوخ في المراكز المبحوث عنها هي التي يحق لها انتخاب الاعضاء للمجالس البلدية من ذوي الكفاءة بانفاق الكلمة او باكثرية الآراء ، وان الحكومة المحلية تصادق على انتخابهم ونصيبهم . اما نصب الرئيس فيجب ان يقره المتصرف والوالي ايضاً ، واما الرئيس والاعضاء فيخدمون مجاناً بلا راتب ، والكاتب والمحاسب يخصص لهما راتب من ربح البلدية ويربط المحاسب بكفالة معتبرة .

وان المجالس يجتمع مرتين في الاسبوع وينظر في وظائفه المعينة في القانون وأهمها القضايا المتعلقة بانشاء الابنية وفتح الطرق وتوسيع الجادات والأزقة والشوارع وتنظيف البلدة ونظورها ومراقبة الأوزان والمكاييل وتعديل الاجور والأسعار وتنظيم مجاري مياه الشرب وقنوات المياه المألحة وغير ذلك من الشؤون التي تنفع البلدة في عامة شؤونها .

ثم صدر قانون البلديات المؤرخ في ٢٧ رمضان سنة ١٢٩٤ فعدل كثيراً من مواد الأنظمة السابقة وزاد في اختصاص المجلس والرئيس وغير طريقة الانتخاب فبعد ان كانت منحصره في الهيأت المؤلفة من المختارين وأعضاء مجالسهم أصبحت شاملة أفراد الامة الذين توفرت فيهم الشروط القانونية وأصبح لكل واحد منهم حق

الاشتراك في الانتخاب بحيث يمكنه ان يكون ناخباً او منتخباً حسب الشروط المتوفرة فيه وزاد في تحسين حالة الدخل وتوفير منابه وانظام جبايته .

ومنح هذا القانون مجالس الادارة في المدن الكبيرة . حق تقسيم هذه المدن الى دوائر متعددة بحسب سعتها ووفرة سكانها وتأليف مجلس بلدي في كل دائرة منها على ان يراعى عدد السكان فلا يقل عن اربعين الفاً في كل دائرة . وأناط بالبلدية وظائف عديدة فوق تلك الوظائف فعهد اليها إصلاح المدينة وترقية شؤونها من كل الوجوه العمرانية والصحية والأخلاقية .

وأوجب الزيادة في عدد الاعضاء فجعلوا اثني عشر عضواً بعد ان كانوا ستة أعضاء فقط على ان تكون تلك الزيادة بنسبة عدد السكان واتساع المحل . وخول الحكومة المحلية حق تعيين الرئيس من الأعضاء المنتخبين براتب يتقاضاه من واردات البلدية واما الأعضاء فنبقون بلا راتب كما في السابق على ان يبدل نصفهم في كل سنتين . ثم جرى تعديل هذه المادة بشأن الرئيس فنقرر ان تختار الحكومة لرئاسة البلدية من شاءت من ذوي المقدرة واللياقة سواء كان من الاعضاء المنتخبين او من غيرهم ولكنها بعد التجربة عدلت عن هذه الطريقة وأرجعت المادة الى أصلها .

وفي قانون البلديات ان كل فرد من أفراد الدولة اذا كان يؤدي مائة قرش خراجاً وهو في سن العشرين وغير محكوم عليه بجناية يحق له ان يشارك في انتخاب أعضاء البلدية . واذا كان يدفع مائة وخمسين قرشاً خراجاً وكان عمره خمسا وعشرين سنة وكان غير محكوم عليه بالحبس مدة سنة او بجزاء آخر يعادله وغير تابع لحكومة أجنبية او مستخدم عند احد او في مجلس بلدي آخر او متعهد او كفيل للمتعهدين في دوائر البلدية وكان غير جندي او حاكم في المدينة او القصة فيحق له ان ينتخب عضواً في البلدية .

وفي هذا القانون ان واردات البلدية عبارة عن الرسوم والضرائب المخصصة لها باذن سلطاني وعن أثمان الفضلات الحاصلة من توسيع الطرق وفتح الشوارع وغيرها وعن الرسوم التي يجب استيفاؤها من أصحاب الاملاك الذين يستفيدون من فتح الجادات والشوارع بسبب التحسن والترقي في عقاراتهم وأملأهم من شرف الموقع



وإحداث البنايات وفقاً لأساليب العمران على الطرز الجديد ومن الجزاء النقدي ورسوم القنطار والكيل والوزن ورسوم الذبجية ورسوم المقاولات المعقودة بشأن الايجار والاستئجار ورسوم الحيوانات المباعة ضمن حدود البلدية .

وقد خصص للتنوير والتنظيف عشرون في المئة من خراج العقارات والمسقفات وعشرة في المئة من التمتع وهناك رسوم أخرى للبلدية مثل رسم الرخصة عن الأبنية المتشأة حديثاً او المراد ترميمها وترميمها وعن الألعاب المرتبة في المقاصف ومحلات اللهو والطرب ومثل رسم الحجلات والدواب المعدة للركوب والنقل وغير ذلك من الرسوم المتروكة للبلدية ، ومن الهبات والتبرعات ايضاً . وأهم الرسوم المخصصة للبلدية رسم الدخولية المعروف برسم ( الاوكتروا ) فانه بالنظر لتنوع موارده يكاد يكون الدعامة القوية في اصلاحات البلدية .

ونص قانون البلديات المنوه به على وجوب مراقبة الدخل والصرف وتنظيم الموازنة العمومية في كل سنة بصورة سالمة من الشوائب والنواقص ، وقضى بتأليف لجنة من أعضاء المجلس الإداري وأعضاء المجلس البلدي مرتين في السنة تحت عنوان الجمعية البلدية . ويحتم على الجمعية المذكورة ان تلتزم في نيسان من كل سنة فتنظر في نفقات البلدية عن السنة السابقة وفي حساباتها وأعمالها العامة ثم تصادق عليها وان تجتمع مرة أخرى في تشرين الثاني من تلك السنة فننظم الموازنة العامة للسنة القادمة وتدقق في الأعمال والشؤون التي يجب اجراؤها في السنة المذكورة . ومنح الجمعية المبحوث عنها حق التعديل في أنظمة البلدية والتدقيق - في أحوالها العمومية على ان ترفع مقرراتها بما يتعلق بالتعديل والاصلاح الى المجالس العمومية في مراكز الولايات .

ولما كان توسيع الطرق وتعبدها وفتح الجادات والشوارع واحداث الأرصفة واصلاح مجاري المياه والجداول وتنظيمها وانشاء المدارس والمستشفيات العمومية والشكنات والمعامل والقيام بجميع الأعمال المفيدة التي يشمل نفقها السكان على اختلاف طبقاتهم يتوقف على اطلاق يد البلدية في استملاك الأراضي والبنايات اللازمة للإصلاحات المنوه بها فان قانون الاستملاك المؤرخ في ٢١ جمادى الاولى

سنة ١٢٩٦ والمعدل بقوانين وأنظمة أخرى قد منح البلديات حق الاستملاك في جميع الاراضي والعقارات بمقابل بدلات معتدلة تقدرها لجان مؤلفة من مخمسين محلقيين من ذوي الخبرة والنزاهة تبعاً لاصول نص عليها القانون المذكور . وهذه الوساطة قد زادت أعمال البلديات تحسیناً والقانناً وأكسبتها رونقاً وبها فأصبحت موافقة لأساليب العمران ومنطبقة على قواعد الهندسة والفن وحفظت لاصحاب الأملاك والاراضي حقوقهم من الضياع أيضاً .

\*\*\*

النظام الجديد } وأخيراً وضع رئيس الدولة السورية قراراً مؤرخاً في ١٠  
 حزيران سنة ٩٢٥ بشأن تأسيس البلديات في المدن  
 التي لا يتجاوز عدد أهاليها عشرة آلاف شخص فغير هذا القرار بعض أحكام القوانين السابقة . وقد نص فيه على ان المدن التي يتجاوز عدد أهاليها مئة الف نفس تؤلف مجالسها البلدية من عشرة أعضاء ينتخبهم الاهالي وعضوين يعينها وزير الداخلية باقتراح الوالي او المتصرف . وان المدن التي يبلغ عدد أهاليها بين خمسين الفاً ومئة الف ، تؤلف مجالسها من ثمانية أعضاء ينتخبهم الاهالي وعضوين يعينها وزير الداخلية باقتراح الوالي او المتصرف . والمدن التي لا يتجاوز عدد سكانها خمسين الفاً تؤلف مجالسها من ستة أعضاء منتخبين واثنين ينصبهم وزير الداخلية .

ونص أيضاً على ان المجلس البلدي يجتمع حتماً يوم الخميس من كل اسبوع ويجتمع فوق ذلك بدعوة من ممثل الدولة المندوبة او رئيس الحكومة السورية او وزير الداخلية او مستشار البلدية وفي الأحوال المستعجلة يجتمع بدعوة من رئيس البلدية او يطلب من نصف أعضاء المجلس بالأقل .

ونص على كيفية عقد الجلسات والمذاكرة بشأن القضايا المحالة الى المجلس البلدي وتدوين المقررات الصادرة منه بذلك الخصوص وقد فتح سنسشار البلدية او المفتش حق حضور الجلسات وابداء رأيها اثناء المذاكرة وجعل اللغتين العربية والفرنسية رسميتين وأوجب تسطير المحضر باللغة العربية وباللغتين معاً كما سمحت الأحوال . وأجاز هذا القرار لرئيس الدولة حل المجلس البلدي بقرار منه وباقتراح وزير



الداخلية واشترط موافقة المفوض السامي على ذلك الحل ثم ذكر الاسباب الموجبة للحل كما يأتي : (١) اهمال المجلس واجباته المنصوص عليها في القرار المذكور بعد ان يمر على تبليغه (٤٨) ساعة . (٢) مخالفته أحكام المادة ٢٣ من هذا القرار التي تحظر عليه المذاكرة في موضوع خارج عن سلطته او في موضوع لم يذكر في برنامج أعمال الجلسة . والمذاكرة ايضاً في قضية عقد عليها قرار يتعلق بمصلحة بعض الأعضاء الذين اشتركوا في الجلسة ، والمذاكرة باذاعة نشرات او خطب وابداء أمان لها صبغة سياسية او دينية تتعلق بالادارة العامة . (٣) اهماله المناقشة في احدي القضايا المسجلة بصورة نظامية في بيان أعمال الجلسة الاولى خلال اربع جلسات متوالية . (٤) نقص عدد الأعضاء الى درجة لم يتمكن معها في اربع جلسات متوالية من ادراك النصاب القانوني .

ونص القرار على تأليف لجنة خاصة بقرار من رئيس الدولة تضم خمسة أعضاء للقيام بوظائف المجلس الذي يكون حله قد تم وفقاً للأحكام السابقة ، وصرح بان يجوز تعيين اثنين أجنبيين من دافعي الضرائب في اللجنة المذكورة ، وان هذه اللجنة تقوم بعامة وظائف المجلس ، وانه يُشرع بانتخابات جديدة متى ساعدت الحال على ذلك ، ويُعين تاريخ اجرائها بقرار من رئيس الدولة .

ونص القرار على وظائف المجلس البلدي فجعل انفاذ المقررات المتضمنة للوظائف المذكورة متوقفاً على تصديق وزارة الداخلية وانفاذ غيرها من المقررات مناطاً بوضع اشارة عليها من المستشار . والوظائف المهمة هي : تنظيم الموازنة ، التعديل في تقدير الرسوم ومشتري عقارات يزيد مجموع قيمتها عن عشر واردات البلدية ووضع ضرائب استثنائية وعقد قروض ( لا بد في هذه من الحصول على اذن المفوض السامي ) وبيع أملاك البلدية او مبادلتها وترتيب درجات الشوارع والساحات وتزيينها ، وتحديد الاماكن العامة وتوسيعها او ابطالها ، وإحداث ساحات للاسواق وللصيد والسباق في المواسم وغير ذلك .

وصرح بان هذه المقررات ترفع الى وزارة الداخلية ، فاذا لم يُبد الوزير رأيه

بشأنها خلال ثلاثين يوماً من تاريخ الوصل المعطى منه يحق حينئذ للمجلس البلدي انفاذ أحكامها وإذا رفض الوزير الموافقة عليها خلال تلك المدة فإن للمجلس البلدي حق تمييزها الى مجلس الشورى ويكون قراره بشأنها مبرماً .

وقد نص ذلك القرار على انه يعين عضو من أعضاء المجلس البلدي رئيساً للبلدية بقرار من رئيس الدولة و بالاستناد الى اقتراح وزير الداخلية .

ثم ان القرار بصرح بان الرئيس يُعين لمدة سنة وانه يمكن تجديد تعيينه لسنة أخرى بعد انقضاء مدة الرئاسة . وانه اذا تغيب الرئيس او وجد سبب آخر يمنعه من الحضور فان اكبر الاعضاء سنّاً يقوم مقامه في جميع وظائفه ، واذ تجاوزت مدة غيابه او مدة السبب المانع من حضوره خمسة عشر يوماً فيعين حينئذ وكيل الرئيس بقرار من رئيس الحكومة بناءً على اقتراح وزير الداخلية . واما عزل الرئيس او نفيته عن العمل فلا يكون الا بقرار من رئيس الدولة مبني على اقتراح وزير الداخلية ومصادق عليه من المفوض السامي بشرط ان يحوي الاسباب الموجبة للنفي او منعه .

ويتقاضى رئيس البلدية تعويضاً شهرياً يعين بقرار من وزير الداخلية ويتناول الاعضاء في نهاية كل شهر تعويضاً عن الجلسات التي حضرها كل منهم خلال ذلك الشهر على ان لا يتجاوز مجموع التعويض لكل عضو عشرين ليرة سورية صافية .

وقد صرح القرار بوظائف رئيس البلدية فاذا هي اوسع نطاقاً من الوظائف التي خصته بها القوانين السابقة . وتبين ان قرارات رئيس البلدية في دائرة سلطته الخاصة او بالاستناد الى مذاكرات المجلس البلدي ، تعرض فوراً على وزير الداخلية ولا توضع موضع الانفاذ الا بعد مرور خمسة عشر يوماً على تسليمها للوزارة المشار اليها ولكنه يجوز لوزير الداخلية ان يأمر بتنفيذها فوراً في الأحوال المستعجلة فقط اما المقررات التي تُنضمّن تسوية وقتية فانه تُنفذ حالاً بعد نشرها او تبليغها . وفي كل حال لا تسري أحكام القرارات على ذوي العلاقة بها ان لم تُنشر وتذع ، هذا اذا كانت أحكامها عامة وعلى وجه الافراد فيما اذا كانت خاصة .



تأثير البلديات في العمران } للبلديات تأثير عظيم في عمران المدن والقصبات على  
 اختلاف درجاتها لاسيما اذا عهد بادارة البلدية الى  
 رجال كفاءة يحسنون العمل ، ويسلكون طريق النزاهة والنشاط ، ومع ان بلدية  
 دمشق مثلاً وبها نمثل وكلامنا فيها يصدق على اكثر مدن الشام لم تحصل على هذا  
 الشرط الاساسي في ترقية شؤونها الا بعض الاحابيين فان تأثيرها في عمران المدينة  
 ظاهر محسوس لا ينكره احد ومنه اتساع الشوارع والجمادات وانظمامها ويستثنى من  
 ذلك الأزقة التي ما برحت ماثلة للعيان على الطراز القديم لا يتخللها الهواء ولا ينفذ  
 اليها النور الا قليلاً . ولو أتبع المدينة حكام وللبلدية رؤساء في الزمان الغابر  
 يقدرون الضرر العظيم الذي يطرأ على الصحة العامة بسبب ضيق المنافذ للهواء  
 والنور لأزالوا تلك الموانع تدريجاً فوسعوا جميع الطرق والأزقة الضيقة وخدموا  
 بذلك عمران المدينة أجل خدمة كما فعل مدحت باشا في سوقه الشهير وكما فعل  
 جمال باشا في زمن الحرب فانهما فتحا الشوارع الكبيرة ومهدا سبل الاصلاح في  
 المدينة وكما يفعل الآن رجال السلطة العسكريين فانهم قد باثروا العمل نفسه  
 بنجد ونشاط .

ومن ذلك إحداث المجاري للمياه القدرة وتنظيمها بدرجة تمنع اختلاطها بالمياه  
 الصالحة للشرب . وهذا العمل من أعظم الأعمال المفيدة التي أدخلتها البلدية في  
 برامج إصلاح المدينة ، وصيانة الصحة العامة من الأمراض السارية ، ويليه جر المياه  
 من عين النجفة بقساطل مستورة لتسلم من جراثيم الأمراض . وإحداث بنايات  
 والأسواق على النمط الجديد مما زاد في رونق المدينة وبهائها ، ووضع الخرائط  
 والمصورات التي قيدت أرباب المساكن والبهوت بانشائها وفقاً للفن والهندسة وتوسيع  
 الأزقة تدريجاً ومنع البناء بغير الحجر والآجر . ومنها : إنارة الأزقة والشوارع  
 والساحات العامة وتسهيل المرور ليلاً ورفع المحاذير التي يكثر حدوثها تحت ستار  
 الظلام كالسرقات وغيرها . ولا يزال التنوير مفقوداً في بعض الأزقة ولا سيما  
 الضيقة منها . ومنها إيجاد وسائل للنقل في المدينة مثل قاطرات الترام فانها سهلت  
 انتقال السكان من أقصى المدينة الى أقصاها بالسرعة المعتدلة و باجور خفيفة ووفرت

عليهم الوقت ايضاً . ومن ذلك انشاء المستشفى العام ومدرسة الصناعة ودار الأيتام  
والعجزة وغير ذلك من المعاهد النافعة التي زادت في تحسين حالة البلدة من الوجهة  
الصحية والأخلاقية والوجهة العمرانية ايضاً .  
ذكرنا أهمّات المنافع والفوائد العامة التي حصلت في المدينة بتأثير البلدية وهناك  
فوائد أخرى ايضاً لا تحفى على ذوي الألباب .

\*\*\*

رأي في اصلاح } ان قوانين البلدية وأنظمتها التي وضعت في زمن  
البلدة } الأتراك واستمر العمل بموجبها مع تعديل وتعغير في  
بعض موادها بحسب الأحوال وافيسة بالحاجة لادارة الشؤون . ولذلك اري ان  
اصلاح البلديات يجب ان يقوم على أساسين متينين بكفئان لتشبيد بنيانه : توفير  
دخلها وحسن جبايته وانفاقه في سبيل العمران .

ودخل البلدية الآن في دمشق مثلاً وافر لا يستهان به . وكل بلد من بلاد  
الشام ولاسيما الامهات منها قد زادت مع الزمن واراداتها . وبعض البلديات لا تقوم  
مداخيلها بنفقاتها المتنوعة من فتح الجادات وتعمير الطرق وتوسيعها فان ريع الفضلات  
الحادثة من فتح الشوارع وتوسيع الطرق بكفي لتأدية بدلات الاستملاك الى أصحاب  
الأبنية التي يجب هدمها من جراء ذلك الاصلاح ومع هذا فانه يمكن زيادة الايراد  
بطرق عديدة . اما الرسوم فانها تباع بطرق الالتزام وتيجي بدلانها وفقاً لنظام  
الاعشار بنفقات معتدلة وفي زمن قصير . وهذا هو المطلوب في جباية الضرائب ولذلك  
لانكفها الجباية نفقات باهظة والسلطة المخولة للمجلس البلدي في جباية الرسوم  
وتحصيل الديون تكفي لحفظ حق البلدية من الضياع والضرر .

بقي علينا صرف الواردات وانفاقها في سبيل العمران واحياء المدينة . فهذه  
القضية لها علاقة كبرى بانتخاب الرئيس وأعضاء المجلس البلدي لان الايراد مما  
كان وافرأ فانه لا يفيد شيئاً اذا لم تكن الأيدي المسيطرة على شؤون البلدية أمينسة  
على العمل منقطة اليه منقنة اياه .

الثاني : يجب ان يكون الرئيس موظفاً نلصبه الحكومة . ويشترط ان يكون من



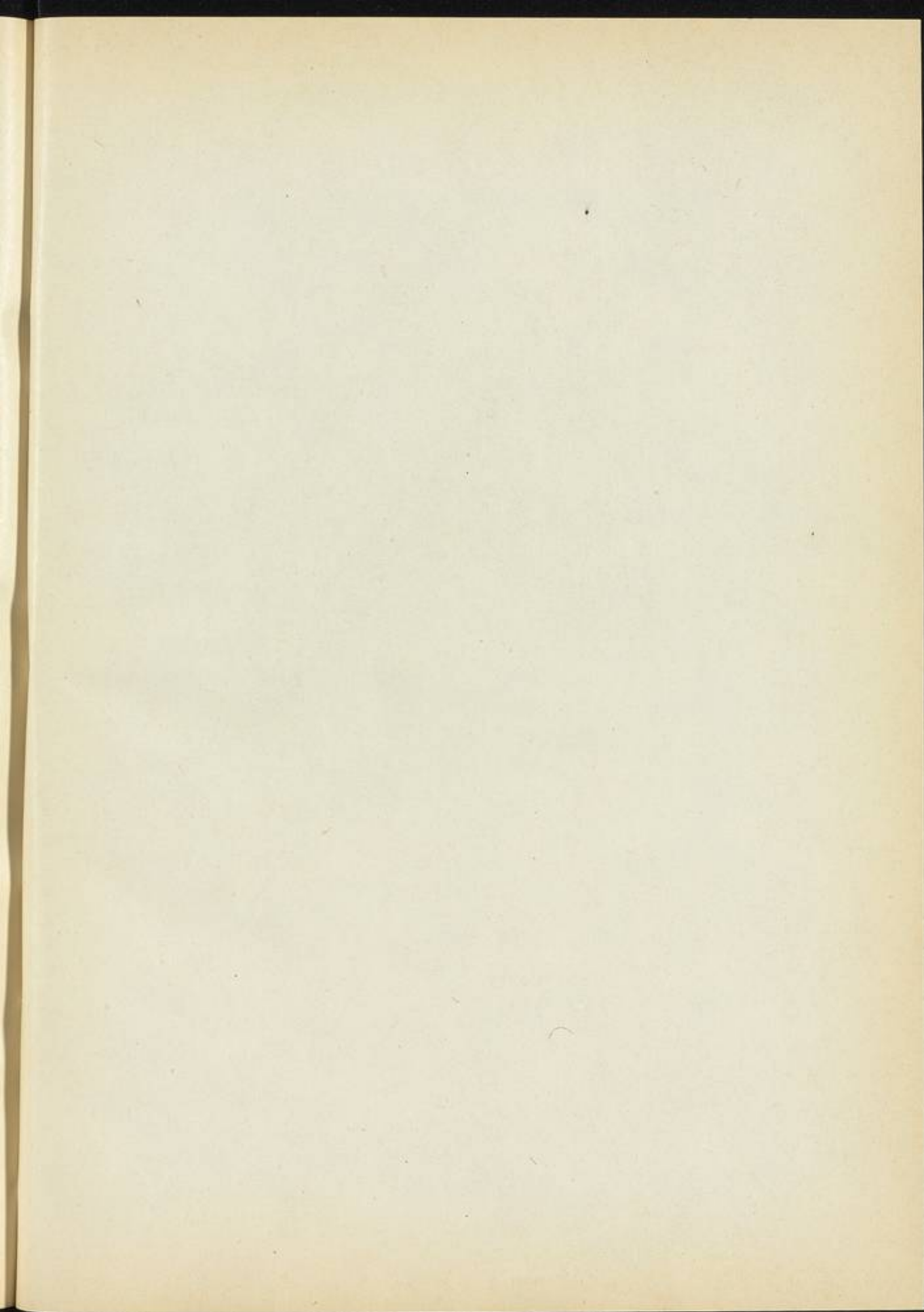
ذوي الدرزة والحسنة ومن حاملي الشهادات العالية او المتعلمين بدرجة لا تقل عنها سواء كان منتخباً او غير منتخب ، وان يخصص له راتب وافر لينصرف بكليته الى ايفاء الوظيفة وليحفظ مكانته ووقاره لدى كل الطبقات في المدينة التي يمثلها .

واما الأعضاء فيشترط في انتخابهم ان يكونوا متعلمين بدرجة مماثلة لحاملي الشهادات من المدارس التجهيزية ويرجح انقائهم من أصحاب اليسار ومن ذوي المكانة ليكونوا في غنى عن تناول الاجور التي يخصصها لهم المجلس البلدي لقاء الكشف والتحقيق عن القضايا المودعة اليهم وينجم عنها ما يسي سمعتهم ويحل بمكانتهم بعض الاحيان .

وعندي ان حجر الزاوية في اساس الاصلاح انقائ الرئيس والاعضاء من خيرة الرجال واطلاق أيديهم في العمل ووجود الكفاة في الوظائف مع غل أيديهم لا يفيد شيئاً . وبصح تطبيق هذه القواعد في مراكز الأمانة والأفضية مع التعديل فانه يجتاز فيها المتعلمون والمهذبون من ذوي الشأن وأصحاب اليسار والنزاهة والافات تزيد الواردات لا يكفي للاصلاح ، والمعول على الأيدي العاملة النزينة النشيطة .

والله الموفق للصواب اه .







## الترع والمرافئ والطرق (١)

—o—o—o—

ترعة السويس } ينقسم هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام : المرافئ  
والخطوط الحديدية والكهربائية والطرق المعبدة ،  
ولما كان افنتساح ترعة السويس بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط من  
أهم الحوادث التاريخية ، ومن أعظم العوامل التي أثرت تأثيراً كبيراً في سير  
المواصلات البحرية ، وتقريب المسافات الشاسعة بين الشام والبلاد الشرقية الاخرى  
كفارس والهند والصين ، وخصوصاً بين الشام وأمها جزيرة العرب ، فضلاً عما  
أحدثته من تسهيل نقل الحجاج المسلمين الى البلاد الحجازية المقدسة — رأيت ان  
أفتح الكلام في القسم الاول بهذه الترع وبما يتعلق بها من الشؤون الفنية والتاريخية  
والاقتصادية فأقول :

المواصلات بين البحر المتوسط وبين البحر الأحمر قديمة العهد ، تبدأ من مصر بين  
القدماء على عهد امبراطوريتهم الوسطى اي منذ الف سنة قبل الميلاد تقريباً .  
فالمسألة اذاً عريقة في القدم ، وقد عرفت لأول مرة قبل اربعة آلاف سنة على  
التقريب . وما كانت هذه المواصلات القديمة بين البحرين الا من قبيل المصادفات  
ولم تكن غاية ما كان يرمى اليه القدماء . وما كان هؤلاء يتطلبون سوى الحرص على  
المواصلات بين البحر الاحمر ونهر النيل ليتمكنوا من وصل أهم طريق لديهم وهو النيل

(١) كتب هذا الفصل المهندس الباحث السيد عبد الوهاب المالكي .

بأعظم طريق بحري يؤدي الى آسيا وبلاد الحبشة وهو البحر الأحمر . ولذلك قام  
الفراعنة بتخطيط طريق لا شك انها من أهم طرق ذلك العهد ، بين المكاتب الذي  
قامت فيه الآن مدينة القاهرة وبين السويس ، ليسهل عليهم نقل بعض الأحجار  
والمعادن القيمة من جهة سيناء كإفروز والنحاس والمغنيزيا بحفروا اول قناة بين النيل  
وبين البحر الأحمر .

ولما كان النيل يصب في البحر المتوسط أصبح من الممكن إذ ذاك مرور المراكب  
بين البحرين الأحمر والمتوسط . ولا تعرف اليوم تلك القناة الصناعية ولا ذلك  
الفرع الذي حفرته يد الانسان ، ولا شك انه كان ثمة فرع طبيعي لنهر النيل العظيم  
جف ماؤه منذ العصور الجيولوجية اي قبل ظهور الانسان . ويؤكد بعض المؤرخين  
ان هذا الفرع كان في زمن رعمسيس الثاني وكل من ينظر الى خريطة مصر  
يتمثل لعينيه هذا الوادي القديم وادي تومات ، وفيه قسم من الاراضي الخصبة  
المتبسة بقطعه الخط الحديدي بين الزقازيق والاسماعيلية وهذا الوادي هو الفرع  
القديم الجاف لنهر النيل وهو موضع القناة القديمة . فبحرى هذه القناة يتقارب جداً  
من القناة الحالية التي تجري فيها المياه العذبة لارواء الاراضي الواقعة بالقرب من  
ترعة السويس . ويظهر ان سلسلة البحيرات المنقطعة الواقعة على طريق ترعة السويس  
كانت قديماً متصلة بخليج السويس الطويل وكان يجري اليه فرع النيل الشرقي  
القديم المبحوث عنه .

ويظهر من درس الاراضي والارتفاعات والمستحاثات ان أحجار البسوط قد ارتفعت  
قليلاً ولا ريب ان المواصلات كانت على أتمها زمن الامبراطورية الوسطى وفي عهد  
الامبراطورية الجديدة . فكانت القناة الاولى تصل نهر النيل ببجيرة التمساح ،  
وذلك في عهد الأسرة الثانية عشرة الى التاسعة عشرة اي منذ الفين الى الف  
ومائتي سنة قبل الميلاد . وان قناة ثانية من عهد الفراعنة ايضاً وفي زمنهم الأخير  
المعاصر للفتوحات الفارسية اي منذ خمسمائة وخمس وعشرين سنة قبل الميلاد ،  
كانت تصل نهر النيل ببجيرة المرة الكبيرة بواسطة وادي تومات وهذه هي القناة التي  
قام بحفرها واصلاحها بسامتيك ونيخاووس من السلالة السادسة والعشرين وذلك



بين سنة ٦١٠ و ٥٩٤ قبل الميلاد . وكان مشروعه يقضي بتجديد الفرع القديم لنهر النيل المنفصل عنه في منطقة بوباشيس والمار في وادي تومات . ان هذا العمل الذي ذهب بحياة مائة وعشرين الف عامل كما ذكر ذلك المؤرخ الشهير هيرودوتس خلال رحلته الى مصر ( اي بعد سنة اربعمائة وتسع واربعين ق م ) لم ينجح وترك قبل إتمامه لانه أوجي الى الملك نيكو على ما يقال بان عمله خدمة للبرابرة اي الفرس ولذلك لم يتم هذه القناة الا بعد مائة سنة أنشأها الملك داريوس الاول الفارسي . على ان القناة القديمة كانت أوسع من هذه القناة الحالية . وقد ظهرت آثار القناة القديمة المدرسة في سنة ١٧٩٨ وتظهر الآثار الآن في أماكن عديدة . وقد استعمل قسم منها لجرى القناة الجديدة المستعملة لإسالة الماء العذب وقد عرفنا من الجدران المائلة والمرنعة ومن الأشجار المنخوتة ان عرض القناة القديمة كان خمسة واربعين متراً في عمق خمسة أمتار . وذكر المؤرخ هيرودوتس ان طولها اربعة ايام وقد كانت معدة اذ ذاك لسير السفن . وتكريماً لانجاز عمل القناة أقام داريوس عدة مسلات تذكرة ومخزرة .

وجاء بعد ذلك البطالسة وقاموا بجهود عظيمة لتجديد عمل هذه القناة وأخذوا يقاومون الطبيعة في العصر الرابع والثالث والثاني والاول ق م . وكانوا يرمون الى المحافظة على طريق نهر النيل الى البحر الأحمر من البحيرة المرة وجعله ابداً صالحاً لمرور الزوارق فيه . كلفهم ذلك جهوداً عظيمة وقاموا باعمال صناعية دقيقة كالسدود والأحواض وأعمال أخرى كانت القصد منها دفع المياه المالحة عن النيل وعن الاراضي المصرية ثم أهمل شأنها في القرن الاول ق م .

وبعد فان تاريخ هذا العمل العظيم اي قناة السويس القديمة ينتهي في عهد الرومانين . وقد كان آخر من قام بحفر هذه القناة القديمة التي امتلأت بالرمال الامبراطور تراجان الروماني بين سنة ٩٨ و ١١٧ بعد الميلاد وقد فتح على عهده نهر تراجان الذي كان يتندي بالقرب من القاهرة ويمتد الى خليج السويس في البحر الأحمر ولا شك ان هذا النهر هو القناة المبحوث عنها آنفاً . ولكن طمت الرمال

هذه القناة بعد ذلك وارتفع مستوى الارض فضاغ أعظم أثر من آثار القدماء وهو  
بعد من بدائم القرون الغابرة .

ولما افتتحت العرب مصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد لم تكن اذ ذاك قناة النيل والبحر  
الأحمر الا عبارة عن ذكرى قديمة العهد جداً . ومع هذا يرجع الفضل والشرف في  
احياء هذه الذكرى القديمة منذ اثني عشر قرناً للعرب الفاتحين وهم آخر من أحيى  
هذه الذكرى قبل اهل المدينة الحاضرة . وأعظم من هذا انهم هم اول من فكر بالطريقة  
الحديثة لايجاد قناة بين البحرين المتوسط والأحمر . وذلك لان مملكة العرب  
كانت متسعة الارحاء وتحتاج للمواصلات في كل الجهات على العكس في مملكة الفراعنة  
الذين لم يفكروا الا بما يفيد مصر وحدها . فالحاجة عند العرب كانت ماسة لربط  
الصلات والمواصلات بين جزيرتهم وما افتتحوها من الممالك الاخرى . وقد قام بهذه  
المهمة عمرو بن العاص أحسن قيام وتبعه في ذلك الخليفة العباسي هرون الرشيد .  
ولعدم وسائلهم الفنية الحديثة لم يتمكنوا اذذاك من فتح ترعة عظيمة كالترعة الحالية  
وان كانوا فكروا بها ملياً ولما أشكل عليهم الامر لم يتجمعوا عن جعل النيل واسطة  
الاتصال بين ممالكهم . وكان القصد من استعمال النيل هذه المرة الوصل بين البحر  
المتوسط والبحر الأحمر . وعلى هذا قاموا باصلاح قناة الأقدمين التي تبتدي من  
الزقازيق على النيل . وكانوا يأتون في سفنهم من الشمال ويدخلون في بحيرة المنزلة  
ثم في النيل ومن هناك يتبعون القناة التي أصلحوها الى ان يدخلوا البحر الأحمر  
ومنه يتجهون نحو جزيرة العرب . وكانوا بهذه الصورة ينقلون من مصر ما يحتاجونه  
من الخنطة الى جزيرتهم .

ويحدثنا التاريخ ان عمرو بن العاص استعمل هذه التربة لنقل الخنطة من  
الفسطاط الى القلزم ( السويس ) ومن هناك الى جزيرة العرب عن طريق البحر  
الأحمر . وقد بقيت القناة سالحة للسير مدة من الزمن حتى جاء الخليفة ابو جعفر  
المنصور العباسي وقام بظلم هذا الطريق المفيد مخافة ان تنقل الدخائر الى القائم بالحجاز  
اذذاك من ارض مصر وذلك في سنة ٧٥٥ ميلادية . وعلى هذه الصورة فقد انقطع حبل  
الوصل للمرة الاخيرة بين البحرين مدة الف سنة ونيف . على ان فكرة اتصال البحرين



ما زالت باقية منذ ذلك العهد تلك الفكرة التي لم يسبق العرب احد اليها . وكانت من الاعمال التي لامندوحة للمدينة من تطبيقها . وجاء البنادقة وقد فكروا مرات بفتح ترعة لان تجارتهم تضررت كثيراً من افنتاح الطريق البحري طريق رأس الرجاء الصالح ولكنهم لم يفلحوا . وفي سنة ١٦٤١ عرض لابينيس العالم الرياضي الشهير على ملك فرنسا لويس الرابع عشر أقوى ملك في عصره بان يؤلف جيشاً لافنتاح مصر وكان من جملة ماطلبه فتح هذه الترعة سنة ١٦٧٦ للوصول منها الى الهند ولكن لم يتم شي من هذا كما وقع ذلك للسلطان مصطفى الثالث العثماني الذي فكر ايضاً بفتحها وكان الامر كذلك مع علي بك زعيم المالك الذي لم يكتب له النجاح ايضاً . وقد ارتأى فتحها ايضاً كولبر الشهير وكثير من وزراء لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .

ويظهر مما تقدم ان من حاولوا ربط البحرين كلهم افرسيون او اصدقاء لفرنسا ، وكلهم منفقون على هذا الامر للفت في عضد انكثرا التي كانت تحصر طريق رأس الرجاء الصالح . ولما جاء نابوليون مصر نظر في الاعمال الاولى سنة ١٧٩٨ . وقد قام لوپير مهندس بونابارت بدرس هذا المشروع وعمل المصورات اللازمة عملاً بإشارة سيده غير انه أخطأ في حسابه خطأ عظيماً اذ وجد ان مستوى الماء في البحر الاحمر اعلى من مستواه في البحر الابيض بنحو تسعة أمتار وتسعين سانتياً في حين انه لا يوجد فرق بين مستوي البحرين وبذلك كان لوپير السبب في تأخير هذا العمل مدة طويلة . بقيت المواصلات مقطوعة بالفعل بين السويس والبحر المتوسط مدة الف ومائة سنة اي منذ سنة ٧٥٥ الى سنة ١٨٥٤ ميلادية او من عهد ابو جعفر المنصور الى الزمن الذي قام به بحفر التربة الحالية فرديناند دلبسبس الذي برهن على عكس ما ادعاه مهندس نابوليون . وقد قام المهندسون لينان بك واستيفانسون ونيكريللي وبوردالو بمساحات دقيقة بين سنة ١٨٤٨ و١٨٤٧ وأثبتوا بصورة نهائية خطأ المهندس لوپير .

أفنع دلبسبس الخديوي محمد سعيد بفائدة التربة وأحرز في سبعة أيام موافقته على ذلك . وصدر المنشور الخديوي بفتح التربة يوم ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ . فعارضت بريطانيا في فتح التربة مدعية انها تريد المحافظة على

كيات الدولة العثمانية من الاخطار التي ستحدثها هذه الترعَة المشؤومة . ولم يرجع دليسيبس عن مشروعه فأسس شركة وعرض في ٥ تشرين الثاني سنة ١٨٥٨ أسهمها للبيع . وكان عدد هذه الاسهم (٤٠٠٠٠٠) سهم بيع منها (٢٠٧٠٠٠) سهم في فرنسا واشترك في شراء هذه الاسهم جميع الطبقات . اما ما بيع في البلدان الاخرى فلم يتجاوز الثلاثة بالمائة . واكتب الخديوي محمد سعيد باشا نفسه بما بقي من الاسهم اي بنحو خمسة واربعين بالمائة من مجموعها ووضع تحت إدارة القائمين بالاعمال خمسة وعشرين الف عامل باجرة زهيدة جداً . وأسست هيئة إدارية للقيام بهذا المشروع وجرى الاحتفال بالموضع الذي أنشئت فيه بورسعيد في ٢٥ نيسان سنة ١٨٥٩ وذلك قبل ان تتم موافقة الباب العالي وقبل ان تضع المعارضة البريطانية سلاحها . ومع هذا كانت أعمال الحفر لتقدم بوسائل ابتدائية . وكانت تنقل أتربة الحفريات على ظهور الحمير ولنا ان تقدر الصعوبات التي افتحمها القائمون بالعمل اذا فكرنا بان ما كان يحتاجه العمال من الماء للشرب كان ينقل على ظهور الابل وكان يكلف هذا النقل مبلغاً قدره ستة وخمسون الف فرنك في الاسبوع حتى انتهى عمل القناة العدة لإرسالة الماء العذب .

وفي ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٢ جرى فتح أول قطعة من الترعَة وقد نرأس هذا الاحتفال الفخم دليسيبس مؤسس هذا المشروع . وحُطّم السد اثناء الاحتفال فدخلت مياه البحر المتوسط الى بحيرة التماسح فكان هذا الاحتفال فخماً مهيباً . مات الخديوي محمد سعيد باشا فأضاع دليسيبس أكبر نصيره . على ان هذه المصيبة لم تمنعه من الحصول على موافقة السلطان العثماني وذلك في سنة ١٨٦٦ وحيّ يومئذ بالآلات الحفر الضخمة ذات قوة (٢٢) الف حصان واستغنوا عن الادوات الابتدائية .

جرى افتتاح هذه الترعَة في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ فاجتمع في ذلك الاحتفال خمس وخمسون سفينة أتت من اوربالا لاشتراك بانجاز هذا المشروع وبمن حضره امبراطور النمسا وأولياء عهد بروسيا وهولاندا وغيرهم . وقد اتفق على هذه الترعَة تسعة عشر مليون ليرة انكليزية . ولما رأّت انكلترا



فائدة هذه التريعة ندمت على تساعدها عن مد يد المساعدة لاول الامر وقررت ان تستعيض ما فاتها من الوقت . ففي تشرين الثاني سنة ١٨٧٥ تمكن ديزرائيلي وزير انكترا من اتياع مائة وستة وسبعين الف سهم التي كانت ملك الخديوي سعيد باشا وذلك بمبلغ اربعة ملافين ليرة انكليزية وفي تسعة ايام دخل ثلاثة أعضاء انكليز في حياة إدارة التريعة وسقطت تلك المعارضة التي اشتدت بين انكترا وبين شركة التريعة . وفي سنة ١٨٨٢ أهملت فرنسا مصالحها في مصر فعسكرت الجيوش البريطانية في القاهرة فاحتج فرديناند دليسبس على خرق حياد التريعة فلم يجد احتجاجه نفعا . وفي سنة ١٨٨٥ وضعت قواعد الاتفاق الافرنسي الانكليزي لإدارة شؤون التريعة . وكان أثر هذا الاتفاق عظيماً جداً وخصوصاً أيام الحرب العسامة . فكانت هذه التريعة خندقاً حصيناً بيد الحلفاء للمحافظة على مصر . ولما هاجم الترك التريعة سنة ١٩١٥ قام بالدفاع عنها الجنرال مكسويل ونجح على أسروجه . ولم تمض مدة قليلة من الزمن بعد الحرب حتى عادت التريعة الى ما كانت عليه قبلها وهي اليوم احدي الطرق البحرية العظيمة في العالم أجمع . وقد مر منها في سنة ١٩٢٥ (٥٣٣٧) سفينة . وكان مجموع ماتحملة هذه السفن (٢٦٧٦١٩٣٥) طنناً . واليك تقسيم هذه السفن :

سفينة انكليزية	٥٩٩	بالمئة من المجموع
هولندية	١٠١	=
المانية	٦٧	=
فرنسوية	٦١	=
طليانية	٥٣	=
يابانية	٤٠	=
اميركانية	٣٠	=
نروجية	١٤	=
سويدية	١٠	=
أخرى	٢٥	=

وغير ذلك فان كثيراً من السفن ترسي في مرفأ بورسعيد ولا تجاز الترعَة .  
ولذلك يعد مرفأ بورسعيد من أكثر مرفأ العالم حركةً واشغالاً .

واصلاح الترعَة وجعلها صالحة لسير السفن في كل الاوقات عمل شاق يتطلب جهوداً عظيمة . وكانت الترعَة في بادئ أمرها ذات اثنين وعشرين متراً عرضاً في القعر وثمانية أمتار عمقاً . في حين انها اليوم ذات خمسة واربعين متراً عرضاً في القعر وعشرة أمتار ونصف عمقاً . وهذا مما يدلنا على ان العمل فيها متواصل وان عرضها قد تضاعف . ثم ان عرض الترعَة على مستوى سطح الماء يختلف بين المائة والعشرين والمائة والاربعين متراً وقد يبلغ المائة والستين وطولها ١٦٨ كيلومتراً .

وتقرر مؤخراً ان يجعل عمق الماء ثلاثة عشر متراً وعرض الترعَة في القعر ستين متراً . ومن جهة أخرى فان النفقات تزداد يوماً فيوماً . وقد بلغ جميع ما صرف على هذه الترعَة منذ البدء بها في سنة ١٨٥٩ الى يومنا هذا ما يقرب المليار من الفرنكات الذهبية . فكانت ميزانيات هذا العمل في اوله تظهر عجزاً بيناً . وكان ما استحصل من هذا العمل باديء بدء لا يتجاوز الستة ملايين من الفرنكات على الرغم من الرسوم الباهظة الموضوعه على التجارة والبواخر ولكن الحالة تحسنت في العهد الاخير .

وفي سنة ١٩٢٣ بلغت الواردات غير الصافية ٤١٩ مليون فرنك وكان الصافي من الواردات سنة ١٩٢٤ ( ٢٦٤ ) مليون فرنك . ان اسم هذه الشركة هو الشركة العمومية لترعة السويس البحرية وهي بموجب نظامها شركة مصرية وبحسب اسمها شركة دولية عمومية . غير ان حقيقتها شركة افرنسية واكثرية هيئة ادارتها افرنسية ايضاً . وان رئيسها خلف دلبسبس هو افرنسي ابدأ . ومركز ادارتها في باريس وقد دفعت هذه الشركة عن سنة ١٩٢١ مبلغاً قدره ١٤ مليون فرنك الى الحكومة الفرنسية ضرائب عن أموالها . ومركز الادارة العامة ايضاً في باريس وتقوم بادارة الثلاث شعب الموجودة في مصر والتي يديرها موظفون افرنسيون . وهذه الشعب هي : ادارة الأشغال ، ادارة المركز ، ادارة سير السفن . ويقوم باعباء هذه الشعب الثلاث ٥٠٠ موظف و٢٥٠٠ عامل . واذا أضفنا الى هذه الارقام



عيال هؤلاء الموظفين والعمال وأولادهم بلغ عدد النفوس التي تعلق رأساً بشركة الترعة ١٤ الف نفس .

\*\*\*

الترعة العظيمة عن } قبل اتفاقية ترعة السويس التي تجعل منها ترعة على  
طريق فلسطين } الحياض لجميع الأمم ، فكر الانكليز في فتح طريق  
بحري يمر بفلسطين . وذلك لإضعاف نفوذ الفرنسيين في الشام ونفوذ الروس في  
فلسطين فارتأوا وصل البحر الابيض ببحيرة لوط ومنه الى البحر الاحمر . وذلك  
بواسطة قناة تبني من مدينة حيفا . فتملاً وادي الغور الذي ينخفض ٣٩٣  
متراً عن سطح البحر . ثم نصل هذه القناة الى العقبة الواقعة على شاطئ البحر الاحمر  
بعد ان تقطع وادي العربية . وبهذا يكون للانكليز طريق حربي تبلغ به الهند اذا  
أغلق في وجهها ترعة السويس وينافس العمل الذي قام به دابيس .

ان سهل يزرع لا يرتفع سوى مائة متر عن سطح البحر . في حين ان وادي  
العربية بين البحر الميت والبحر الاحمر يرتفع مائتين واربعين متراً . فلو فرضنا انه  
أمكن المرور من هذه السهول المرتفعة التي نطلب أعمالاً صناعية دقيقة يتساءل المرء  
عما سيكون مصير الماء الجاري من البحر الى هذه الهوة الطبيعية اي وادي الغور  
فانه يتبخر في الحال كما هو الشأن بماء نهر الشريعة الذي يصب في بحيرة لوط . ففسد  
حسب السير اوليفان ان حفرة الغور التي ينخفض قعرها ٤٠٠ متر تقرباً عن  
سطح البحر تملاً في خمس سنوات . وقد قدّر علماء آخرون بان المدة اللازمة لامتلاء  
هذا الوادي لا تقل عن عشرة أمثال المدة التي حسبها اوليفان . ومما تكن هذه  
المدة اي مدة امتلاء هذه الحفرة طوبلة او قصيرة ، فان عملاً كهذا سيغير الملم  
فلسطين حتماً ، ويحصل من جراء هذا العمل الكبير لمجاً جسد جداً للسفن الكبيرة ،  
وهذا ما يستبان منه سبب تحمس الانكليز للقيام بهذا المشروع منذ اربعين سنة .  
وطول هذه الترعة العظيمة ٤٠٠ كيلومتر من ذلك مقدار ١٩٣ كيلومتراً فقط  
بقنضي حفرها بعرض ٦٠ متراً وبعمق ١٢ متراً . فمما تكن فكرة فتح هذه الترعة  
عظيمة ، ومما تكن فكرة الاستفادة من قوة الماء الذي سينصب في وادي الغور

جيدة ، فلا يظهر ان هاتين الفكرتين بتأتى اخراجهما الى حيز العمل دع انت ثروة البلاد المعدنية المشهورة بجوار بحيرة لوط . يصعب ان تذهب هذراً تحت عمر المياه لها ثم ان نفقات العمل ستكون باهظة وقد قدرها اوليفان من مليار الى مليارين من الفريكات ، وقد رها غيره بخمسة مليارات ، مما يجلب خسائر ولا يفيد رؤوس الأموال التي ترصد له .

\* \* \*

الترعة بين البحر الابيض } وهناك مشروع آخر أشد غرابة من هذا  
والخليج الفارسي } الأول وهو وصل البحر الابيض المتوسط بالخليج  
الفارسي ، وذلك بواسطة ترعة تبشدي من السويديّة وتمر بانطاكية وحلب واليس على  
الفرات . ويصلح نهر الفرات بحيث يغدو صالحاً لسير السفن حتى شط العرب .  
وقد قدرت نفقات هذا المشروع بسبعين مليون ليرة عثمانية ذهباً . فلو فرض بان  
الملايين الليرات لا شأن لها فاننا نساءل عن فائدة هذا الطريق النهري الطويل  
الذي لا يتقص طول له عن طول طريق البحر الاحمر ، فضلاً عن ان ارتفاع الارض  
في جوار حلب هو ٤٠٠ متر ، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة التحقيق ايضاً .

\* \* \*

مرفاً غزوة } تبعد مدينة غزوة عن ساحل البحر خمسة كيلو مترات ،  
وترتفع عن سطح البحر ٥٥ متراً . وتفصل بين المدينة  
والبحر تلال قليلة الارتفاع لا يتجاوز أعلاها ١٥ متراً . والساحل مملوء بطبقات  
الرمال لا تتمكن البواخر من الاقتراب منه . وقد تكونت هذه الرمال بما نقذفه مياه  
النيل من الرمال الى البحر المتوسط فتسوقها الرياح الغربية الى هذا الساحل .  
والظاهر ان مرفاً غزوة كان في معظم ادوار التاريخ دون سائر مواني الشام ولم يكتب  
له ان ينفع به حق الانتفاع الا في اوقات قليلة .

\* \* \*



مرقأ يافا } خربت مدينة يافا في الحروب الصليبية فأضحيت عبارة عن  
 قرية تتألف من بضعة بيوت . وقد بدأت في التجدد سنة  
 أواخر القرن السابع عشر . وكان المرقأ اذ ذاك غير صالح لارساء السفن كما هي  
 حالته لهذا العهد . ولذلك كانت ترمي السفن الافرنسية في مرقأي عكا وطيدا .  
 وحصنت يافا في القرن الثامن عشر وأخذت تزداد عمراناً الى ان جاء نابوليون بوناپارت  
 في سنة ١٧٩٩ . وازدادت مكانتها واكثر عدد سكانها لهذا العهد ، وذلك لقربها من  
 مدينة القدس ومرور الخطوط الحديدية منها . ومهاجرة اليهود والامان اليها . وكان  
 جماع هذه الاسباب العامل الكبير في تقدم هذه المدينة . ومضت أدوار كانت كلمة  
 الذهاب الى يافا تدل عند الغربيين على عمل مخطر . حتى ان بعض التجار كان يراهن  
 الراحلين الى الاراضي المقدسة على ثرواتهم بمعنى ان المسافرين يقبض ما يعادل ثروته  
 من التاجر الذي راهنه اذا عاد الى بلاده سائماً . كما ان المسافرين يترك كل ثروه لهذا  
 التاجر اذا لم يعد اليها . وهذا مما يدل على ان الخطر في دخول السفن هذا المرقأ  
 كان قاب قوسين او أدنى . وكانوا يعتقدون ان احتمال حدوث الخطر اكثر من  
 السلامة . وتحسنت الحال قليلاً منذ ذلك العهد ، ومع هذا لم يزل نفرغ السفن  
 في ساحل يافا من الامور الصعبة الخطرة .

ان مرقأ يافا صغير وقليل العمق مستودع يحفظ من الصخور البارزة عن سطح الماء  
 وليس له سوى مدخل صغير بين الشمال والشمال الغربي من المدينة . وقد وقع توسيع  
 هذا المدخل بالنحت ونسف الصخور بالمقرعات . وهناك ممر آخر في جهة الشمال في  
 عرض ٢٠٠ متر ليس صالح للانفعا لوجود طبقات الرمل التي تظمه . وهذه  
 الصخور الممتدة من الساحل الى عرض البحر بمثابة سد طبيعي تكون في طول ٣٠٠  
 متر . ويكون هذا السد الطبيعي ملجأً آيئاً للسفن الصغيرة الحجم ، ولكن قعر البحر  
 يرتفع يوماً فيوماً لتكون جنس من الحجر المركب من الرمل والاصداف بواسطة  
 نوع من الملاط المترسب من الماء ، فلا يوجد عمق يزيد عن الخمسة أمتار الا بعد  
 ٥٠٠ متر من الساحل بحيث لا يتمكن البواخر الضخمة من الارساء الا بعيدة عن  
 الساحل نحو ٧٠٠ متر مما يجعل نفرغ السفن صعباً جداً . ويكون نفرغ بواسطة

زوارق كبيرة تسيرها نواتية من اهل هذه المدينة بمهارة فائقة . وكثيراً ما بصطدم هؤلاء الرابضة بالصخور من شدة الأمواج العظيمة التي تهب بريح الشمال في فصل الصيف ورياح الغرب في الشتاء . وأصحاب هذه الزوارق بنقاضون أجوراً باهظة من الركاب لكثرة الأخطار التي تحيط بهم . من أجل هذا لا يتيسر للسفن أحياناً نفيغ بضائهم وإنزال ركابها بل تسير بهم الى مرافيء حيفا وبيروت وبورسعيد . ثم ان قعر البحر مركب من رمال ومزيج من الحصى ومواد لزجة أخرى لا يمكن المرامي من مقارمتها عند وقوف السفن . ولذلك تبقى هذه السفن موقدة بخارها خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة المزعجة . فالخطر والحالة هذه عظيم جداً في إنزال الركاب . فبناء مرافئ على الطراز الحديث هو عمل إنساني مفيد . واول من درس هذا الموضوع الدكتور زامبل ثم أهمل أمره وذلك قبل سنة ١٨٧٥ في الوقت الذي جرى فيه قلع الصخور ونسفها بالمواد النارية . وفي سنة ١٨٨٠ طلب حسن فهمي باشا وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية بناء سد في عرض البحر طوله كيلومتر واحد . وقد قدر نفقات هذا المشروع باربعة ملايين فرنك . وفي سنة ١٨٩٠ كثر طلب هذا الامتياز . ومن الطالبين شركة ري بساتين البرئقال في يافا ثم شركة بلطجي وحبيب رزق الله من القسطنطينية وشركة سكة حديد يافا ، القدس . والظاهر ان فتح مرافئ جديدة كبير يتطلب نفقات طائلة لا تكفي تجارة هذه المدينة لتسديد الفوائد الناتجة عن هذه النفقات .

\* \* \*

مرافئ حيفا } تقع مدينة حيفا على خليج صغير يبعد عن عكا جنوباً  
ثلاثين كيلومتراً ، وكان نزحاً منذ أواخر القرن الماضي  
نفر من الالمان ، وأسسوا مستعمرات صغيرة ، وأبنية جميلة ، فزادت مكانتها التجارية ،  
وزادت نفوسها ، ووفرت مرافئها ، وان المرفأ الحالي القريب من سهل كيسون وهو  
بطائح ومستنقعات يتجه نحو الشمال الشرقي في مأمّن من الرياح الجنوبية والغربية .  
يجبل الكرميل الذي يمتد داخل البحر من الجنوب الى الجنوب الغربي وينتهي فيه  
عمودياً . ولذلك تبعد السفن من هذا المرفأ عند اشتداد العواصف في البحر المتوسط



اذا تعذر إرساؤها في مرفأ يافا . اما الرياح الشمالية والشمالية الغربية فشديدة جداً في هذا المرفأ ، وعمق الماء فيه لا يتجاوز الخمسة أمتار الا بعد مسافة كيلو متر واحد في عرض البحر من الساحل كما هي الحالة في جميع السواحل الشامية . ولذلك ترسو السفن الكبيرة في عرض البحر وتفرغ بضاعتها وركابها في الزوارق الصغيرة التي لا تحتاج لعمق عظيم من الماء . وخير طريقة لإنشاء مرفأ مدينة حيفا هو عمل سد في عرض البحر يبتدي من شالي المدينة ويتجه من الغرب الى الشرق بطول كيلومتر ونصف فيبلغ عمق الماء مقداراً كافياً لدخول السفن الكبيرة حتى تقترب من الرصيف فيمكن نقر بغها على أيسر وجه ويتأني ردم البقعة المثلثة من البحر التي تحصل بين السد وبين الساحل بحيث تكون صالحة لتوسيع المدينة وزيادة الأرصفة على عمق كافٍ . وقد أصبح دخول السفن الى المرفأ من المدخل الشرقي سهلاً في كل وقت اذا اضحي المرفأ آمناً من العواصف والرياح الشمالية فعمل كهذا يفيد فائدة عظيمة خصوصاً وان مدينة حيفا متصلة بالبلاد الداخلية بواسطة الخط الحديدية الحجازي . ونفقات هذا المشروع باهظة لا يؤمل تسديد فوائدها في بادي الامر . وقد فكر الترك في إنشاء مرفأ حيفا بل أعطوا به امتيازاً تحضيراً تخالت الحرب العامة دون تحقيق المشروع .

ولما دخل البريطانيون فلسطين رأوا ان إيجاد مرفأ للبلاد يجب ان يتم في اول فرصة تسبح ، وكان التنافس واقعاً بين يافا وحيفا لان بقية المرافئ كغزة وعمكا وقيسارية ليست الا مراسي بسيطة . ويافا وحيفا هما أهم الموانئ في فلسطين . والقسم الأعظم من البضائع التي ترد الى فلسطين تأتي عن طريقها . في سنة ١٩٢٥ دخلت المواني الفلسطينية (٢٤٧٢) سفينة حمولتها (١٨٩٥٠٤٢) طنناً . وقد كان نصيب يافا وحيفا منها ما يأتي :

يافا (٧٣٤) سفينة حمولتها (١٦٤١٤) طنناً و (٥٠٤) بواخر حمولتها (١١٤٣٤٠٥) أطنان . حيفا (٥٤٢) سفينة حمولتها (٧٥١٢) طنناً و (٢٥٠) باخرة حمولتها (٦٨٨١٣٤) طنناً . والناظر الى الأرقام يرى يافا أولى من حيفا بالمرفأ الحديث . وصقع يافا من أكثر بقاع فلسطين سكاناً وثروة . ولا ريب في ان

مستقبلها زاهر وفيها عنصر من عناصر ثروة فلسطين وهو البورنقال وهي منفذ  
القدس الى البحر . هذه هي كل مزايا يافا . اما عيوبها فضيقة مساحتها ورداءة  
مينائها وتعرضها للرياح بحيث تعطل فيها أعمال الشحن من ٨٠ الى ١٠٠ يوم في  
العام . اما حيفا فتعد بالنسبة الى يافا مدينة جديدة . فلم يكن سكانها سنة ١٩٠٤  
يزيدون عن عشرة آلاف فبلغوا في سنة ١٩٢٢ - ٢٥ الفاً وهم اليوم يزيدون عن ٣٥  
الفاً . وتعزى هذه الزيادة الى ازدهار الصناعة في جوارها لاتصالها بدمشق وبجنوب  
الشام بسكة الحجاز . وميناء حيفا جيد يحميه جبل الكرمل في الجنوب من الرياح  
ولا ينقطع العمل فيه الا اياماً معدودة في العام . وأخيراً قررت حكومة فلسطين  
انشاء مرفأ في حيفا على الطراز الحديث وأخذت تضع المصورات والتصميمات ووقع  
اختلاف بين فريقين من المهندسين فريق يقول بانشاء المرفأ في شمال حيفا والفريق  
الأخر يذهب الى انشائه في الجنوب . ولا تلبث هذه الاختلافات ان تزول ويخرج  
هذا المشروع الى عالم الوجود بما اقتضته الحكومة لهذه الغاية من الاموال الطائلة .

\* \* \*

مرفأ عكا } مدينة عكا مفتاح فلسطين كانت ذات مكانة حربية  
اعترف بها نابوليون ، وازدادت شأنًا منذ فتحت قناة  
السويس ويرسم خليج عكا قوساً بشكل نصف قطع ناقص محوره الكبير يمر من حيفا  
ومن عكا . قامت المدينة في شبه جزيرة تمتد من الشمال الى الجنوب . ولئن كان  
البحر محفوظاً من الشمال فهو معرض لرياح الجنوب والغرب . والارساء اذاً بمرفأ  
حيفا أسهل منه في عكا . اما المرفأ القديم فحالته جيدة لمكان السد الممتد من  
الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . وقد امتلأ هذا الحوض بالرمال ولم يبق فيه من  
العمق سوى مترين فقط . ترمي السفن الكبيرة في عرض البحر ومع ذلك لا تأمن  
الأخطار في بعض ايام الشتاء والربيع . اما من جهة انشاء مرفأ جديد في عكا  
فما يصعب عمله . لانب ذلك يقتضي نفقات باهظة لا تتناسب مع تجارة هذه  
المدينة .

\* \* \*



مرافئ صور } كانت مرفأ صور المشهور في العصور الغابرة في جزيرة  
منفصلة عن الساحل اتصلت بالارض بعد ان أنشأ  
الاسكندر طريقاً بينها وبين الساحل ثم اتسع هذا الطريق اتساعاً كبيراً بما كان  
يحملة البحر من الرواسب . حتى أصبحت الجزيرة جزءاً من الساحل ، ولم يبق في  
العهد الأخير من المدينة سوى اسمها حتى ان الرحالة المشهور هاميل كيست السويدي  
لم ير في المدينة غير عشرة أشخاص في القرن الثامن عشر اي بين سنة ١٧٤٩ و ١٧٥٢  
وقد خربت كثيراً بزلزال سنة ١٨٣٧ وبعدئذ ابتدأت المدينة تزداد عمراناً ونفوساً .  
وبالقرب من المدينة وعلى بعد سبعة كيلو مترات من جنوبها خزانات قديمة من عهد  
الفينيقين تسمى خزانات رأس العين فهذه الخزانات تسقي المدينة وتروي سهولها حتى  
ساحل البحر . وان لصور مرفأين اثنين . فالاول الصيداوي وهو الى الشمال وهو  
المرفأ الحالي ايضاً . والثاني المصري وهو الى الجنوب وهو اكبر من الاول . ولكنه  
لم يعد صالحاً لارساء السفن لامتلائه بالرمال . وبصلح المرفأ الصيداوي للسفن  
الصغيرة الحجم ويمكن تعميقه بنفقات قليلة . ولا يتأثر للبواخر الارساء بالقرب من  
ساحل البحر . وخط العمق ذوا الخمسة أمتار لا يبعد كثيراً عن مدخل المرفأ الصيداوي  
في حين ان هذا الخط يعتمد كثيراً عن بقية نقاط ساحل هذه المدينة .

\* \* \*

مرافئ صيدا } طم الاميرنغر الدين المعني مرفأ صيدا خشية مهاجمة الاسطول  
العثماني . ولما تولى الحكم احمد باشا الجزائر في عكا وقع  
بينه وبين القنصل الافرنسي اختلافات عديدة اضطر الافرنسيون من سكان صيدا  
ان يتركوا المدينة سنة ١٧٩٠ بدون ان يتمكنوا من أخذ أموالهم ولم يمض ثمانية  
أعوام آخر حتى أخرجوا منها مرة ثانية ، ومن ذلك العهد ابتداء شأنها يتضاءل .  
واتمد كان لصيدا قديماً مرفأ مكدبنة صور ، الاول في الشمال الغربي ، والثاني في  
الجنوب الغربي . ومرفأ الشمال الغربي هو المرفأ الحالي وهو ذو شكل مستطيل تحده  
شرقاً قلعة البحر والجسر الموصل بين هذه القلعة وبين الشاطئ . وتحيط بهذا المرفأ  
من الشمال والغرب سلسلة من الصخور . ومدخله الغربي المنحوت قديماً في الصخر لم

بعد صالحاً للاستعمال . اما مدخلة الشمالي فهو الذي يصلح وحده لاجتياز السفن .  
ولا يتجاوز عمقه الثلاثة أمتار . فلو نظف هذا المرفأ من الردم والانتقاض لعاد صالحاً  
لارساء البواخر . والسفن الكبيرة ترسي بعيدة عن الشاطئ على مسافة ١٣٠٠ متر .  
والمرفأ الجنوبي الغربي معرض للرياح الجنوبية الغربية والرواسب المتجمعة من مياه  
النيل كالمرفأ المصري في مدينة صور .

\* \* \*

بطلق الانكليز على خليج بيروت اسم سان جورج وهو يتجه  
مرفأ بيروت } نحو الشمال تأمن فيه السفن من الرياح الجنوبية والشرقية .  
اما الرياح الشمالية والغربية التي لا تصادف موانع طبيعية فهي تعصف عصفاً عظيماً  
في الشتاء وتحدث أمواجاً هائلة . وكان الامير نجرالدين المعني ردم مرفأ بيروت انشاء  
مداممة الاسطول التركي . ولما خلفت السفن البخارية السفن الشراعية رأت البواخر  
صعوبة حمة في هذا المرفأ وكثيراً ما كانت تضطره للارساء في عرض البحر كما هي  
الحالة في بقية سواحل الشام واقدم كانت تقضي اليومين والثلاثة لتتمكن من تفرغ  
شحنها . وكانت العواصف العجائية الشديدة التي تكثرت في السواحل الشامية تضطر  
السفن على الابتعاد عن الشاطئ خوفاً من ان تحطم بصخوره . وقد استمر الحال على  
هذه الصورة مدة طويلة . ولم يكن الامر خلال ذلك ذابال لانه لم يكن لمدينة  
بيروت مكانة في التجارة أحرزتها بعدئذ . فالعلة كانت واحدة في جميع السواحل .  
ولما استفاضت تجارة بيروت وزادت مكانتها بسرعة غريبة . وذلك بعد سنة ١٨٤٠  
اضطر ولادة الامر اذ ذلك ان يعبروا النقاتهم لمرفأها . ففي سنة ١٨٦٣ تقدمت  
شركة المساجيري مارينيم بخارطات لهذا المرفأ لاسم قيصري باشا حاكم مقاطعة  
صيدا ، وقدرت نفقات هذا العمل بـ ٦٣٧١٣٠٠ فرنك . ولم يسفر هذا التدرع عن نتيجة .  
وفي سنة ١٨٧٩ لم تُوفق بلدية بيروت التي قررت اخذ امتياز هذا المشروع لنفسها ،  
لان الحكومة لم تصدق على قرارها . وفي سنة ١٨٨٠ وضع وزير الاشغال العامة  
في الدولة العثمانية حسن فهمي باشا خارطة سنة ١٨٦٣ موضع النظر في تقريره عن  
الاشغال العامة ، وبالنظر لضرورة هذا المرفأ والمنافع التي ستجنيها عنه والاقتصاد



الذي بدأ من نهر بعلبعل فيه تقدم بعضهم للحصول على امتيازهم . ففي سنة ١٨٨٣ ظهر ثلاثة طلاب لهذا العمل ، وفي يد كل منهم الشروط الكافية والضمانات اللازمة ، وكان يظن ان شركة طريق بيروت - دمشق ستمتلك من إجابة طلبها ، ولم نزل هذا الامتياز بل ناله يوسف افندي مطران بإرادة سلطانية مؤرخة بـ ١٩ حزيران سنة ١٨٨٧ لمدة ستين سنة تُنهي في ١٩ تموز سنة ١٩٤٧ . وقد اشترط على صاحب الامتياز المباشرة بالعمل بعد سنتين وانجازها في خمس سنوات على ان يكون طول الرصيف ١٢٠٠ متر وان ينشأ سدان كبيران يحيطان بالمرافق ويبقى بين هذين السدين مدخل في عرض ٢٠٠ متر وعمق ثمانية أمتار وان تكون مساحة هذا المرافق السطحية على وجه التقريب ٢٣ هكتاراً . وقد بدأ في توسيعه في المستقبل .

واحتفظت الحكومة بحق ابتياع هذا المشروع بعد ثلاثين سنة ، واشترط المنشور السلطاني على السفن الداخلة الى المرافق أداء رسوم الدخول والرصيف او دفع نصف الرسوم اذا كانت السفن تدخل المرافق ولا تقترب من هذا الرصيف . وبعد هذا تم الاتفاق بين شركة طريق دمشق - بيروت وصاحب الامتياز . وقد تملك هذه الشركة في طلبها امتياز هذا المشروع رأساً . وفي سنة ١٨٨٨ تآلفت الشركة العثمانية للمرافق والأرصعة والمخازن في بيروت برأس مال خمسة ملايين فرنك تقسم الى عشرة آلاف سهم باعتبار كل سهم بـ ٥٠٠ فرنك . وكانت هذه الشركة افرنسية بجته فأشاع الانكيزان هذا المشروع عقيم جداً لعدم وجود خط حديدي بين بيروت ودمشق ، وان هذا الخط لا يمكن عمله لشدة الميل في جبل لبنان والجبل الشرقي لعدم وجود خط حديدي لنقل المحصولات بين المرافق الشامية وبيروت . وقد بوشر بالاعمال سنة ١٨٨٩ وقامت بانجازها شركة موزي وطونين . لوزي . واستخرجت مواد البناء اللازمة لهذا المشروع من نهر الموت نقلت على خط حديدي طوله ثلاثة كيلو مترات و٦٠٠ متر على ساحل البحر وسارت الاعمال اذ ذلك ببطء لمرض المالك بالمرض الوافد اذ ذلك . وأضررت الأمطار والسيول فأحدثت خسائر عظيمة . وقد جرى اتفاق جديد بين شركة المرافق وشركة الخط الحديدي بين بيروت ودمشق وهوران سنة ١٨٩٢ على ان تفرض هذه الشركة الأخيرة خمسة ملايين فرنك بفائدة مقررة

لشركة المرفأ . ورهنت هذه الشركة مقابل القرض جميع أبنيتها وأملاكها وآلات المرفأ وأدواته جميعها . وهناك شروط أخرى اشترطتها شركة الخطوط على الشركة المدينة ضماناً ، وكانت اذ ذاك شركة الخطوط نقشي<sup>١</sup> خطوطها مما وسع مجال الآمال في نجاح المشروعين معاً . وبعد انتهاء عمل المرفأ سنة ١٨٩٤ ومد الخطوط الحديدية لم تمض مدة وجيزة حتى ذهبت تلك الآمال فظهر نقص عظيم في تجارة بيروت . وأسباب هذا النقص عديدة ، منها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفأ ووزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البارج الحربية العثمانية الى المرفأ ، ومنها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفأ وادارة الجمارك بشأن رسم الجمالين والمخازن وتعيين حدود منطقة لشركة المرفأ ، ومنها زيادة رسوم الدخول للمرفأ بمادعا التي تحوлил قسم عظيم من الصادرات والواردات الى بقية المرفأ الشامية القريبة ، ومنها بعد المسافة بين منتهي الخط الحديدي دمشق - بيروت وبين المرفأ .

دُرست مصورات هذا المرفأ سنة ١٨٨٩ على طول كلو متر واحد من الساحل بين رأس الشامية ورأس المدور فاستطاعوا اقتطاع اراض واسعة من البحر مما ساعد على إنشاء رصيف يختلف عرضه بين ١٠٠ و ١٥٠ متراً . وبدأ أحد السدين من رأس الشامية ويمتد في عرض البحر مسافة ٨٠٠ متر . وينتهي آخره بسد صغير عمودي على هذا السد متجه نحو رأس المدور . واما السد الثاني فيبدأ برأس المدور ويتجه نحو السد الصغير المذكور فيقترب منه على مسافة ٢٠٠ متر . ويرتفع السد الاول وهو الاعظم طولاً وارتفاعاً خمسة أمتار عن سطح البحر . واما السد الصغير والسد الثاني فيرتفعان مترين عن سطح البحر . تقدر الزاوية التي تحدث بين السد الاول واستقامة الشاطيء بـ ٤٥ درجة تقريبا ، واما الزاوية الكائنة بين السد الثاني وذات الاستقامة فتقدر بـ ٦٠ درجة والعمق في منتصف المدخل ١٤ متراً ويتناقص بصورة غير محسوسة من منتهي السد الاول الى مبدئه اي يتناقص من ١٦ متراً الى اربعة أمتار ويختلف العمق قرب الرصيف بين ثلاثة وخمسة أمتار . وفي قرب السد الثاني بين ثمانية واثني عشر متراً . حتى لقد تمكنت المراكب الكبيرة من الدخول الى هذا المرفأ دون ان تستطیع نقرين شحنتها على الرصيف رأساً . ومساحة



المرفأ الذي تم عمله ٢٠ هكتاراً لا ٥٣ كما جاء في شروط الامتياز ولا يستوعب سوى ١٢ باخرة كبيرة في آن واحد .

\* \* \*

ان مدينة جونبة على عشرين كيلومتراً تقريباً  
 فرضتا جونبة وجبيل } من شمال بيروت آخذة بالارتقاء وقد قامت  
 داخل خليج كبير يصلح ملجأ للراكب الشراعية بل للسفن الكبيرة ايام اشتداد الانواء  
 ولهذا المدينة مرفأ صغير يمكن توسيعه بنفقات قليلة .  
 اما مدينة جبيل فهي في تأخر مستمر ولكنها ذات مكانة أثرية اكثر منها  
 تجارية وما استخرج علماء الآثار من الغربيين من مطاوي ارضها من العاديات النفيسة  
 دليل على ما كان لها في العصر الخالية من المكنة البحرية .  
 وقد حاول اللبنانيون اواخر الحكم العثماني ان يجعلوا من جونبة او البترون  
 او غيرها من المنافذ البحرية في لبنان مرفأ يستغنون به عن بيروت فلم يفلحوا . لان  
 ما وراء هذه المواني الصغيرة من القرى لا شأن له في استهلاك المتاجر ولا اتصال له  
 بمدن كبرى في الداخلية .

\* \* \*

ان مرفأ طرابلس غير صالح لارساء البواخر النخمة لذلك  
 مرفأ طرابلس } تبقى فيه بعيدة عن ساحل البحر نحو ١٢٠٠ الى ٢٠٠٠  
 متر . وقد بنت شركة الخطوط الحديدية مرفأ صغيراً قرب المحطة محفوظاً من جهة  
 البحر ومدت عليه خطوطها وانشاء مرفأ كبير في طرابلس من المسائل القديمة  
 العهد . لان شكل المدينة ملائم كثيراً لهذا العمل لوقوعها على الطريق بين جبال  
 لبنان والعلوين . تلك الطريق التي تمر منها سكة الحديد التي تصل طرابلس بحمص  
 وداخل الشام بصورة سريعة وسهلة مما لا مثيل له في بقية السواحل كبيروت مثلاً  
 لانها منفصلة عن الداخل بسلسلة جبال شائعة لا يمر لها الا من شواهد عظيمة .  
 تئلف مدينة طرابلس من قسمين الاول المدينة وهي تبعد عن الشاطئ ثلاثة  
 كيلومترات والميناء وهذا هو مرفأ المدينة . والسهل بين هذين القسمين غير صحي

ويتمه مرفأ الميناء نحو الشمال . وهناك جزيرتان صغيرتان تحفظان هذا المرفأ من الرياح الغربية ، والغربية الجنوبية . والسد القديم الممتد من الشرق الى الغرب يحفظه من الرياح الشمالية ايضاً . فموقع المرفأ اذاً يوافق إرساء السفن في كل وقت واذا اشتدت الانواء تجد هذه السفن ملجأً نيماً تأوي اليه . اما البواخر والبوارج التي تحتاج لعمق كبير فانها تضطر للارساء في عرض البحر بعيدة عن هذا الساحل .

\* \* \*

مرفأ اللاذقية } يقع مرفأ اللاذقية في سهل خصيب على مسافة نصف ساعة من البحر ، وهذا السهل غير صحي . وينجم خليج

اللاذقية نحو الجنوب فيرسم قوساً في شكل نصف دائرة وهذا القوس ينتهي من جهة الغرب بالرأس المسمى رأس اللاذقية . فمرفأ هذه المدينة معرض للرياح الجنوبية والغربية ، ويتأني لهذا المرفأ ان يكون ملجأً صالحاً للسفن لو لم يكن مغموراً بالرمال ، وقد ضاق مدخله كثيراً بسبب انقراض قصر قديم كان مشيداً هناك ، فالسفن العظيمة ترسو في عرض البحر والصغيرة التي لا تتجاوز حمولتها الـ ٣٠٠ او الـ ٣٥٠ طن تدخل المرفأ بسهولة وسط أعمدة من الرخام والحجَب من أطلال الآثار الغابرة . ولا يأتي انشاء فرضة لمدينة اللاذقية على طراز حديث بالفائدة المتوخاة لان عملاً كهذا يتطلب نفقات باهظة ، فالرسوم التي يقتضي وضعها واستيفائها لتسديد فوائد تلك النفقات تكون سبباً لتحويل قسم عظيم من تجارة هذه المدينة الى المدن الأخرى المجاورة لها . وعلى هذا فبناء المرفأ يأتي بنقص كبير في تجارة المدينة ويؤدي الى عكس الفائدة المطلوبة . وكانت الحكومة العثمانية وضعت خارطة بهذا المشروع وقد عارضها نفر كبير من الاهالي . ونرى ان انشاء طريق بين اللاذقية وحماة أجزل فائدة من إنشاء مرفأ اللاذقية .

\* \* \*

مرفأ الاسكندرونة } تُضرب الامثال بقذارة مدينة الاسكندرونة ومع هذا فقد اتخذت هذه المدينة منذ القرن

السابع عشر قاعدةً ومرفأً لتجارة حلب وما جاورها من البلدان وذلك لاستبدال



بعض حكام طرابلس في ذلك العصر ، وليست مدينة اسكندرونة بالبلد الزراعي ولا الصناعي ويعيش الاهلون من نقل البضائع .

يدخل خليج الاسكندرونة في اليابسة ثلاثين ميلاً في عرض عشرين ميلاً وموقعه الجغرافي يدعو الى تأسيس مرفأء بحري يكون من أعظم مرافئ البحر المتوسط . فالاسكندرونة بموقعها لها محسنات عظيمة . ومما اشتدت الرياح الهوج في عرض البحر فالامواج فيها خفيفة ثم ان الرياح الغربية قليلة الهبوب لمكان الجبال المرتفعة التي تعارض هبوبها . وشكل الارض في فاع البحر ملائم لان الخطوط المنحنية التي تمر من عمق ثلاثة واربعه وخمسة أمتار تحت سطح البحر يتباعد بعضها عن بعض بميل خفيف لذلك تصلح لتوسيع اراضي المرفأء . والمسافة بين المنحني المرسوم من عمق ٥ الى ١٥ تكفي لانشاء عامة لوازم المرفأء باحسن الشروط . ومواد البناء قريبة وكثيرة في أطراف المدينة . وفي مقالع الاسكندرونة كمية عظيمة من الاحجار الصالحة لبناء الاحواض في البحر ، والمدينة قابلة على أيسر وجه ان تصبح من كبريات المدن ويصلح الجبل المجاور لها لتأسيس مصايف جميلة وهناك عيون كثيرة تفيض ثرة ويقل مثيل لها في غيرها من المصايف الجميلة .

والاسكندرونة هي المرفأء الوحيد لمدينة حلب ، انطاكية ، كليس ، عينتاب ، مرعش ، اورفة ، البيرة ، ديار بكر . ولجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل . وهذا المرفأء اكبر مرفأء في الشام لانه يمكنه إرساء البواخر والاساطيل الضخمة . وكان وزير الاشغال العامة العثمانية حسن فهمي باشا قدّم تقريراً لاصلاح هذا المرفأء وانشائه ، وقدر النفقات بملیوني فرنك ذهبي . على ان عمل مرفأء في الاسكندرونة بقتضي إنجازہ وتجهيف المستنقعات المحيطة بالمدينة معاً وكانت قدر المشار اليه نفقات هذا العمل اي تجهيف المستنقعات المذكورة بنصف مليون فرنك ذهبي .

ان انشاء مرفأء عظيم مجهز باحدث الآلات في مدينة الاسكندرونة لا يفيد الفائدة المطلوبة الا يربطه بخط حديدي كثير الحركة يمكن بواسطته الاتصال مع الداخل الواسع الى ديار بكر فالموصل فبغداد فايران . ولذلك اقتضى ان يكون هذا المرفأء هو الطريق الطبيعي للتجارة مع اوربا والبحر المتوسط . ويقوم الخط الحديدي

الذي أنشأته شركة سكة حديد بغداد بين الاسكندرونة وطوبراق قلعة المتصل بالخط الاساسي بتسهيل المواصلات مع قليقية . وستحتمل تجارة هذه البلاد عن مرسين للاسكندرونة اذا جهزت هذه المدينة بفرضتها البحرية الحديثة . وستظل المواصلات مع حلب وما وراءها صعبة لان عمل سكة حديد بين الاسكندرونة وحلب عن اقرب طريق يقتضي له المرور من اعالي جبل أمانوس وجعل الميل شديداً على مسافة طويلة . واذا أريد تخفيف الميل يقتضي اطالة مدى الطريق فلا تخالف اذ ذلك المسافة بين الاسكندرونة وحلب في هذا الطريق الجديد عن طريق طرابلس ، حمص ، حلب من حيث المسافة عدا ان هذا أسهل من الاول . بقيت هناك طريقة أخرى للقيام بهذا المشروع وهي خرق الجبال التي تفصل بين الاسكندرونة وحلب بنفق لا يقل طوله عن عشرة كيلومترات تحت مضيق مدينة بيلان (بغراس) وهذا يستلزم نفقات كثيرة ربما زادت عن الفائدة المطلوبة الا وهي ربط حلب وضواحيها بالساحل البحري عن اقرب طريق . اما اذا نظرنا الى الاسكندرونة بصفتها مرفأً خاصاً لحلب فقط بل كما ذكرنا أعلاه للعراق وايران فتكون النفقة حينئذ مناسبة مع عظمة المشروع .

\* \* \*

الخطوط الحديدية } بقيت شبكة الخطوط الحديدية الشامية بأمرها  
صعوبات حمة فلم يتيسر اكثر عددها والاتساع

نطاقها . فسلسلة جبال لبنان تقضي باستعمال الخطوط المسننة . وهبوط اراضي الغور التي تنحدر بصورة شديدة تقرب من الشاقولية وتجعل منها حفرة عميقة تمنع سهولة المواصلات بين الساحل وشمس في نهر الأردن . فهذه الموانع الطبيعية في صورة الجبال اضطرت القائمين باعمال هذه الخطوط ان يعمدوا الى الخطوط الضيقة ذات الميل الشديد ، مما أدى الى كثرة النفقات في الانشاء وزيادة المنفق على الاستثمار في إنشاء هذه الخطوط . فالخطوط الحديدية في الشام التي تمكننا من الحصول على بعض الوثائق عنها وعن نبذة من تاريخها والشؤون المتعلقة بها هي على الصورة الآتية :



اولاً طريق بيروت - دمشق ، وبيروت - المعاملتين ، ودمشق - المزيريب ،  
ورباق - حلب ، وحمص - طرابلس الشام .

\*\*\*

خط بيروت - دمشق } لما كثرت حركة التجارة والنقل على طريق بيروت  
لم تعد تكفي المركبات ( الكارات ) ولا الحوافل  
( الداليجانس ) مع ما هي عليه من الانظام والسرعة فدعت الضرورة الى انشاء سكة  
حديد بين هاتين المدينين ، ولكن مشروعا كهذا يصعب تنفيذه لانه يفصل دمشق  
عن بيروت سلسلتان من الجبال الشاهقة لبنان الغربي ولبنان الشرقي وذلك بصورة  
متعامدة على الخط الواصل بين المدينين . وهذه الجبال ترتفع عن سطح البحر الى  
١٤٠٠ أو ١٥٠٠ متر على الاقل وبينها سهل البقاع الذي يرتفع هو ايضا من ٨٠٠  
الى ١٠٠٠ متر عن سطح البحر فيظهر مما تقدم شدة الصعوبات الكثيرة التي تعترض  
سير الخط قبل وصوله الى دمشق المرتفعة ٦٩٠ متراً عن سطح البحر اذ يقتضي على  
هذا الخط قطع هذه العوارض والسهول . وفي حزيران سنة ١٨٩١ استحصل السيد  
حسن بيهم امرا سلطانياً بامتياز خط حديدي بين دمشق وبيروت . وفي هذا الامتياز  
رخصة باستعمال بعض الاراضي مجاناً ، واعفاء جميع مواد البناء اللازمة من رسوم  
المكوس والضرائب بانواعها . ومن جهة أخرى فقد اشترط على صاحب الامتياز  
استعمال اللغة التركية وحدها ، واستخدام الرعية العثمانية ، ونظراً للحاكم العثمانية في كل  
اختلاف يحدث خلال العمل . والحكومة العثمانية تحفظ لنفسها بحق شراؤها هذا  
المشروع بعد ثلاثين سنة ، ودفع ثمنه اقساطاً على ان لا تكون قيمة القسط أقل من  
خمسين بالمائة من وسطي الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة ، كما أوجبت  
على صاحب الامتياز ان يؤسس شركة مساهمة عثمانية خلال ستة أشهر ، وان ينفق  
مع شركة طريق بيروت - دمشق للتخلي عن حقوقها وان يدفع عربوناً للحكومة  
مقابل هذا الامتياز . وفي العشر سنوات الاولى من مدة الامتياز يرجع صاحبه  
على سواه لانشاء ترامواي على مسافة ثلاثة كيلومترات من طريق الخط الحديدي

او تأسيس ادارة لتسيير عجلات او سيارات بين محطات الخط الحديدي والبلدان القريبة من هذا الخط .

وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠ حصل يوسف افندي مطران على امتياز خط حديدي بين دمشق وهوران . ولما لم يتم بتقديم مصورات المشروع خلال المدة المعينة سقط حقه من ذلك الامتياز . غير انه استعاده بعدئذٍ وأسس شركة بلجيكية باسم شركة ترامواي دمشق وخط دمشق - حوران برأس مال قدره اربعة ملايين فرنك ذهبي تقسم على ثمانية آلاف سهم ، سعر كل سهم منها ٥٠٠ فرنك . ومن جهة أخرى فان الشركة التي أسست للحصول على الامتياز الممنوح للسيد حسن بيهم سميت باسم الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت - دمشق الاقتصادي . وقد رأت هاتان الشركتان من الضرورة الماسة ان تندمجا معاً ولا سيما لما أحرزت شركة انكليزية امتياز خط حيفا - دمشق وذلك دفعاً للخطر المحتمل حدوثه من هذا الامتياز الاخير . وقد طلبتا الموافقة على ذلك الاندماج من الحكومة العثمانية التي قبلت بذلك بالمرسوم السلطاني المؤرخ في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٩١ الذي مدد مدة امتياز هاتين الشركتين الى ٩٩ سنة اعتباراً من ٣ حزيران سنة ١٨٩١ . وعلى هذه الصورة جعلت مدة الشركتين واحدة . وسميت الشركة الجديدة باسم شركة الخطوط الحديديّة العثمانية الاقتصادية لبيروت - دمشق - حوران في سورية . واعتبر تأسيسها نهائياً في صورة عثمانية اعتباراً من ٤ حزيران سنة ١٨٩٢ . وقد باعت شركة طريق بيروت - دمشق جميع حقوقها المحررة بالمرسوم السلطاني المؤرخ بـ ٣٠ تموز سنة ١٨٥٧ من هذه الشركة الجديدة . وذلك بتاريخ ٢ كانون الثاني سنة ١٨٩٢ وقد خصص لكل ذي سهم واحد في شركة الطريق سهان في شركة الخطوط . واستحصلت شركة المرفأ على مقعدين في مجلس ادارة شركة الخطوط للمنافع المتبادلة بين الشركتين . وصدرت ارادة سلطانية في ٢٥ تموز سنة ١٨٩٢ بتمديد ٤٩ سنة مدة امتياز شركة المرفأ وذلك لجعل مدة الشركات الثلاث متساوية . ولم تمض مدة قليلة حتى تبدل اسم الشركة للمرة الثالثة وذلك في الجلسة العامة المنعقدة في ١٣ تموز ١٨٩٣ والسبب في ذلك ان يوسف افندي مطران صاحب امتياز خط



دمشق - حوران قد حصل على امتياز جديد خط دمشق - حمص - حماة - حلب - البيرة (بيرهجك) . وعرض على الشركة هذا الامتياز الذي كانت تحلم به فصدرت ارادة سلطانية - في ٣٠ أيار ١٨٩٣ تمنح يوسف افندي مطران انشاء الخط المذكور واستثماره لمدة ٩٩ سنة . وعلى ذلك أصبح اسم الشركة الشركة المساهمة العثمانية لخطوط بيروت - دمشق - حوران - البيرة على الفرات وجعلت مدنها ٩٩ سنة لتنتهي في حزيران ١٩٩٢ وجرت مراسم افتتاح خط بيروت - دمشق في ٣ آب ١٨٩٥ .

هذا الخط هو من الخطوط الضيقة عرضه متر وخمسة سانشيمترات . وهو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسننة على مسافة ٣٤ كيلومتراً ، وطوله ١٤٧ كيلومتراً اما ميله فيصل الى سبعة بالمائة أحياناً ، ويحتوي على اربعة أنفاق (تونيل) لا يتجاوز أطولها الـ ٣٥٠ متراً فاستعمال الخطوط المسننة قد أبطأ سير القطارات ابطاءً غريباً ، مما جعل السرعة الوسطية لا تتجاوز الـ ١٦ كيلومتراً في الساعة ، ويقطع قطار الركاب المسافة بين بيروت - دمشق في تسع ساعات ، وتجتاز قطارات الشحن ذات المسافة في ١١ ساعة في حين ان الحوافل كانت تجتاز هذه المسافة ايضاً بـ ١٣ ساعة . وخط بيروت - دمشق يربح نفقات الاستثمار مع فائدة رأس المال . واليك جدولاً يحتوي اسماء المحطات ومقدار المسافات مع ارتفاع هذه الخطوط عن سطح البحر .

اسماء المحطات	المسافات كيلومتر	الارتفاعات متر
بيروت	٠	٠
الحدث	٧	١٥٠
بعيدا	٩	٢٤٢
جمهور	١٢	٣٨٠
عاريا	١٧	٣٨٠

الارتفاعات	المسافات	اسماء المحطات
متر	كيلومتر	
٧٥٠	٢١	عاليه
٧٥٠	٢٧	يحمدون
١٢٩٥	٣١	عين صوفر
١٤٨٧		« رأس جبل لبنان »
١١٥٠	٤٤	المرجعات
٩٥٠	٤٧	الجديدة
٩٥٠	٥٦	المعلقة
٩٠٠		« سهل البقاع »
٩٠٠	٦٦	رياق
١٣٢٨	٧٨	يحفوفا
١٤٠٥		« رأس جبل لبنان الغربي »
١٣٧٠	٨٧	سرغايا
١٢١٣	٩٨	الزبداني
١٢١٣	١١٥	سوق وادي بردى
١٢١٣	١١٩	دير قانوت
١٢١٣	١٢٣	عين النجبة
١٢١٣	١٣٠	الجديدة
٧٤٠	١٣٤	الهامة
٧٢٥	١٣٧	دمر
٦٩٠	١٤٤	دمشق - برامكة
٦٩٠	١٤٧	دمشق الميدان

\* \* \*



خط بيروت - } يسير هذا الخط الحديدي على شاطئ البحر ويمر بطريقه  
 المعاملتين } على بعض القرى الساحلية وأهمها بلدة جونبة ، وكان  
 القصد من انشائه وصل مدينة طرابلس ببيروت ، ولكنه لم يتم منه سوى ١٩ كيلومتراً  
 عند قرية المعاملتين وهو ملك لشركة الترامواي اللبناني .

\* \* \*

خط دمشق - حوران } جرى انشاء خط دمشق - حوران باهتمام  
 وسرعة زائدة وقد تم عمله سنة ١٨٩٣ وبوشر  
 باستثماره في أواسط سنة ١٨٩٤ ، ولم يصادف صعوبة عظيمة في انشائه فالـ ١٠٣  
 كيلومترات المتألف منها هذا الخط تمر في سهل خفيف التوج بين دمشق - المزيريب  
 والميل الاعظم فيه لا يتجاوز الاثنين بالمئة ، وهو من الخطوط الضيقة كخط بيروت -  
 دمشق اي في عرض متر وخمسة سنتمرات .

وكان لا يحصل الا على نفقات الاستثمار فقط اي انه كان لا يؤدي فوائد رؤوس  
 الاموال . ومن العوامل التي دعت الى عدم نجاحه بعد مرفاء بيروت عن منتهي الخط  
 الحديدي مسافة ٢٤٠٠ متر ولكن شركة الخطوط الحديدية انفتت مع شركة المرفاء  
 وشركة الترامواي اللبناني على وصل الخطوط الحديدية بارصفة المرفأ وذلك بتاريخ  
 ٤ شباط ١٨٩٧ وجرى بالفعل ذلك الوصل وبوشر باستثماره في سنة ١٩٠٣ وبلغ  
 طول هذا القسم ٢٢٠٠ متر وهو ابضاً من الخطوط الضيقة وقد كلف عمله جهوداً  
 عظيمة ونفقات باهظة . اما خط دمشق - المزيريب فقد اقتلعه القائد العثماني جمال  
 باشا اثناء الحرب العامة لاستعمال قضائه في إنشاء الخطوط الماطينية العسكرية  
 ولذلك أصبح هذا الخط من الخطوط التاريخية لانه لم يجر الى يومنا هذا ارجاء ،  
 الى ما كان عليه حتى ان الشركة الفرنسية صاحبتة لا تفكر بارجاعه على ما نظرت .  
 بعد ان وضعت يدها على ادارة الخط الحجازي . ولا يعقل بقاء خطين متوازيين  
 في منطقة واحدة .

\* \* \*

خط دمشق - حلب } كتب وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية  
 في تقريره سنة ١٨٨٠ لوصول مدينة حلب بديار  
 بكر بخط حديدي ماراً ببيرهجك واورفة . وكتب المهندس برسيل ايضاً في تخطيط  
 الطريق الحديدي ما يقرب من خطط الوزير العثماني على ان يكون في طول ٤٢٠  
 كيلومتراً وفي عرض (١٤٤) اي من الخطوط الاعتيادية . وفي تقرير الوزير  
 العثماني ايضاً خط حديدي بيندي من حلب الى حماة فحمص فدمشق فحوران .  
 وكان قدر نفقات كل كيلومتر واحد اذ ذلك ب ١٣٠ الف فرنك ، وطلت امتياز  
 هذا الخط شركة الباتينيول وأرسلت مهندسينها لوضع التصميمات اللازمة له . وفي  
 سنة ١٨٩٢ طلبت شركة عثمانية مؤلفة من اعضاء مسلمين امتياز هذا الخط من وزارة  
 الحربية وذلك لانشاء خط عسكري بدون ضمانة كيلومترية . ولكن صدرت الارادة  
 السلطانية بتاريخ ٣١ ايار ١٨٩٣ باعطاء الامتياز ليوسف افندي مطران وكيل  
 الشركة الفرنسية لخط بيروت - دمشق - حوران وعقدت المقابلة مع الوزير حسين  
 توفيق باشا ويوسف افندي مطران . وقد ذكر بصراحة في اول مادة لهذه المقابلة  
 ان القصد من عمل هذا الخط هو عسكري بحت . وعلى صاحب الامتياز ان يسير  
 حسب ما قرره وزارة الحربية من التخطيط وان ضابطاً من اركان الحرب سيقوم  
 بدرس هذا المشروع مع اللجنة المختصة لدرسه . وجعلت مدة الامتياز ٩٩ سنة  
 على ان يكون عرض الخط اعتيادياً (١٤٤) وان يكون مفرداً ويضاف اليه خط  
 ثانٍ في المستقبل . وفي الامتياز شروط أخرى تذكر عادة في المقاولات من  
 هذا النوع . كاعفاء المحروقات وادوات الخط جميعها من المكوس ووضع عربون في  
 خزينة الدولة مقداره ٢٢٥ الف فرنك . وانه يحق للدولة اشتراء هذا الخط ودفع  
 ثمنه اقساطاً على ان لا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمئة من وسطي الواردات  
 غير الصافية للخمس سنوات الاخيرة وان لا يكون المبلغ المدفوع أقل من سبعة آلاف  
 فرنك عن كل كيلومتر واحد . وقد ذكر ايضاً اربعة شروط أخرى ذات مكانة  
 عظيمة نذكرها فيما يلي :

(١) ان الشركة قد حصلت على حق استئجار المعادن الواقعة في طرفي الخط على



مسافة ٢٠ كيلومتراً من الجانبين . (٢) حصلت الشركة على ضمانات كيلومترية مضمونة بأعشار البلاد التي يمر منها هذا الخط . وهذا عكس جميع الخطوط الشامية . وان لا تكون هذه الضمانات أقل من مربعة بالمئة من رأس المال الموضوع للتأسيس وان لا تكون أكثر من ١٢٥٠٠ فرنك عن كل كيلومتر واحد .

وبما ان هذا الخط الذي أخذ امتيازاه ولم يجز انشاؤه يبلغ طوله أكثر من ٥٠٠ كيلومتر فأعظم ضمانات يقتضى على الحكومة العثمانية دفعها تتجاوز السبعة ملايين و ٢٥٠ الف فرنك ولما كانت النقليات قليلة على بعض نقاط هذا الخط فستضططر الحكومة لدفع هذا المبلغ برمته نقرهياً .

(٣) يحق للشركة ان تمتد خطوطها الى الشمال لنقطة واقعة بين بيهرجك حتى يتمكن من وصلها بخط بغداد ( المادة ٣ ) . (٤) تُرجع الشركة على مساوها للحصول على امتيازات جميع الخطوط التي تقرر الحكومة تمديدها بين الخط الامامي والسواحل الشامية بشروط متساوية ( المادة ٣٥ ) . وأخيراً وضع وزير المالية مبلغ مليون و ٨٠٠ الف فرنك بين يدي اللجنة الدولية للديون العامة لتأمين الضمانات الكيلومترية . وذلك في سنة ١٨٩٦ . وفي ١٢ تشرين الاول ١٨٩٦ انفتحت الشركة والحكومة العثمانية على تأجيل إنشاء هذا الخط مدة خمس سنوات . وتعمدت الحكومة بدفع تمسيط سنوي مقداره ٣٣ الف ليرة عثمانية ذهباً اي ٧٥٠ الف فرنك الى الشركة مقابل العطل الذي يصيبها من هذا التأجيل .

ومع هذا لم يتم انشاء هذا الخط الا لمدينة حلب فقط وجرى عمله على قسمين : الاول رياق - حماة . والثاني حماة - حلب . وطول القسم الاول وهو خط رياق - حماة ١٨٩ كيلومتراً بوشر باستثماره سنة ١٩٠٢ وعرضه متر واربعه واربعون سانتيماً ونصف ، وميله الاعظم اثنا عشر بالالف ، وفي رياق مخزن كبير للقمح ، ومعمل لاصلاح أدوات الخطوط والقاطرات ويعمل هذا الخط في بعلبك ١١٢٠ متراً عن سطح البحر . ثم يهبط الى حماة المرتفعة ٣٠٧ أمتار . اما القسم الثاني وهو خط حماة - حلب فيبلغ طوله ١٤٣ كيلومتراً جرى استثماره سنة ١٩٠٦ وعرضه متر واربعه واربعون سانتيماً ونصف ، وميله الاعظم اثنان في المئة . وقد كانت

القصد تمديده الى مدينة بيردجك كما تقدم ولكن اعطاء امتياز خط بغداد الى الشركة الاناضولية حال دون تمديده الى الشمال .

\*\*\*

خط حمص - طرابلس } طول هذا الخط ١٠٢ كيلو مترين ، وقد  
 شرع باستثماره سنة ١٩١١ ، وعرضه متر  
 واربعة واربعون سائمتراً ونصف ، ويميله الاعظم اثنان بالمئة ، واقتلعت قضبانه اثناء  
 الحرب الكونية العامة واستعملت في تمديد خط بغداد - نصيبين ، وخربت كثير من  
 المحطات وبعض الجسور خلال هذه الحرب ، وأعيد الخط الى ما كان عليه قبلاً  
 سنة ١٩٢١ وبلغت نفقات إعادته احد وعشرين مليون فرنك . وقد بلغت نفقات  
 استثمار خطوط شركة دمشق - حماة وتمديداتها عن سنة ١٩٢٦ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ، ٣٤٧  
 فرنكاً والواردات ٣٢٥ ، ٧٥٩ ، ٥٧٧ .

\*\*\*

طريق الحج وسبب إنشاء } كان المسلمون يلاقون صعوبات ومشقات  
 الخط الحجازي } في ذهابهم وإيابهم الى البلاد المقدسة لاداء  
 فريضة الحج في كل سنة ، فكان يستغرق سفر الحاج الشامي اربعين يوماً من دمشق  
 الى المدينة المنورة وعشرة ايام من المدينة الى مكة المكرمة . خمسون يوماً بقضيتها الحاج  
 بين دمشق والمدينة فسكة وعشرون يوماً على الاقل بمضيها في القيام بالناسك وزيارة قبر  
 النبي المعظم صلى الله عليه وسلم ويقضي خمسين يوماً في عودته . فهذه اربعة أشهر كاملة  
 للحج الشامي . اما التركي والارمني وغيرهم من اهالي الممالك الاسلامية الثانية فقد كان  
 يحاول الحول على أحدهم دين الوصول الى بغيته . وناهيك بما يعترض الحاج من مشاق  
 الأسفار وأهوالها وما يضطر لصرفه من النفقات الباهظة في هذه السبيل . وكان  
 كثير من الأغنياء بنقاعسون عن القيام بهذه الفريضة لعدم توفر الوسائط اللازمة  
 لراحتهم . فعمل خط حديدي الى البلاد المقدسة كان من الضرورة بمكان .  
 كان الحجاج المسلمون يأتون الوقاً من جميع الأقطار الاسلامية الى دمشق  
 ويجمعون فيها انتظاراً لسفر موكب الحج وكان يتألف هذا الموكب في دمشق ويسير



منها متجهاً نحو البلادة قدسة تحت إدارة حاكم عثماني بلقب بامير الحج . ان قافلة كهذه يصعب جداً سيرها بدون ان نظام شديد وكانت تتألف من مشاة وفرسان وهجانة وحمارة يقدر عددها بعشرة آلاف نسمة وعشرين الف دابة على الأقل . ولذلك كانت طاعة امير الحج واجبة على جميع الحججاج ليسهل عليهم قطع هذه الطريق المملوءة بالأخطار والمصاعب دون ان يتحركوا احداً على الطريق او أسيراً بين ايدي البدو . وكان هؤلاء يشورون على الحكومة من وقت الى آخر ، وبواسطة الهدايا التي كانت يرسلها السلطان لقبائل البدو والعطايا التي يمن بها على شيوخهم كانت أطراف دمشق آمنة سالمة ، وكان لا يخشى وقوع حوادث بالقرب منها ، ولذلك كانت القافلة غير مضمونة الان نظام الاجوار بلدة المزيريب في حوران .

وكانت العادة ان يرحل امير الحج من دمشق في الخامس من شهر ثوال في ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالاسلحة الكاملة والمدافع الصغيرة ويتبعه الحججاج زرافات ووحدانا . والدمشقيون يقومون بتشجيعهم الى قبر احمد باشا في الميدان اي الى جامع العسالي ، ويجري المراسم العسكرية والاحتفالات تكريماً لهذا الركب العظيم ، وكانت الحكومة في دمشق تهتم اهتماماً زائداً بتشجيعه ، ويسير الموظفون وأصحاب الرتب العالية بالبستهم الرسمية امام المحمل الشريف تحيط بهم صفوف الجند وهجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان ، وكانت الموسيقى تصدح اثناء الموكب والمدافع تطلق حين خروجه وعند وصوله الى القدم والكل فرحون مسرورون من هذا اليوم العظيم .

وبعد ذلك يسير الركب من القدم الى الكسوة وهناك يجذ ماء صالحاً للشرب ثم يسير الى المزيريب فيبقى فيها اربعة او خمسة ايام وعندئذ يتألف الركب عسكرياً وعلى رأسه امير الحج فيسير قسم من الجيش في المقدمة والقسم الآخر يقوم بحفظ جناحي الركب . وفي كل صباح ومساء تطلق ثلاث طلقات نارية اعلاماً بوقت المسير والوقوف وكثيراً ما كان يبلغ طول هذا الركب ثلاثة او اربعة كيلومترات . واما الدرب الذي كان يسير عليه فهو عبارة عن عدة طرق صغيرة حفرتها ايدي الابل والدواب طول السنين ولا يوجد طريق مرسوم على الطريقة الفنية الحديثة المعروفة اليوم .

وكانت المسافة بين دمشق ومكة المكرمة تقدر بأربعمئة وتسعين ساعة وباربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب الى معان .

و يجناز الركب من المزيريب الى المفرق وعين الزرقاء والبلقاء والقطرانة وهنا يشتد عليه الدرب صعوبة و يدب الرعب والخوف في قلوب الحجاج ذلك لانه كانت المضايق غاصة بعصابات من اللصوص . والماء الشروب قليل . وكثيراً ما كانت السيول تجرف الركب باجمعه فلا ينجو منه الا الحجاج فقط ، فاذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلاً ويتابع سيره فيقطع العقبات المؤدية الى النفود ، وهذا المضيق الصعب يبعد ثلاث عشرة ساعة عن معان ، فيترجل الحجاج عن دوابهم و يسبرون مشاةً أمام امير الحج الذي يصعد على رأس جبل صغير و يجلس مشاهداً الجموع تمر أمامه . وبعده ذلك يسير الركب ولا يشاهد في طريقه سوى الرمال في سهل النفود القاحل حتى مدائن صالح مدة ١١٤ ساعة . وكثيراً ما يشاهد الحجاج مراب هذه الرمال الجميلة عن بعد . ففي هذه الطريق الصعبة وبين هذه الرمال المحرقة يسرع الركب تخلصاً من النصب والتعب ، فيوزع امير الحج على الحجاج المياه للشرب مجاناً و يستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخيري ، وكل ذلك لم يكن يجدي نفعاً . ولطالما حدثت اختلافات بين الامير والبدو فنقع المصيبة على رأس الحجاج والركب معاً على ما وقع ذلك كثيراً فيملاً الخوف والرعب قلوب الحجاج طول الطريق فيتحدثون بهذه الحوادث الخفيفة التي وقعت في السنين الماضية و يعلم بعضهم بعضاً بحالها ومواقعها و يذكرون ما كان يتنبعها من أعمال السلب والنهب .

ان مدائن صالح أخف صعوبة من البلاد التي قبلها وأقل خطراً منها . وفيها كثير من الآثار القديمة النبطية . فنهنا يسير الركب الى المدينة المنورة وبعدها الى مكة المكرمة واكثر الاراضي الحجازية مؤلفة من جبال وأودية وقليل من الواحات فالطريق التي يتبعها الركب هي طريق صعبة . وفيها آبار منقطعة وليست بجيدة . وهناك ايضاً درب آخر يقال له الدرب السلطاني وهو الدرب الأقصر طولاً ولكنه أشد خطراً . فالحجاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو على الحكومة . هكذا



كانت حالة الطريق المؤدية الى البلاد المقدسة وهذه هي المشقات التي كان يلاقها  
الحجاج في طريقهم .

\* \* \*

وهذا مادعا الحكومة العثمانية في ضرورة اتخاذ  
التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات والحيلولة  
} انشاء الخط الحجازي  
دون الاسباب التي كانت تفلق راحتها في الداخل وتظهرها بمظهر العاجز في الخارج  
أمام دول الغرب . لاسيما وان السلطان عبد الحميد الثاني كان حراً جداً على توسيع  
نفوذه المعنوي في جميع الممالك الاسلامية خدمة للاسلام وتوصلاً لغاياته السياسية  
لذلك فقد قرر سنة ١٩٠٠ مد خط حديدي يصل الشام بالحجاز ويسهل السفر على  
الحجاج وبأقرب الفوائد المادية والمعنوية على البلاد والدولة . على ان هذه الفكرة لم تكن  
بنت وقتها وليست وليدة رأس عبد الحميد فقد سبقه اليها الدكتور زامبل الاميركي  
الالمانى الاصل فاقترح سنة ١٨٦٤ على الحكومة العثمانية مد خط حديدي بين  
دمشق وساحل البحر الأحمر .

وفي سنة ١٨٨٠ صححت عزيمة وزير الاشغال العامة في الاستانة على تمديد هذا الخط  
الى الاراضي المقدسة . ولكن اكثر المهندسين والجغرافيين كانوا يقولون بتعذر تنفيذ  
هذا المشروع . لان البلاد التي يجتازها هذا الخط ينزلها قبائل من البدو الرحالة الذين  
اعتادوا السلب والنهب . وسهولة المواصلات بالوسائط البحرية ورخصها اكثر من  
البر . وقالوا ان الريح الذي يحصل من نقل الحجاج اثناء الموسم لا يكفي للقيام بجميع  
التفقات السنوية لهذا الخط العظيم . ولكن كانت هذه الصعوبة في نظر السلطان  
عبد الحميد أخف مما يتصور . فادارة الحج وتفقات السفر كانت تستنزف من موازنة  
الحكومة مبلغ ١٥٠ الف ليرة عثمانية على الاقل . والهدايا التي ترسل الى البدو  
تقوم بـ ٦٠ الف ليرة عثمانية . وكان السلطان عبد الحميد يأمل من جهة أخرى  
وصول مبالغ عظيمة من الامم الاسلامية اعانة لهذا المشروع الاسلامي ولم تبدأ  
الحكومة بالعمل الا بعد ان أعلنت عزمها على ذلك في جميع الاقطار الاسلامية  
ما هو داخل تحت سيطرتها او خارج عنها . وأبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد

الحج واستمطرت أكف المسلمين تعضيداً لهذا المشروع الديني المحض . فتحقق أمل الدلمات وبدأت الاكتنابات تزد من جميع البلدان الاسلامية وقد افتتح هو نفسه هذه الاكتنابات بـ ٣٢٠ الف ليرة عثمانية ، وتابعه في ذلك الملوك والامراء المسلمون . فشاها العجم أرسل ٥٠ الف ليرة عثمانية وخبديوي مصر تعهد بارسال كمية عظيمة من مواد البناء والانشاء . وألفت في البلاد الاسلامية الخارجة عن حدود الدولة العثمانية كثير من الجمعيات لجمع الأموال ، فألف الهنود ١٦٦ جمعية وأهالي لكنو وخدم أرسلوا ٣٢ الف ليرة عثمانية وكذلك أهالي رانكون ومدراس أرسلوا ايضاً ٧٣ الف ليرة ، وأرسل الميرزا علي احد أغنياء كلكتا خمسة آلاف ليرة وأرسل مدير جر بدة الوطن في لاهور ٥٠٠٠ ليرة وذلك من الاكتناب الذي فتحه في جر بدته واشترك فيه الهنود والترانسفاليون والصينيون . ولم نقطع الاعانات مدة انشاء الخط مما دل على سريان روح التضامن في الشعوب الاسلامية .

والاغرب من هذا ان احد النمسو بين دفع ٢١٠٠ ليرة عثمانية ليحصل على لقب (باشا) . وقد جعلت شارات وأوسمة لمن يدفع الاعانات . فالدرجة الثالثة لمن يدفع من ال ٥ ليرات الى ٥٠ ليرة . والدرجة الثانية لمن يدفع من ال ٥٠ الى ١٠٠ ليرة . والدرجة الاولى لمن يدفع أكثر من ١٠٠ ليرة ذهبية . وهذه الطريقة كانت نافعة لولا ان هذه الرتب والاوزمة كانت تباع في الاستانة باقل مما نناقضه دوائر الخط الحجازي . ثم وضعت بعض الضرائب لاعانة الخط ونزل الموظفون عن راتب شهر كامل في بادئ الامر ثم أكره الموظفون على دفع عشر راتبهم الشهري في السنة مرة واحدة . وحدثت طواع الخط الحجازي وبعض الضرائب الجزرية لمنفعة هذا الخط كما جمعت ادارة الخط جلود الاضاحي من الناس تبهمها وترفق بثمنها . مما دعا قنصل انكلترا الى ان يصرح سنة ١٩٠٤ قائلاً : يظهر لي ان احتمال اكمال الخط الحجازي هو أعظم مما كنت أتصور قبل سنة او سنتين . والحقيقة ان أكثر الناس كانوا اذ ذاك وخصوصاً المطلعين على هذا الامر يظنون ان عملاً كهذا هو أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . واذا لم يتم هذا المشروع الى مكة المكرمة ووقف عند المدينة المنورة فذلك لم يكن منبعثاً من قلة المال لان المال أصبح وافراً بعدما كان يخشى من قلته و يظهر ذلك



من الاطلاع على موارد هذا المشروع . فالأخصائيون لا يظنون الآن ان النفقات العامة تتجاوز ١٢٥ مليون فرنك اي خمسة ملايين ونصف ليرة عثمانية . في حين انه كان يظهر في بادئ الامر ان هذا المبلغ هو الحد الاصغر لهذا العمل . فقد جمع من الاعانات في البلاد الاسلامية ٢٥٠ الف ليرة عثمانية اي ١٧ مليون فرنك . والضرائب التي وضعت تضمن مورداً قدره ٢٥٠ الف ليرة سنوياً . فهذا المبلغ يسد نفقات الانشاء . والاعانات تساعد على شراء المواد اللازمة اه .

وفي الواقع انه لم يكن احد يتصور ان النتيجة ستكون قرينة التناول بهذه الصورة وان العمل سيتم على هذه السرعة وهذا النظام لطول المسافة ، وفقدان المياه ، ووعورة المسالك ، وفقر الدولة وضعفها الاداري ، ولكن المشيئة الالهية قد ذلت كل هذه الصعاب ووفقت الى إنجازها ليكون نقطة اتصال بين الاقطار العربية الاسلامية وواسطة مباركة لتوفير راحة الحجاج وتسهيل مسالك الحج والزيارة .

كان استعمال الاعانات منظماً تنظيمياً حسناً ، فقد وزعت الاجور على العمال والرواتب على الموظفين بصورة منظمة ، ودفع ثمن الادوات ومواد الانشاء في الحال . مما دعا الناس ان يؤمنوا بانجاز هذا المشروع . وقد كان سير العمل سريعاً . فكانوا يمدون مائة كيلومتر في كل عام . بهد ان احد المقربين من السلطان عبد الحميد احمد عزت باشا العابد مع لجنة الحجاز كانوا يديرون الأموال على طريقة غير مرضية فتسربت الملايين الى جيوب اللصوص والخونة ، فأدى سوء الاستعمال في مواد الانشاء لاضاعة كثير منها . وكان هؤلاء المقربون يحمون بعض رجالهم الذين يتقدمون في صورة ملتزمين وينقدونهم الأموال الزائدة ويعينون بعضهم في وظائف في الادارة .

شرع بانشاء الخط الحجازي في شهر ايلول سنة ١٩٠٠ . مبتدأ به من المزرب لان بين دمشق وهذه القرية سكة حديد افرنسية يمكن نقل الحجاج من الشام الى المزرب عليها لاسيما وان امتياز هذه السكة لا يجيز انشاء سكة أخرى تحاذيها ، وما كادت الحكومة تمضي في عملها حتى بدأت المنافسة تشتد بين الادارتين فشعرت الحكومة العثمانية حينئذ بشدة الحاجة الى اتصال الخط الحجازي بمدينة دمشق .

وقررت انشاء خط درعا - دمشق وبوشر بالعمل من دمشق والمزيريب دفعة واحدة .  
وفي سنة ١٨٩٣ نالت الشركة الافرنسية امتيازها ولم يكن السلطان عبد الحميد  
الثاني يفكر في خطه المقدس . ولذلك كان سمح لها بوضع سكة حديد بين دمشق  
والمزيريب وبوشر باستثمارها منذ سنة ١٨٩٤ فانشاء سكة حديدية موازية لخطها من  
دمشق الى درعا يجعل المنافسة على أشدها ولذلك احتجت الشركة على هذا العمل فتمكنت  
من نيل امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلومترية وذلك في شباط سنة ١٩٠٥ .  
وقد افتتح القسم الاول من الخط الحجازي اي دمشق - درعا في ايلول ١٩٠٣  
وبعد ذلك بشهر واحد افتتح قسم درعا - عمان وتيسر لادارة السكة الحجازية في  
أقل من ثلاث سنين مد ٢٢٣ كيلو متراً .

يتجه الخط الحديدي الحجازي بعد خروجه من واحة دمشق نحو الجنوب الشرقي  
في استقامة سهل حوران فيمر بالمسمية أم قرى الجبلة ثم يقطع هذا الخط سهل حوران  
الخصيب برتمته وهو يمتد الى سفح جبل الدروز و يصل الى محطة درعا الواقعة في وسط  
السهل وهي على ١٢٣ كيلو متراً عن دمشق ومن درعا يتفرع فرع حيفا متجهاً صوب  
الغرب فيصل البحر ، واما الخط الاسامي فيبقى مستمراً في طريقه نحو الجنوب .  
من أم الفوائد التي جنبت من امتداد هذا الخط ان كثيراً من البدو سكنوا تلك  
الربوع بالقرب من مخافر الجنود العثمانية وامتلك عدد عظيم من مهاجري الشركس  
الذين كانوا تائهين في شمالي الشام بعض الاراضي هناك وأسسوا القرى والمزارع  
فيها . وكل هذا العمل لم يكلف أموالاً باعظة بالنسبة لغيره من المشاريع . وكانت  
القطارات في نهاية سنة ١٩٠٣ تسير الى مسافة ٣٠٠ كيلومتر من دمشق وبلغت  
اكاليف الكيلومتر الوسطي حينئذ ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية . ولما بدأت المنافسة بين  
السكة الحجازية والسكة الافرنسية شعر السلطان عبد الحميد ومهندسوه بشدة الحاجة  
الى اتصال الخط الحجازي بمرفاء بحري يستمد منه لوازمه وأدواته ويكون منذاً  
للاقطار الواسعة التي سيمتد فيها فقرر انشاء خط حديدي جديد بين حيفا ودرعا .  
والناظر الى خارطة البلاد الشامية يرى لاول نظرة مكانة خليج عكا فسلالة  
الجبال الممتدة من مصب نهر العاصي الى ترعة السويس وهي بمثابة سد عظيم بين



الساحل والداخل وليس فيها سوى بعض منحدرات كسهل طرابلس وبيروت ومصب الليطاني اي القاسمية وخليج عكا . وأعظم هذه المنحدرات وأهمها الانخفاض الواقع قرب عكا . ان سلسلتي لبنان الغربي والشرقي المتوازيين تمتعا بالمواصلات مع الداخل منعاً بتهلاً لارتفاعها . وبالطرق الفنية اتصلت دمشق ببيروت وهكذا الشأن في الانخفاض في جوار بحر لوط فانه يعوق المواصلات مع الداخل ايضاً . فلم يبق اذاً سوى مهمل عكا الذي يسهل المرور منه الى الداخل . ولذلك كانت عكا وحيثما في العصور القديمة والقرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر مرفأين طبيعيين لحوران ودمشق . وقد رأى كثير ممن بعينهم الامر وصل دمشق وحيثما بخط حديدي لسهولة هذا الطريق كما يبناء آنفاً . وكان الانكليز أشد الناس رغبةً بنيل امتياز هذا الخط وخصوصاً بعد احتلالهم جزيرة قبرس . وقد تمكن أبناء مرسق من أعيان بيروت من استصدار منشور سلطاني يمنهم حق انشاء خط حديدي بين عكا — دمشق . ولكنهم لم ينجحوا إذ ذاك في عملهم لتعذر معاونة أرباب الأموال في انكلترا . فحسروا العربون الذي دفعوه الى خزينة الدولة وقدره خمسون الف فرنك .

وفي سنة ١٨٨٩ طلب ( م . ف . الياس ) رأس المهندسين في لبنان هذا الامتياز مجدداً مع تمديد الخطوط الى حوران فلم يفلح ايضاً . وقد انقضت المدة ولم يُعمل عمل بهذا الشأن الى ان نال الامتياز المهندس اللبناني والمستر بيلنغ من التبعة البريطانية وأسس شركة الخطوط الحديدية الثمانية للشام برأس مال قدره ٦٠٠ الف ليرة انكليزية . وبوشر بالعمل سنة ١٨٩٢ ثم توقفت الاعمال بعد الكيلومتر التاسع لان أفكار أرباب الأموال من الانكليز كانت متجهة نحو معادن الذهب . فجاءت حرب الترانسفال وانصرفت أفكار الانكليز كل الانصراف اليها مما أدى الى ترك العمل بتهلاً .

فلما قرر السلطان عبد الحميد وصل الخط الحجازي بمرقاً حيفاً كما ذكرنا قبلاً رأى من الضرورة استرجاع هذا الامتياز وذلك سيف تشرين الثاني سنة ١٩٠٢ . وتمكن مهندسو عبد الحميد من عمل خط حيفاً والخط الحجازي بعد استلامهم الأعمال التي تركها الانكليز . بيد انهم لم يتخذوا الخط الانكليزي أساساً بل تركوه

وشأنه وجملاو خطهم الجديد خطأ ضيقاً كالخط الحجازي وتمكنوا من الوصول الى درعا نقطة اتصال هذين الخطين باقل من ثلاث سنوات بالرغم مما اعترضهم من الصعوبات العظيمة أثناء عملهم . وقد كلف هذا الخط من سبعة الى ثمانية أضعاف المعدل المتوسط لنفقات الخط الحجازي . وحقاً ان هذا القسم كان أهم قسم من الخط الحجازي وأحسنه من الوجهة الفنية اذ كانت لتخلله صعوبات فنية لا توجد في سواه . وبتتدي هذا الخط من حيفا على ساحل البحر فيرتفع ٨٠ متراً في مرج ابن عامر بعد سير ٤٠ كيلو متراً . ثم يهبط من اعلى هذا السهل الى أسفل وادي الشريعة ليبر فوق جسر ينخفض مقدار ٢٤٦ متراً عن سطح البحر . وذلك بعد قطع مسافة ٤٥ كيلو متراً . ثم يعود فيصعد من جديد الى ارتفاع ٣٧٦ متراً وذلك بعد مسافة ٤٠ كيلومتراً . ثم يصل الى سهل درعا المرتفع ٥٣٠ متراً عن سطح البحر . فكل هذه التوجات من الصعود والهبوط قد اتضت قطعها على مسافة ١٦٨ كيلومتراً . فالقضية صعبة بنفسها وخصوصاً ان وادي اليرموك الواقع في الجهة الشرقية من نهر الشريعة كان شديد الخطر وليس من عمر سواه في تلك البقاع . وبذلك تمكن السلطان عبد الحميد ومهندسوه من الخلاص من شركة بيروت - دمشق - حوران وأصبح لهم مرفأ خاص وهو حيفا التي أصبحت تبعد عن درعا ٣٢٣ كيلومتراً بالقطار . وبين درعا وحيفا ستة جسور حديدية اثنان منها بطول ٥٠ متراً والاربعة الآخرون بطول ١١٠ أمتار . ويوجد سبعة أنفاق يختلف طولها بين الـ ٤٠ والـ ١٧٠ متراً . والخط يقطع نهر الشريعة على جسر من الحجر جميل المنظر والصنع طوله ٦٠ متراً وهو ذو خمس قناطر .

وفي الوقت الذي نجح فيه خط حيفا - درعا تم القسم الثالث من الخط الحجازي الواقع بين عمان - معان . ففي اول ايلول سنة ١٩٠٤ المصادف للعيد الثامن والعشرين من الجلولس السلطاني ذهب وفد برئاسة طرخان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازي بين دمشق ومعان وطول هذا القسم ٤٥٩ كيلومتراً . وكان هذا الوفد مؤلفاً من عظماء رجال الدولة العثمانية . ان الخط الاسامي بعد محطة درعا يسير نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الجنوب



مباشرة فيمر من سهل قاحل تنزل فيه عشيرة بني صخر المؤلفة من ٢٠٠٠ بيت و٢٠ الف نسمة وبعد ان يقطع « الحجاد » اي السهل المنبسط يمر بالقرب من أطلال الحصون الرومانية القديمة التي يسميها العرب اليوم قلعة المفرق وقلعة السمرة .

اما بقايا مدينة جرش القديمة وآثارها وسورها فتبقى في غربي الخط الحجازي . وهذه الآثار هي أكمل وأعظم ما يوجد في تلك البقاع من نوعها . وفي القرب من قلعة الزرقاء الرومانية يقطع الخط وادي نهر الزرقاء على جسر مرافع جميل الصنع . ثم يصعد الخط في وادي نهر الزرقاء ويصل الى عمان بالقرب من نبع هذا النهر وذلك بارتفاع ٧٣٧ متراً عن سطح البحر وعلى ٢٢٣ كيلومتراً عن دمشق .

وبعد الخروج من عمان يتجه الخط نحو الجنوب صاعداً سهل الصحراء المائل فيمر من نفق طوله ١٤٠ متراً ويترك بجانبه كثيراً من الآثار القديمة منها المعبد اليوناني في قصر السهل . والمدينة القديمة في أبن وكذلك الخزان الروماني والقصر العربي في الجيزة او قلعة الزيزاء . وقبل ان يصل الخط الى قلعة ضبعة يميل نحو الشرق ويلتف باطراف وادي الموجب وبعد ذلك يتجه ايضاً نحو الجنوب فيمر من خان الزيت وقلعة القطرانة وقلعة الحسا وجروف الدراوش التي تحتوي على قصر روماني بديع ومن قلعة عنزه التي تقطن فيها أحياناً قبيلة عنزة المؤلفة من ٧٠٠٠ نسمة . وبعد قلعة الحسا تبدأ الارضون التي تنزل فيها قبيلة الحويطات . ثم يصل الخط الى معان المرتفعة مقدار ١٠٧٤ متراً عن سطح البحر . وهذه المدينة هي النقطة الوسطى للخط الحجازي لانها تبعد عن طرفيه على أبعاد متساوية والمحطة تبعد كيلومترين عن مدينة معان . وفي هذه المحطة أبنية عديدة للسكة الحجازية . وبفضل وصول الخط الحديدي الى تلك البقاع استتب الامن فيها وبدأت الحياة الزراعية تظهر شيئاً فشيئاً . وقد تحضر قسم من البدو وأصبحت تلك الديار في قبضة الحكومة الثمانية بعد ان كانت تابعة لها بالاسم فقط بحيث ان احد شيوخ البدو المدعو محمد جهل كتب الى بيلرلوتي الكاتب الفرنسي المشهور سنة ١٨٩٤ « بسم الله الذي هو الكل ولا باسم سلطان القسطنطينية الذي ليس بشيء » .

وكان قصد القائمين بهذا المشروع الجليل انشاء فرع للخط بين مدينة معان

Handwritten text in a cursive script, likely a letter or a page from a manuscript. The text is arranged in approximately 25 horizontal lines, filling most of the page. The ink is dark and the paper shows signs of age, including some discoloration and faint smudges. The handwriting is consistent throughout, suggesting a single scribe. The lines are closely spaced, and the overall appearance is that of a formal or personal correspondence from a past era.



The first part of the book is devoted to a general introduction to the subject of the history of the world, and to a description of the various methods which have been employed by historians in the collection and arrangement of their materials.

The second part of the book is devoted to a detailed account of the history of the world, from the beginning of time to the present day. This part is divided into several chapters, each of which deals with a different period of history. The chapters are: 1. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day. 2. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day. 3. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day.

The third part of the book is devoted to a detailed account of the history of the world, from the beginning of time to the present day. This part is divided into several chapters, each of which deals with a different period of history. The chapters are: 1. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day. 2. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day. 3. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day.

The fourth part of the book is devoted to a detailed account of the history of the world, from the beginning of time to the present day. This part is divided into several chapters, each of which deals with a different period of history. The chapters are: 1. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day. 2. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day. 3. The History of the World from the Beginning of Time to the Present Day.

وهذا لا يمنعنا من البحث عن الطريق المناسب لمد الخط الحديدي بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، عسى ان ننهض البلاد العربية من كبوتها فيقوم ابناؤها باتمام هذا المشروع الحيوي لبلادم المحبوبة .

ان الطرق الممتدة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة التي يصلح السير عليها هي ثلاث او ثنتان اذا اعتبرنا الثالثة فرعاً للثانية . فالطريق الاول هو الشرقي الذي يصل المدينة المنورة بمكة المكرمة رأساً وهو بعد ١٥٠ كيلومتراً عن شاطئ البحر الأحمر وهو يمر من أعالي الجبال بين موانع عديدة يصعب سير الدواب المحملة عليها ولذلك فان قوافل الحجاج لا ترجح المسير عليها وان كانت أقصر الطرق . واما الطريق الثانية فهي السلطاني الذي يتخفف من المدينة المنورة نحو ساحل البحر الأحمر الى مرفأ رابع ومنه يعود فيصلعد الى مكة المكرمة . ويوجد طريق آخر بين المدينة ورابع ينقص طوله ٦٠ كيلومتراً عن الطريق السلطاني و يسمى الطريق الفرعي لانه لم يخرج عن كونه قسماً من الطريق الثانية .

ان قوافل الحجاج ترجح السير على الطريق السلطاني لمكانته الرسمية والتاريخية ولسهولة المواصلات عليه وعلى هذا فالخط الحديدي المنوي انشاؤه بين المدينتين المقدستين لا يصلح عمله الا بالقرب من الطريق السلطاني وعلى طوله مرفأ رابع الذي يقع على شاطئ البحر الأحمر يسكنه ٣٠٠٠ نسمة وهو على مسافة ١١٢ كيلومتراً من شمالي جدة . وليس ثمة من صعوبة في انشاء هذا الخط لعدم وجود موانع طبيعية كما ان المياه غزيرة على طول الطريق على العكس في الطريق الشرقية . بقي مبدأ الخط الحجازي حتى سنة ١٩٠٨ في منبهي محلة الميدان بدمشق بالقرب من قرية القدم . وقد بُنيت بعد هذا التاريخ محطة القنوت الواقعة في غرب مدينة دمشق على طراز عربي حديث وبشكل جميل يتناسب مع عظمة هذا الخط المقدس ، ومهندس بناء هذه المحطة هو المهندس المعمار الشهير السيد داراندا فنصل اسبانيا وهولاندا في دمشق وهو صاحب الايادي البيضاء على تزبين المدينة وعمرانها . وبالقرب من محطة القدم معمّل كبير خُصص لاصلاح القاطرات والشاحنات وصب الآلات الحديدية وأعمال النجارة والتدهين . فالأبنية الخاصة



بالمعمل والمخازن تشغل سطحاً من الأرض تبلغ مساحته ١٠٦٠٠ متر مربع . وقد بلغت نفقات إنشاء هذه الابنية مليون فرنك . وبُنيت في محيط تبلغ مساحته ٥٣ الف متر مربع . أنيرت جميع هذه الابنية مع الساحة بالأنوار الكهر بائية .

\*\*\*

أخط الحجازي في عهد  
العثمانيين وبعدهم } كان الخط في عهد الحكومة العثمانية يدار في جميع أدواره بموازنة مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار انه وقف اسلامي . وكان في البدء مرتبطاً بلجنة عليا في الاستانة يرجع اليها في شؤونه العامة ، ثم طرأت على ادارته طواري عديدة غيرت من أوضاعه على ما عرضنا لذلك سابقاً . ثم استقر مرتبطاً بإدارة الاوقاف عملاً بالقانون الصادر في هذا الشأن . اما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام ودخول جيوش الحلفاء فانه كانت تام الاجزاء من حيث وضعه الاسامي ولم يطرأ عليه الخراب سوى في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران . ويمكن اعتبار مبدأ التخریب من بعد المحطات التي تلي محطة عمان جنوباً على ان هذا التخریب يكاد ينحصر في الجسور والمحطات والمصانع والمستودعات وغير ذلك من المباني والمحال التي كان يسهل نسفها . اما الخطوط الحديدية فظلت سليمة على الجملة سوى نقاط قليلة يسهل اصلاحها وتشييدها .

هكذا كانت حالة هذا الخط عند دخول الحلفاء الشام ، واما حالته من حيث الآلات والأدوات ومعامله وقاطراته ومركباته وشاحناته وغير ذلك من لوازم التعمير ووسائل سيره فقد بلغت من الجودة درجة ينسدر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في البلاد التي خاضت غمار الحرب العامة طول هذه المدة .

واليك مقادير الآلات والادوات المختصة بقسم السير والجر وهي ١٢٠ قاطرة بخارية و ١٢٠٠ شاحنة و ١٠٠ مركبة ركاب من صنوف مختلفة و ٢٠ شاحنة بريد . عدا ما هنالك من عدد كبير من شاحنات الماء ( الصهاريج ) وأشياء فنية كثيرة . واما المعامل فمنها ما كان في القدم جنوبي دمشق وهو معمل مجهز بأحدث الآلات الفنية وكذلك مستودع صغير للتعميرات وصنعها . وفي درعا مصنع صغير ومستودع وفي سمنخ مستودع وفي عمان مستودع وفي معان مستودع ومصنع مختصر وفي نبوك

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header.

184

Main body of handwritten text on the left page, consisting of several lines of cursive script.

Second section of handwritten text on the left page.

Third section of handwritten text on the left page.

185

Main body of handwritten text on the right page, continuing the cursive script.



... ..  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..

... ..  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..

... ..  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..

... ..  
... ..  
... ..  
... ..  
... ..

الخط الحجازي في } عقدت معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء في سنة  
المؤتمرات } ١٩٢٣ ولم يقرر المؤتمر شيئاً في مصير الخط الحجازي  
لأن الأفرنسيين والإنكليز كانوا منفقين على تأليف لجنة إدارية عليا من المسلمين  
يكون مقرها المدينة المنورة لتنظر في شؤون الخط وتسعى لإصلاحه . ولقد نصت  
المعاهدة التي عقدت بين تركيا والحلفاء في لوزان سنة ١٩٢٣ على عقد مؤتمر في  
الاستانة مؤلف من ممثلي الدول التي انفصلت عن تركيا ومن ممثلي مجلس الديون  
العامة لمعرفة واردات تلك الدول . وفي عام ١٩٢٤ عقد هذا المؤتمر فكانت فيه  
مندوبون عن المناطق المنفصلة عن تركيا . وعند تعيين مقادير الواردات والتفاسيط  
السوية تقرر تقسيم الخط الحجازي وتجزئته واعتبار كل قسم ملكاً للمناطق التي  
يخاضها هذا الخط . وقد ثبت الحكم المدعى وفقاً لقرار جمعية الامم في جلساته الحكيمية  
في جنيف مبدأ اعتبار واردات الخط الحديدي الحجازي على النسبة الكيلومترية  
لا على نسبة ما تستفيده كل مقاطعة من الخط الذي يمر منها .

ثم ان المادة ١١٨ من معاهدة لوزان نصت على عقد مؤتمر في باريس بعد مرور  
شهر من صدور حكم الحكم الذي عهدت اليه جمعية الامم النظر والحكم في اعتراضات  
الدول ذات العلاقة بالديون العثمانية العامة . وقد حضرت الحكومة الفرنسية موعداً  
لعقد هذا المؤتمر في اول تموز سنة ١٩٢٥ بباريس ودعت اليه جميع الدول ذات العلاقة  
بالديون ودعت الحكومة الحجازية لارسال مندوب ينوب عنها في شهود هذا المؤتمر  
ففعلت ذلك ولكن لتحتج على ما لحق بالملكة الحجازية من الخيف .

\*\*\*

الخط الجنوبي اليوم } بعد الحاق معان والعقبة لشرقي الاردن خلال  
سنة ١٩٢٥ تسلمت ادارة خطوط فلسطين الخط  
الحجازي الجنوبي حتى المدورة الواقعة في الكيلومتر ٥٧٧ وبما ان طول الخط الاصلي  
من دمشق الى المدينة المنورة عبارة عن ١٣٠٧ كيلومترات فيكون ما يعود امر ادارته  
من هذا الخط الى الحكومة الحجازية الحاضرة ٢٣٠ كيلومتراً .

\*\*\*



بلغت نفقات الخط الاصلي وفروعه حتى سنة ١٩١٨ وهي السنة التي خرجت الدولة العثمانية  
 فيها من الشام ١٢٣٩٨٠ ليرة عثمانية ذهباً . فهذه القيمة قليلة جداً بالنسبة لطول  
 الخط وللبلاد الساسعة القاحلة التي قطعها . ولولا ان الحكومة العثمانية كانت  
 تستخدم الجنود باجور زهيدة للغاية لما تيسر لها انشاء هذا الخط ولكانت اضطرت  
 لاقتاف ضمني هذا المبلغ على أقل تقدير . والحق يقال ان هذا الخط مدين بانشاءه  
 للجنود العثمانية التي بذلت في سبيله الجهود العظيمة ، بل النفوس الكريمة ، وعدا ذلك  
 فان الميهمات المحلية والنقلات على اختلاف أنواعها جرت بصورة معتمدة للغاية .  
 وكان معظم الناس يعتقدون ، وهم على صواب في اعتقادهم ، ان تقديم الاعانات الى  
 الخط وبذل المعاونات في سبيله من أعظم المقويات . وبدافع هذه الثقة قدم كثيرون  
 أشياء ثمينة ذات قيم كبيرة كالأخشاب والأحجار والارضين . فلا بدع اذا قلنا ان  
 هذا الخط ثمرة جهود الامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، ومأثرة غراء  
 من مآثرها الخالدة في هذا العصر ، عصر النور والعرفان .

\* \* \*

إصلاح الخط } وخلاصة القول ان إصلاح هذا الخط امر ضروري  
 الحجازي } حيوي بالنسبة للبلاد العربية لما له من العلاقات بجميع  
 أقطارها . فمن الواجب على الحكومات العربية ان تسعى كل السعي لإرجاع الخط  
 الى حالته الاولى ، وتعمل في سبيل تحسين شؤونه اكثر من قبل . وهذا الإصلاح  
 لا يتم الا بايصال هذا الخط الى مكة المكرمة عاصمة الاسلام ، وربطه بخطوط فرعية  
 مع السواحل كمكة المكرمة بمكة والمدينة المنورة بينبع ومعان بالعقبة فيصبح بهذه  
 الفروع الممتدة الى سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض من أكبر العوامل لانعاش  
 التجارة في البلاد التي يمر بها ، وينقسم نطاق العمران والتحضير في الصحاري والسهول  
 العربية . ومن جهة أخرى يضمن بهذه الطريقة ايضاً نقل الفحم الضروري لاستثمار  
 الخط على أيسر وجه وبأقل كلفة . وقضية الفحم قضية ذات شأن في حياة الخط ،  
 وكان يبلغ ما يستهلكه من الفحم الحجري مقدار ٣٠٠٠٠ طن في السنة ولا يبعد ان

يأتي يوم تمكن فيه الاستفادة من شلالات زيزون وتل شهاب لتوليد الكهرباء ففسير  
انقطارات حينئذ بهذه القوة فنقل نفقات الخط السنوية وتصيح الاجور أقل مما هي  
عليه الآن فتكثر المراد . وليس ذلك اليوم ببعيد ان شاء الله .

نفقر البلاد العربية الى رجال الفن وأرباب الصنائع الاخصائية الذين يعول  
عليهم في إصلاح البلاد ونسهر شؤونها الفنية . في حين لا تنقص فيها المقدرة  
والاستعداد للقيام بأصعب الامور فيما اذا قبض الله لها من أبنائها من يرشدوا ويحسن  
إدارتها . ولقد برهنت على ذلك في كثير من أدوار تاريخها الجيد ، وخصوصاً بما قامت  
به أخيراً من الاعمال اثناء انشاء الخط الحجازي ، وما بذلته من الجهود في سبيله  
مما جعل مدير هذا الخط المعروف المسيو ديكان الالماني ان يصرح بشهادته الطيبة  
لابنائها في تقريره الذي رفعه للحكومة الفيصلية العربية : انني عاجز عن وصف مروري  
من الموظفين والعملة العرب الذين كانوا في إدارتي ، لما هم عليه من حب العمل  
والنظام وما اتصفوا به من شدة الدكاء والقدرة ، كما شأحت ذلك في صفوف  
موظفي المحطات والقطارات والسواق والسير ، وكنت أجد مروراً خاصاً عند النظر  
في امورهم لما هم عليه من النشاط في كل امر .

\* \* \*

المخطوط الحديدية الفلسطينية  
خط يافا - القدس  
كانت مدينة يافا في كل أدوارها مرفأ  
لانزال الزوار القاصدين مدينة القدس .  
ولذلك كانت فكرة انشاء خط حديدي بين المدينتين من الامور المنفق على صحتها وجمالة  
شأنها . ولكن بعض المشتغلين بهذه القضايا كان يعتقد صعوبة تنفيذها ، ويرجع  
انشاء خط ترامواي لقلة المواصلات التجارية في فلسطين . ذلك لان كثرة الزوار  
لا تكون الا في مواسم معينة من السنة . وكان اول تخطيط ( مصور ) قدم للحكومة  
لعمل سكة حديدية في سنة ١٨٦٤ قدمه الدكتور زامبل الاميركي الالماني . ومنح  
امتياز هذا الخط الى يوسف نافون افندي في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٨٨ لمدة  
٧١ سنة مع احتمال تمديد هذا الخط الى غزة ونابلس . ثم الى دمشق اذا دعت  
الضرورة الى ذلك في المستقبل . وقد باع صاحب هذا الامتياز امتيازاه من شركة



الخطوط الحديدية العثمانية ليافا - القدس وتمديداتها الافرنسية المؤسسة في باريس في شهر كانون الاول سنة ١٨٨٩ بمبلغ مليون فرنك . وقد بوشر بإنشاء هذا الخط في نيسان سنة ١٨٨٩ فصادف المهندسون صعوبات حمة في طريقهم ، خصوصاً في القسم الواقع بين عرتوف والقدس لان الارض صخرية جبلية وقد استغرق هذا العمل ست سنوات بالنظر لهذه الصعوبات . انتهى العمل منه في ايلول سنة ١٨٩٢ وافتتح في ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٢ بحضور بعض الحكام العثمانيين . وطول هذا الخط ٨٧ كيلومتراً ، وهو خط ضيق منفرد وعرضه متر واحد يجتاز مائة وستة وسبعين جسراً سبعة منها حديدية . وأطول هذه الجسور لا يتجاوز الثلاثين متراً وأقصرها ستة أمتار . وقد تجب القائمون بالاعمال فتح الأنفاق مما زاد في اعوجاج الخط وكثرة الحزبات الناشئة عن ذلك . فالخط يجازي وادي صرار ويقطعه في محلات متعددة . وانتقلت إدارة الخطوط الحديدية العثمانية في الحرب العامة قسماً من هذا الخط بين بافا ولد اي على مسافة ١٩ كيلومتراً واستعملت قضبه في إنشاء الخطوط العسكرية التي كانت نشأ اذ ذلك في فلسطين ولم تقتلع بقيته لانها استنفادت منه ووصلته بخط العفولة - القدس من لد الى وادي صرار اي مسافة ١٨ كيلومتراً .

\* \* \*

ألمت قبلاً الى ان جبال لبنان الشاعقة وادراها  
 من الجبال الشرقية تمنع سهولة المواصلات بين  
 دمشق وبيروت وتؤلف سداً منيعاً بين هاتين المدينتين ، ولذلك رأى من يهتيم الاسم  
 منذ زمن بعيد وصل دمشق بنقطة من الساحل تكون غير مدينة بيروت . فكانت  
 الانظار تنجبه ابدأ الى مدينتي عكا وحيفا . لان الخط الذي يصل دمشق بهاتين  
 المدينتين يسهل عمله لوجود سهل يزرعيل الذي ذكرنا شيئاً عنه آنفاً . وكانت بريطانيا  
 تحلم كثيراً بالحصول على خط حديدي يسير بين احدي المواني الشامسية والخليج  
 الفارسي . وخصوصاً بعد احتلالها جزيرة قبرس في البحر المتوسط . ففي سنة ١٨٨٢  
 نال السادة أبناء مرسق منشوراً سلطانياً يخولهم حق انشاء خط حديدي بين عكا  
 ودمشق آملين إدخال التحسين على أملاكهم الواسعة في مرج ابن عامر راجين معاونة

البريطانيين . وكانت فكرة إنشاء خط حديدي في ذلك الحين سائدة بينهم . بيد أنهم لم ينجحوا بعملهم وقد خسروا عربونهم البالغ ٥٠ الف فرنك الموضوع في خزينة الدولة العثمانية .

وفي سنة ١٨٨٩ طلب يوسف الياس افندي رأس مهندسي لبنان الى الحكومة العثمانية اعطاءه امتياز هذا الخط مع فرع الى حوران . وانقضت المدة المصروفة للبائسة بالعمل ولم يتمكن هو ايضاً من القيام بهذا المشروع . وفي ٣٠ ايلول سنة ١٨٩١ أعاد الكرة يوسف الياس افندي ونال هذا الامتياز مجدداً بالاشتراك مع المستر بالانغ الانكليزي . واشترطت الحكومة عليهما في هذا الامتياز إنشاء فرعين لهذا الخط الاول من قرية نوى الى بصرى في حوران . والثاني من نهر الشريعة الى حاصبيا . وبوشر بالاعمال في ١٢ كانون الاول سنة ١٨٩٢ في الوقت الذي باشرت به باعمالها شركة بيروت دمشق في ٨ كانون الاول سنة ١٨٩٢ . ولم تمض مدة حتى توفقت الأعمال على خط حيفا - دمشق ولم يتم منه سوى ثمانية كيلومترات . لان الشركة التي أسست للقيام بهذا المشروع لم تحصل على المعاونة المالية اللازمة لها في أسراق لندن . وكانت المدة المصروفة لانتهاء العمل تنتهي في شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٥ وعلى هذا أنذرت الحكومة العثمانية الشركة في أوائل سنة ١٨٩٥ بوجود الاسراع بالعمل وبعد إلحاح المساهمين وافقت الحكومة على تمديد المدة ثلاث سنوات أخرى . وبالرغم من هذه التسهيلات لم تقم الشركة باتمام عملها . وفي سنة ١٨٩٦ أصبح النسم الممدد من الخط في حالة يرثى لها بعد تركه طوال هذه السنين الأخيرة . ثم ظارت فكرة إنشاء الخط الحديدي الحجازي لدى السلطان عبد الحميد وربطه باحد فرّص البحر المتوسط فقام اذ ذلك باسترجاع امتياز خط حيفا مستفيداً من ذلك التأسخير الذي وقع في أعمال الشركة كما ذكرنا ذلك في عرض الكلام عن الخط الحجازي .

\*\*\*

الخطوط العسكرية { لم تحل الحرب العامة دون الادارة العسكرية  
العثمانية التي تولت السيطرة على الخط الحجازي  
الفلستينية { اذ ذلك وتمديد مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية بين فلسطين والحدود



المصرية داخل فلسطين ايضاً . وهذه الخطوط وان لم يكن لها شأن يذكر بجانب الخط الاصلي فقد أحببنا ان نذكر شيئاً عنها تقيماً للفائدة .

ان إدارة اناط الاصلي أنشأت لها فرعاً في سورية وفلسطين . ومنها فرع حيفا - عكا وهو ١٧ كيلومتراً وفرع درعا - بصرى وهو ٢٧ كيلومتراً وفرع العفولة - القدس الذي بوشرف فيه سنة ١٩١٢ ووصل الى قرية السيله عند انلان الحرب العامة وهو ٤٠ كيلومتراً . ومن المسائل التي تستحق الذكر ما أجرته إدارة اناط من الاعمال في اثناء الحرب العامة ذلك ان حملة السويس لما أخفقت أدركت قيادة الجيش الدثاني ضرورة تمديد الخط الحديدى حتى السويس بما يمكن . وكان القائل بهذه الفكرة جمال باشا الذي تمكن على الدوام من اعطاء المال والرجال لاجراء الاعمال المطلوبة وقد جيء في ذلك الحين بمهندس باشا المهندس الالماني من بغداد لاستلام أعمال الانشاء وكان هو مهندس الخط الحجازي عند تأسيسه من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٨ .

كان قسم العفولة - القدس الذي شرعت فيه ادارة الاستثمار وصل نابلس في شتاء ١٩١٤ و ١٩١٥ . وكانت الفروع المصرية التي بدأت الادارة بانشائها من المسعودية في خط العفولة - نابلس تمتد وتسير في بطاح سارون حتى القدس وليس فيها كثير من الموانع والحوائل الطبيعية . ودعت الضرورة الى جعل الخط بعيداً عن الساحل ليكون بأمن من نذائف السفن الحربية . وفي شهر تشرين سنة ١٩١٥ تمكنت الادارة من انشاء ١٦٥ كيلومتراً وسلمتها للاستثمار حتى بئر السبع . وهذا الحل بالنظر لما صودف في تنفيذ من المصاعب بعد من الاعمال العظيمة .

وقد استفادت ادارة الاعمال من خط يافا - القدس الافرنسي الموجود سابقاً بين محطة لدا ووادي الصرار اي مسافة ١٨ كيلومتراً كما ذكرنا ذلك آتفاً وأدخلت هذا القسم بخط العفولة - القدس الذي نحن في صدد الكلام عليه . ولكنها اضطرت لتعريضه لان عرضه كان متراً واحداً فجعلته متراً وخمسة سانشيمترات كبقية الخطوط الحديدية الحجازية . وكانت الادارة لا تملك عند اعلان الحرب سوى ٣٠٠ كيلومتر من قضبه الحديدية و ٥٠ كيلومتراً من العوارض الحديدية فقلعت من خط يافا - القدس قسم يافا - لدا اي ١٩ كيلومتراً وخط حيفا - عكا ١٧ كيلومتراً وخط

دمشق — المزربب ١٠٣ كيلومترات وقد أحضر قسم كبير من العوارض من أخشاب الاوكالبتوس النابتة في بطاح شارون ومن شجر الصنوبر في جبل لبنان .  
 وبديءً باتمام الخط الى السويس في قلب صحراء سيناء قبل ان تم انشاء قسم بئر السبع . ولكن عمليات الانشاء لم تنقدم بسرعة كما جرى في قسم مسعودية — بئر السبع لان نقل الامداد للجيش كان من الاسباب الداعية لعدم سرعة العمل . ومع ذلك فقد انشيء ٦٢ كيلومتراً نحو السويس من بعد بئر السبع في صيف ١٩١٦ وكانت المحطة النهائية في القسيمة . وعندما جلا الجيش الى جهة غزة في ربيع سنة ١٩١٧ اضطرت الادارة الى رفع الاقسام الجنوبية من بئر السبع . ثم بديءً بانشاء فرع من التينة الى ديرسند — بيت حانون ومن ديرسند الى الهوج ومسافتها ٥٣٥ كيلومتراً وبنيت ايضاً فروع عسكرية ليضمين معها نقل محروقات الخط وهي طواكرم — كفرقرع ٢٤ كيلومتراً . وفرع جليسا — خضرا ستة كيلومترات . وغزة — الهيشة ٢٨ كيلومتراً . القصر — الهرمل ١٩ كيلومتراً . ومن هذا كله يتضح انه قد انشيء في اثناء الحرب من الخطوط ٤٣٧ كيلومتراً وكانت كلها فروعاً للخط الحجازي وذلك رغم الصعوبات الكثيرة التي كانت تظهر في تدارك اللوازم الضرورية .  
 ولما سقطت جبهة غزة واضطر الجيش للجلاء حتى اداسط فلسطين تركت اقسام الخط في جنوب طولكرم في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ في حين ان الانكليز كانت تسرع اثناء الحرب بانشاء خط ساحلي من بورسعيد الذي خصص لمدد الجيش الانكليزي . ولما استولت على فلسطين شرعت بتמיד هذا الخط من فلسطين ايضاً في ايلول سنة ١٩١٨ وأوصلته الى حيفا عند جلاء الجيش العثماني عنها . وبهذه الوساطة تم اول اتصال بين الخطوط المصرية والحجازية . ولا شك ان هذا الاتصال يفيد البلدين فائدة اقتصادية عظيمة لانهما زالا منذ الازمان القديمة مرتبطين احدهما بالآخر ارتباطاً قوياً ، مادياً وأدبياً .

بدأ الانكليز عقبي استيلائهم على فلسطين بتحريك الوسائط والطرق اللازمة لانشاء خط كبير يمتد الى البلاد العربية من الغرب الى الشرق ويربط حيفا بالخليج الفارسي وسيكون طول هذا الخط ثقباً ١٥٠٠ كيلومتر ولكن بعد ان تمكنت



السيارات من اختراق الصحراء والوصول الى القطر العراقي بسهولة تأخرت فكرة انشاء هذا الخط في الوقت الحاضر .

\*\*\*

ان مجموع الخطوط الحديدية في فلسطين وشرقي الأردن ٧٠٨ و ١٤٠٥ كيلومترات منها ٨٣٤ ، ٧١٥ كيلومتراً من الخط العربيض و ٨٧٤ ، ٦٨٩ كيلومتراً من الذي عرضه ١٠٥ سائمترات وهذه التماصيل :

كيلومترات

خطوط فلسطين الأصلية	٣٧٤	٢٢٣
خطوط فلسطين الجانبية (المحطات) والجواب مقصات ونفريغ	٩٨	٤٩١
المجموع	٤٧٢	٧١٤
خطوط سينا العسكرية الاصلية	٢٠١	٨٨٥
خطوط سينا العسكرية الجانبية ٠٠٠	٤١	٢٣٥
المجموع	٢٤٣	١٣٠
خط الحجاز في فلسطين الاصلية	٢١٢	٠٤٠
خط الحجاز الجانبي ٠٠٠	٣٠	٥٤٦
المجموع	٢٤٢	٥٨٦
خط الحجاز الشرفداني الاصلية	٤٣٦	٣٤٣
خط الحجاز الشرفداني الجانبي ٠٠٠	١٠	٩٤٥
المجموع	٤٤٧	٢٨٨

ثم انشئ فرع جديد من حيفا خاصاً بمعمل نيشنر طولها سبعة كيلومترات .

دد

القاطرات	١٣٠
مركبات الركاب	١٠٧
قاطرات وشاحنات	٢٢٥٩

« الواردات عن سنة ١٩٢٥ والنفقات »

الواردات	٦٠٤٥٧٩
النفقات	٤٣٨٥٠٤

الباقي وهو الربح السنوي ١٦٦٠٦٥

وقد اشترت حكومة فلسطين جميع الخطوط العسكرية والفرنسية وأصبحت ملكاً لها.

\*\*\*

خط بغداد { جرى البحث كثيراً في الاندية الانكليزية منذ سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٥ بشأن الملاحة في نهر الفرات ، فأقيمت الافكار نحو آسيا العثمانية ، وتألقت شركة في سنة ١٨٥١ لانشاء خط حديدي يبتدي من السويدية في خليج الاسكندرونه وينتهي بالكويت في الخليج الفارسي . وكان يرأس هذه الشركة الجنرال سير فرنسيس شيزني وقد نالت الامر السلطاني بامتياز هذا الخط مع وعد الحكومة العثمانية بان تعطي الشركة ضمانه تضمن لها فائدة ستة بالمائة لرأس المال ، ولكن هذه الضمانه لم يتأكد اعطاؤها . ولما رأى الشعب الانكليزي عدم اهتمام حكومته بهذا المشروع بصورة رسمية خاف من إخفاقه فلم يكتب باسهم الشركة . ولذلك لم تتمكن الشركة من نيل المعارنه المالية اللازمة فسقط امتيازها . وبعد سنة ١٨٦٩ راجت من جديد فكرة انشاء خط السويدية - الكويت . وفي سنة ١٨٧٢ حين هذا المشروع كثير من النواب البريطانيين . وكانت تقدر نفقات هذا الخط بعشرة ملايين ليرة انكليزية . ومضى زمن وفكرة هذا المشروع تُخبط الى ان حدثت امور مهمة حولت الرأي العام الانكليزي عنها بتاتاً . وبعد افتتاح ترعة السويس اقترح بعضهم وصل الامماعيلية بالكويت بخط حديدي . ولكن هذا المشروع الجديد لم يجد أنصاراً ولم يرج الراج المطلوب في الرأي العام الانكليزي . وبعد ذلك تألفت جماعة من الروسبين واقترحت طريقة جديدة وهي وصل طرابلس الشام بالخليج الفارسي بخط حديدي ، يفرع منه فرع الى كربلاء ، ولكن هذه



الفكرة كانت عقيمة لا تستحق الاهتمام لان خطأ حديدياً كهذا لا يجوز تمديده. في تلك الصحاري القاحلة .

وبالتزاحم الذي حدث بين الدول الغربية لنيل امتيازات في البلاد العثمانية كان الالمانيون آخر من تقدم وذلك في سنة ١٨٨٨ تجاوزوا بأفكار جديدة . فكان الانكليز والفرنسيون ممن بهتمون بالخطوط الحديدية العثمانية . وكانوا لا يفكرون بتغير وصل السواحل بالبلاد الداخلية وذلك لترويج صناعاتهم وتجارتهم . لذلك لم ينشئوا سوى خطوط صغيرة كيافا - القدس - حيفا ودمشق - بيروت وطرابلس - حمص السويدية او الاسكندرونة - حلب ومرسين - أذنة واذاليا الخ . فبكل هذه الخطوط كانت تبثدي من السواحل وتنتهي بمدن الداخل . وخلافاً لهذه الخطة الغربية تقدم الالماني بطريقاً جديدة تنفق مع المصالح العثمانية أكثر من الاولى . ففي سنة ١٨٧١ ارتأى فون برسيل المهندس الالماني ان يجعل الاستانة مركز الخطوط الحديدية الاوربية والآسيوية ، فبدلاً من ان يكون للبلاد العثمانية عشرون خطأ صغيراً لا يرتبط الواحد بالآخر اقترح ان تنشأ في البلاد خطوط أساسية تقطعها عرضاً وطولاً فتكون واسطة جيدة بيد الحكومة من الوجهة الادارية والعسكرية . وتصل جميع الاقطار العثمانية بعضها ببعض واول خط من هذه الخطوط التي اقترح عملها المهندس برسيل كان خط الاستانة - بغداد .

وبناءً على اقتراحه هذا ووفقاً للمخططات التي رسمها شرعتها الحكومة العثمانية بإنشاء خطها العظيم الملقب بقاطع آسيا الصغير . وكان القصد من هذا الخط ان يبتدي من مرفأ حيدر باشا على ساحل البوسفور وينتهي بالكويت على ساحل الخليج الفارسي ماراً بزميد مجنازاً مضائق نهر سقاريا المعوج فيصل اسكيشهر ومنها يتجه شرقاً نحو انقره - يوزغاد - سيواس - عربكبير - خربوط - ديار بكر - ماردين - الموصل - بغداد ومن هذه يسير موازياً لدجلة وشط العرب حتى خليج فارس . ودعوا هذا التخطيط بالتخطيط الشمالي وكان هذا التخطيط أقصر الطرق وأقلها نفقة وبلغ طوله ٣٥٠٠ كيلومتر . قامت الحكومة العثمانية في سنة ١٨٧١ بمد ٩٢ كيلومتراً من حيدر باشا الى ازميد بمعرفة المهندس برسيل ولكن الثورات والحروب المتتابعة

في اوربا العثمانية وكذلك التدخلات الاجنبية قد أوقفت استمرار العمل بهذا المشروع مدة ست عشرة سنة . وفي سنة ١٨٨٨ تمكن المصرف الالماني « دو ينش بنك » من الحصول على امتياز هذا الخط حتى مدينة انقره مع الوعد بتمديد بقية أقسامه الى مدينة بغداد بضمانه كيلومترية ١٥ الف فرنك . وقد وقعت الارادة السلطانية التي منح امتياز الخط باسم المصرف الالماني في تشرين الاول سنة ١٨٨٨ . وبأشر الالمان عملهم في شباط سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩١ تمكنوا من إتمام ٣٠٠ كيلومتر . وفي سنة ١٨٩٣ وصل خطهم الى انقره اي انه مد منه ٥٧٨ كيلومتراً . كانت مدينة أنقرة بلدة صغيرة قبل جعلها عاصمة الدولة التركية وهي واقعة باعالي الجبال ترتفع ٩٢٠ متراً عن سطح البحر . وعلى اثر وصولهم اليها طلبوا من الحكومة العثمانية امتياز الاقسام الاخرى من هذا الخط ، على ان يجري تعديل في استقامة الخط ، فبدلاً من ان يسير الخط من أنقرة الى بوزغاد وسيواس ، طلبوا تحويله من أنقرة الى قيصريه . وحصلوا في اول سنة ١٨٩٣ على امتياز قسم قيصريه اي مسافة ٣٢٠ كيلومتراً مع ضمانه كيلومترية قدرها ١٧٦٥٠ فرنكاً . وقد سمي هذا التخطيط الجديد بالمخطط الوسطي غير ان هذا التخطيط لم يرق في عيني روسيا التي كانت تخشى تقدم الالمان في الولايات الشرقية فلعبت السياسة ألاعيها بين ليننغراد وبرلين فقبل الالمان أخيراً تغيير استقامتهم فتركوا أنقرة وشأنها وطلبوا من الحكومة اعطاءهم امتياز قسم جديد بين أسكيشهر وقونية وقد حصلوا على ذلك في سنة ١٨٩٣ وسمي هذا التخطيط بالمخطط الجنوبي مع ضمانه كيلومترية قدرها ١٥ الف فرنك . غير ان هذا التخطيط الأخير لم يرق ايضاً في أعين الانكليز والافرنسيين الذين كانوا يرجون نيل امتيازات في تلك البقاع التي لهم فيها مصالح وخطوط . فاحتجوا لدى الباب العالي وقدموا شروطاً أحسن من شروط الالمان وقد دعمت الحكومة الافرنسية طلب المالبين الافرنسيين وتمكنت من اخذ امتيازات الخطوط الحديدية السورية بين دمشق وحلب .

وصل الخط الحديدي الى قونية في أواخر سنة ١٨٩٥ وبعد ذلك شعر الالمان بضرورة الاتفاق مع بعض المالبين من الامم الاخرى فأشركوا معهم الافرنسيين ونالوا امتياز



خط قونية — بغداد في كانون الثاني سنة ١٩٠٢ مع ضمانته كيلومترية قدرها ١٦٥٠٠ فرنك وعن اشترك مع الالمان من الفرنسيين بهذا المشروع شركة خط ازميز — قسبة وشركة المصرف العثماني . وقد اشترط الفرنسيون مقابل دخولهم في هذه الشركة ان يكون لهم اربعون بالمائة من الاسهم واربعون بالمائة للالمان وعشرون بالمائة لروسيا وان تكون جميع الحقوق متساوية بين الالمان والفرنسيين كإدارة المشروع وتقديم الادوات ولم يتم هذا الاتفاق لاسباب سياسية ، ولذلك لم تقبل فرنسا ادخال أسهم هذا المشروع في بورصة باريز . وفي شباط سنة ١٩٠٣ كلف الالمان حكومة لندن تأليف شركة جديدة تكون الاسهم فيها متساوية بين الالمان والانكليز والفرنسيين اي ثلاثون بالمائة لكل منهم وعشرة بالمائة تبقى للروسين اول للحكومات الصغيرة كالبلجيك وهولاندا وضو يسرا فلم ينجح هذه الطريقة لحل المشكلة القائمة بينهم . وبقي الالمان مدة يساومون الدول الغربية بذلك يهددون الروس تارة بتكميل مخططهم الشمالي المنهي بانقرة ، وطوراً يهددون الانكليز والفرنسيين باتمام مخططهم الجنوبي المنهي في قونية . وفي ٥ آذار سنة ١٩٠٣ قررت الحكومة العثمانية اعطاء امتياز خط قونية — بغداد والبصرة لشركة خطوط الاناضول . وفي ٣٠ تموز من هذه السنة صدر المنشور السلطاني بذلك . واشترط فيه إتمام هذا الخط في ثمانية أعوام اي في سنة ١٩١١ . فباشتر الالمان عملهم وأتموا قسم قونية — بلغورلو وقد أمنتهم الحكومة على الضمانة الكيلومترية لهذا القسم وبعد هذا القسم تأتي جبال طوروس الشاهقة . وفي هذه الجبال واد عظيم كان الطريق الوحيدة لجيوش الفاتحين من الأقدمين وهو خط الاتصال بين قليقية وصحراء الاناضول . وهذا الوادي لا يزيد عرضه عن العشرة أمتار في كثير من النقاط ، والجبال ترتفع حفافيه أكثر من مئتي متر . وكان الاسكندر الكبير والرومان والصلبيون والعرب والسلاجقيون والمصريون يقطعون هذه الجبال ويمنازون هذا الوادي . وقد فكر الالمان ان يمدوا خطوطهم على هذه الطريق بعد ان يعرضوها ويجعلوها صالحة للسير وبعد ان بنوا عليها الجسور اللازمة والاتفاق الصغيرة . ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة لشدة الصعوبات في تنفيذها وكثرة النفقات وخصوصاً نفقات الترميم الدائمة التي تكون باهظة وفوق هذا لا يكون الخط في مأمن

من الأنواء الجوية فضلاً عن ان بلدة بلغورلو ترتفع عن سطح البحر ١١٥٠ متراً والوادي المذكور يرتفع ١٤٥٠ متراً وان مدينة أذنة هي واقعة على سفح الجبل من الجهة الثانية ولا ترتفع شيئاً يذكر عن سطح البحر . فهذه التوجات بالارتفاعات تجعل الطريق المذكورة صعبة جداً ويتمذر مد الخطوط فيها . ولذلك عوّل الألمان على درس طريق ثانية . فبعد ان بحثوا في الجبال عن أقل الطرق كلفةً وأسهلها عملاً لم يروا سوى طريقة واحدة وهي عمل نفق حلزوني لا يقل طوله عن اثني عشر كيلومتراً ولكن عمل نفق كهذا هو أيضاً من أصعب الأعمال حتى في بلاد الغرب التي هي بالقرب من معامل الحديد ومناجم الفحم ووجود أحدث الآلات . فكيف اذاً يمكن القيام به في هذه البلاد القاحلة المتأخرة في ميدان المدينة . وبذلك تكون نفقات هذا القسم باهظة . والضمانة الكيلومترية المقررة له وهي ١٥٥٠٠ فرنك عن كل كيلومتر لا تكفي لسد فوائد رأس المال ، ولكن مع كل ما ذكرناه من الصعوبات لم يضعف هذا من عزيمية الشركة فتأيرت على عملها وافتتحت كثيراً من الانفاق في جبال طوروس وجبال أمانوس وقد كلفها ذلك مبالغ عظيمة . ولما كان عمل الانفاق أمراً شاقاً وكان يحتاج لمدة طويلة من الزمن لم ترهذه الشركة بدأ من ان تباشر بعملها أيضاً من حلب ومن نقاط أخرى . فكان الراكب الآتي من الاستانة مثلاً مضطراً للنزول من القطار في محطة بوزانتي والركوب على الدواب او بالسيارات حتى بلدة اصلاحية التي كانت اتصلت بمدينة حلب بخط بغداد الحديدي . وفي سنة ١٩٠٦ اشترت شركة بغداد خط مرسين - طرسوس - اذنة .

جاءت الحرب العامة فازدادت الشركة همّة ونشاطاً في اتمام ما بقي من الخط بين بوزانتي واصلاحية وذلك بضغط الحكومة على الشركة لانها كانت مضطرة لنقل جنودها وذخائرها وعتادها في القطارات طلباً للسرعة واتصال المواصلات . وقد سبب تأخير حفر الانفاق تعذر نقل الفحم الى الخطوط الشامية التي كانت تستعوض عن الفحم بحطب الأشجار المثمرة فنتج عن ذلك أضرار عظيمة للشام . وتمكنت الشركة بما أبدته من النشاط والهمة في فتح الانفاق من تسهير القطارات رأساً بين الاستانة وحلب وذلك في سنة ٩١٧ - ٩١٨ اما هذا الخط فهو من



الخطوط العريضة وعرضه متر ٤٤ سانتيمترًا ، ونصف القطر الاصغر لمنعطفات الخط خمسمائة متر في حين لا يتجاوز هذا النصف القطر الثلاثمائة متر في بقية الخطوط العثمانية ووزن القضب الحديدية أكثر من وزن قضب الخطوط الأخرى . لان القصد من ذلك تزييد السرعة على هذا الخط وجعلها ٧٥ كيلومترًا في الساعة . وتبين من الاحصاءات التي أجراها المسيوري مدير خط سالانيك — الاستانة ان المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر في الخطوط الحديدية العثمانية هو ١١٠ ١٨٩ فرنكات يدخل في هذا المبلغ ثمن القاطرات والعجلات والشاحنات والانشاء ونفقات التأسيس وفوائد رأس المال وكل ما يتعلق بالخطوط من النفقات . غير ان هذا المبلغ قليل بالنسبة لخط بغداد لان نفقاته كانت أكثر من غيره فيقضي والحالة هذه ان يقدر المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر بمائتي الف فرنك اي تسعة آلاف ليرة عثمانية ذهبًا .

\*\*\*

الخطوط الحديدية  
بين الشام ومصر

كانت وصل البلاد الشامية بمصر موضوع اهتمام المفكرين في كل الأديار ، لما بين القطرين من العلاقات المادية والمعنوية . وقد فكر في هذه القضية وزير الاشغال العامة في الدولة العثمانية وأشار اليها بنقريره لسنة ١٨٨٠ الى ضرورة تمديد خط حديدي من القدس الى العريش طوله ١٥٠ كيلومترًا ، وقدر نفقات هذا المشروع بعشرين مليون فرنك . وفي سنة ١٨٩١ طلب انطون يوسف لطفي بك الى الحكومة العثمانية منحه امتياز خط حديدي يبتدي من العريش على حدود البلاد المصرية ويمر بغزة — يافا — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت ، وينتهي بطرابلس الشام حيث يتصل بخطوط الشركة الافرنسية . وكان الانكليز يجهنون هذا المشروع ويوافقون عليه . غير انه لم يتم تنفيذه ولم تنصل بنا الاسباب التي حالت دون اخراجه الى حيز العمل .

وفي غضون الحرب العامة وبعدها ، وعقب انسحاب الأتراك من البلاد واحتلال السلطات الانكليزية والافرنسية لها ظهرت فائدة هذا المشروع وبوشر بتنفيذه

اذ ذاك حتى تم الاتصال بين حيفا والبلاد المصرية كما انه سيتم عمّا قريب تمديد هذا الخط حتى مدينة طرابلس فيتصل بالخطوط الافرنسية .

\*\*\*

الكهرباء وخطوط الترام في دمشق  
تم الاتفاق في ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧  
وفي ٧ شباط سنة ١٣٠٥ (ش) بين وزير الاشغال العامة  
في الدولة العثمانية وبين يوسف افندي مطران على إنشاء خطوط ترامواي في مدينة  
دمشق بتفرع من مركز المدينة ويتجه نحو باب مصر (بوابة الله) في منتهى محلة الميدان  
والى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصالحية والى الباب الشرقي ومسجد الاقصاب  
ومن الباب الشرقي الى دوما ومن باب مصر الى المزيريب على ان تكون الخطوط  
الخمس الاولى تجر مر كباتها بواسطة الخيل والخط الاخير اي خط المزيريب تجر  
مر كباته بالبخار . وقد منح يوسف افندي مطران بموجب هذا الاتفاق امتيازاً مدته  
ستون سنة وتعهد بالمباشرة بالعمل خلال سنة اعتباراً من تصديق مقاولة امتيازه وان  
يتم العمل خلال سنتين ونصف . وقد قبلت الحكومة باعفاء جميع الآلات والادوات  
والدواب ولوازم الانشاء من رسوم الجرك اثناء العمل وأعفت الاراضي والاعمال  
مدة الاستثمار من الضرائب . وقد أذن لصاحب الامتياز بتأسيس شركة مساهمة  
عثمانية في خلال سنة اعتباراً من تاريخ صدور الامر العالي على ان تبقى جميع الخطوط  
والمعامل والادوات الثابتة ملكاً للدولة عند انقضاء مدة الامتياز . اما الآلات  
والادوات المتحركة كالمحلات وماسواها فالحكومة تقوم بشرائها بواسطة مخننين .  
وقد اشترطت الحكومة على صاحب الامتياز تعمير الطرق التي تمر منها خطوط  
الترامواي بعرض تسعة أمتار وكذلك أرصفتها وبجري المياه فيها . وقد حددت  
اجور الركوب بثلاثة ارباع القرش الفضي للموقع الاول ونصف القرش للموقع الثاني .  
وعلى مانع ان يوسف افندي مطران لم يتم بتنفيذ مقاولته هذه مدة طويلة من الزمن .  
وبعد ذلك تقدم الامير محمد أرسلان الى الحكومة العثمانية طالباً اعطائه امتيازاً  
بتوليد القوة الكهر بائية واستثمارها وتم الاتفاق بينه وبين وزير الاشغال العامة بتاريخ  
١٨ المحرم سنة ٣٢١ على انوير مدينة دمشق وضواحيها بالكهرباء اي مسافة عشرة



كيلو مترات عن المدينة لمدة تسع وتسعين سنة ، وتعهد صاحب الامتياز بتنظيم الخرائط للمشروع وتقديمها في ثمانية عشر شهراً اعتباراً من تاريخ صدور المنشور العالمي وبالمباشرة بالاعمال في ستة وثلاثين شهراً بعد المصادقة على المساولة وانهاء الاعمال في اربع سنوات اعتباراً من تاريخ تصديق الخرائط على ان تعفى مواد الانشاء واللوازم والآلات والادوات من رسوم المكس الى انتهاء أعمال الانشاء وابتداء الاستئجار وان تعفى ايضاً جميع البنائيات والتأسيسات والادوات مدة الامتياز من الرسوم . وبتقاضى صاحب الامتياز أثمان النوير بحسب التعرفة المقررة طيلة الامتياز . واما ما يتعلق بشأن النوير العمومي للمدينة فيجب عليه ان يجري تزيلاً يتناقص كلما زادت كمية الكهرباء المصروفة ويحسم ايضاً عشرة بالمائة للنوير دوائر الحكومة والجموع والكنائس والثكنات العسكرية والمستشفيات ويُسمح لصاحب الامتياز بتأسيس شركة عثائية خلال سنتين اعتباراً من تصديق المساولة وذلك للقيام بتعهداته وتحفظ الحكومة بحق شراء الامتياز في كل حين بعد انقضاء ثلاثين سنة وتقوم بتخمين قيمة جميع الآلات والادوات والابنية والاراضي والمؤسسات التي دخلت في ملك صاحب الامتياز وتشترتها منه وعند انقضاء مدة الامتياز يجب على صاحبه تسليم عامة البنائيات والمؤسسات والآلات والادوات بلا بدل الى الحكومة . واذا لم يباشر أعمال الانشاء خلال المدة المعينة بدون ان تكون هناك أسباب قاهرة تمنعه عن مباشرة العمل او اذا لم ينجز الاعمال بتمامها او يعطل أعمال النوير او لم يقم بتعهداته في المساولة يسقط حقه من الامتياز وتضع الدولة يدها على الاعمال وتقوم بعمل ما يلزم من التدابير الموقته لتأمين الاستئجار . وكذلك تعين البلدية بالاتفاق مع صاحب الامتياز عدد المصاييح ومواقعها ويحصر بيع النوير وبيع القوة الكبر بائية بصاحب الامتياز مدة امتيازه سواء كان ذلك للأفراد او لوسائط النقل العامة ويكون حق الترجيح لصاحب الامتياز بتأسيس التلفون اذا قبل بذات الشروط التي يقدمها طالبو هذا المشروع وتحدد التعرفة العظمى بثمانية قروش عن كل ( كيلواتور ) اي ما يعادل بارة واحدة عن كل شمعة بالساعة ولا يمكن زيادة التعرفة المقررة بدون موافقة الحكومة . وبعد ذلك توفق الامير محمد أرسلان باخذ امتياز آخر يقضي عليه بتقديم

القوة الكهر بائية اللازمة لتسيير حوافل (الترام) على الخطوط الممنوح امتيازها. قديماً الى يوسف افندي مطران وعلى الخطوط التي يمكن للدولة ان تمنح امتيازها لشخص آخر وذلك داخل منطقة تبعد حدودها مسافة عشرين كيلومتراً في كل جهة من وسط مدينة دمشق على ان يكون امتيازها تابعاً لقوانين الدولة . و يقضى ايضاً من جهة ثانية على صاحب امتياز الترامواي الخليلي وعلى جميع الشركات التي تؤسس لتسيير الحوافل الكهر بائية داخل المنطقة الميمنة آنفاً بمراجعة الامير محمد أرسلان لاستئصال القوة الكهر بائية اللازمة لهم اذا أرادوا تسيير حوافلهم بالقوة الكهر بائية . وقد حددت مدة هذا الاتفاق بتسع وتسعين سنة ابتداءً من تاريخ صدور المنشور العالمي وأعطيت مدة سنتين لصاحب الامتياز لتأسيس شركة مساهمة عثمانية تقوم بتنفيذ الشروط . كما احتفظت الحكومة لنفسها بحق شراء الامتياز في كل آن وذلك بعد مضي ثلاثين سنة من مدته . اما ما يحدث من الاختلافات بين الحكومة وبين صاحب الامتياز فيرجع في فصله الى مجلس شوري الدولة . وقد صدر المنشور العالمي بهذا الامتياز في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢١ وعلى ذلك فقد تأسست بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٢٢ وفي ١٧ كانون الاول سنة ١٣٢٠ (ش) وهـ كانون الاول سنة ١٩٠٤ شركة بلجيكية مساهمة باسم الشركة العثمانية السلطانية للننوير والجر الكهر بائي بدمشق وحصلت على جميع الامتيازات المتعلقة بهذا الشأن . ومن الشروط التي تعهدت بها هذه الشركة انشاء خطوط إجبارية من دار الحكومة الى باب مصر ( بوابة الله ) بمنتهى محلة الميدان ومن دار الحكومة الى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصالحية وننوير المدينة وفقاً لشروط المقاولات المنعقدة والمصدقة في المناشير العالية بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣٠٧ و ٢٧ المحرم سنة ١٣٢١ ، وكان رأس مال هذه الشركة ستة ملايين فرنك قسمت على اثني عشر الف سهم وجعلت قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك . وكانت تدير أعمال الشركة لجنة منتخبة من الهيئة العامة . ومن جملة اعضاء اللجنة في السنوات الاولى عزت باشا العابد .

وباشرت الشركة العمل باقامة الابنية والمعامل ومد خطوط الترام وأسلاك الكهر باء خلال سنة ١٩٠٤ . والخطوط التي مدتها الشركة ثلاثة ابتداءً الاول من



ساحة الشهداء (المرجة) وينتهي في باب مهر في منتهى محلة الميدان وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وهو خط مزدوج . اما الخط الثاني فيبتدي أيضاً من ساحة الشهداء وينتهي في حي المهاجرين في الصالحية وطوله ثلاثة كيلومترات ومائتا متر وهو مزدوج حتى الجسر الأبيض والباقي منه حتى المهاجرين خط منفرد . واما الثالث فيبتدي من الجسر الأبيض فالصالحية وينتهي عند جامع محي الدين بن عربي وطوله كيلومتر واحد وهو مزدوج وعرض هذه الخطوط متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض الخطوط الحديدية الافرنسية الضيقة والخط العجازي وقد انتهت الشركة من مد الخطوط في ١٢ شباط سنة ١٩٠٧ وبدأت تسير حوافل الترام على الخطوط الممدودة وبدي أيضاً بتطوير المدينة منذ شهر نيسان سنة ١٩٠٧ .

جاءت الحرب العامة وقطعت المواصلات بين الغرب والبلاد الشرقية وبقيت الشركة تحت سلطة الحكومة العثمانية فانقطع ورود البترول من الخارج وأصبحت أكثر المدن في الدولة العثمانية مظلمة الا مدينة دمشق فقد ظلت تثار بمصابيح الكهرباء وذلك بفضل نهر بردى الذي لا يزال يفيض الخيرات على دمشق . ومن هذا نظهر فائدة استعمال القوى الطبيعية في البلاد . وقد كانت السلطة العسكرية تسفيد من الكهرباء في محطة اللاسلكي وفي كثير من معاملها التي كانت تشتغل في إحضار العتاد والذخائر الحربية .

وفي ٢٩ ايار سنة ١٩٢٣ عقد اتفاق بين الشركة والمفوضية العليا حددت بموجبها أثمان القوة الكهربية واجور الركوب في حافلات الترام وأدخلت شروط جديدة لإصلاح الاسلاك الكهربية وتمديد خطوط جديدة واستمر العمل بهذا الاتفاق مدة سنتين . وفي ١٣ آب سنة ١٩٢٥ جرى تعديل مقالة الامتياز القديمة تعديلاً مهماً وذلك بموجب البروتوكول الثاني عشر الملتحق بمعاهدة لوزان واليك خلاصة ما جاء في هذه المقالة الجديدة .

انه يحق للبلدية ان تطلب من الشركة انشاء خطوط جديدة واذا لم يتم الاتفاق بينها خلال سنة يحق للاولى ان تنفخ الخط الجديد لشخص آخر على ان تبقى الارضية

للشركة اذا تساوت الشروط وقد حددت التعرفة العظمى بموجب هذا التعديل على الوجه الآتي :

« الدرجة الاولى »	« الدرجة الثانية »
الكيلومتر الاول ٣٠ قرش سوري ذهب	الكيلومتر الاول ٢١٣ قرش سوري ذهب
الثاني ٢٩٧	الثاني ١٩٢
الثالث ٢٧٤	الثالث ١٧١
الرابع فما فوق ٢٥٠	الرابع ١٥٠

على ان تضاعف التعريفات للحافلات التي تسير ليلاً . وتعفى الاراضي والأبنية والمصانع والآلات والادوات الثابتة والمنحركة مدة الامتياز من الضرائب والرسوم . وتعفى ايضاً من الرسوم الجمركية والدخولية جميع المواد اللازمة للمعامل والمصانع وترفع الاختلافات التي تحدث بين صاحب الامتياز والحكومة على تفسير مواد المقاوله وانفاذها أمام مجلس الشوري السوري . ونفهي مدة هذا الامتياز بتساريح ٣١ كانون الاول سنة ١٩٦٠ .

فللشركة الحق باثشاء المعامل المولدة للقوة الكهر بائية واستئثارها ما أنشئ منها وما سينشأ على نهر بردى بين التكية وعين القيمة وتوزيع القوة المستحصلة توزيعاً عاماً لجميع المحلات على مسافة خمسة عشر كيلومتراً لكل جهة من قلب مدينة دمشق ( ساحة الشهداء - المرجة ) وبتقديم القوة الكهر بائية كقوة محرك لوسائط النقل العامة على مسافة عشرين كيلومتراً لكل جهة من وسط مدينة دمشق كما لها الحق ايضاً باستعمال الطرق العامة من ملك الدولة او البلديات لتمتكن من القيام بالننوير الخاص وبتقديم القوة الكهر بائية لجميع الاعمال . وقد حددت التعرفة العظمى :

البيع بالعداد للننوير بسعر الكيلواتور ٤٥٠ قروش سورية ذهبية

لباقى الاستعمالات ٣

البيع المقطوع ١٥ ساتماً من القرش السوري الذهبي عن كل شمعة في الساعة

للتقليات العامة سعر الكيلواتور ٣ قروش سورية ذهبية

ونقرر ان يحسب الننوير العمومي بالعداد مع تخفيض ٢٥ بالمئة وان يحسب كذلك



لنوير الدوائر العامة والبلدية والمعابد والمستشفيات مع تخفيض عشرة بالمئة من التعرفة وكذلك قبلت الشركة بان تُنير قصر الحكومة مع دائرة البلدية مجاناً أربع مرات في السنة في ايام الاعياد التي تعينها الحكومة . وان تُنير الجامع الأموي وبعض الجوامع الاخرى مجاناً ايضاً . ونُنهي مدة الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الاول سنة ٢٠٠٢ وعند انتهاء مدته تستلم الحكومة جميع ما أنشأته الشركة بدون بدل ويحق للدولة في كل حين شراء الامتياز وذلك اعتباراً من تاريخ ٣١ كانون الاول سنة ١٩٦٥ .

وبعد المصادقة على هذا الاتفاق اخذت الشركة تقوم بتحسين النور فسدلت الجرى الكبري بأني بجري دائم الى مجرى مئذون وغيرت درجة التوتر في بعض الاحياء فجعلتها ١١٠ بعد ان كانت ٢٢٠ وقد أسست مراكز لتحويل درجة التوتر في كثير من الاحياء لتوزع منها النور على المشتركين بصورة منظمة بعد ان يكون وصل الكهر باء الى هذه المراكز بخطوط ذات توتر عالٍ تمدد تحت الارض وهي لا تزال تعمل بهذه الاصلاحات يجد ونشاط .

\*\*\*

تراوواي حلب { منحت الحكومة العثمانية امتيازاً قبل الحرب العامة لرجل  
الكبير بأني يدعى عثمان بك من أتراك الاستانة لنوير مدينة حلب

بالكهر باء مع انشاء خطوط ترامواي فيها . وكانت مدة هذا الامتياز اربعين سنة . ولم يتمكن عثمان بك من القيام بتنفيذ امتيازه بسبب الحرب . وبعد الهدنة طرحت الحكومة العربية هذا المشروع في المناقصة فنقدمت في سنة ١٩١٩ شركة بلجيكية وأرسلت مندوبها الى حلب مع تقديم شروطها . فجاء هذا المندوب ودخل في مفاوضة مجلس بلدية حلب اذ ذاك . وقد نظم مشروع مقابلة وشروط امتياز على أساس الشروط والمقابلة التي منحتها الحكومة العثمانية الى عثمان بك ولم يبق لتحقيق المشروع الا تصديق هيئة ادارة الشركة عليه في بلجيكا . فرأت هذه الهيئة ان الشروط التي نظمت بمدينة حلب بحجة بحقوقها . وعلى ذلك أرسلت تعلم بلدية حلب بعدم قبولها الا اذا زيدت التعرفة المحددة في المشروع مع زيادة مدة الامتياز . فخط هذا

المشروع ولم يتحقق . وفي سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ اي بعد دخول فرنسا الى الشام تقدمت لطلب هذا الامتياز ثلاث شركات الاولى شركة وطنية وعلى رأسها كريم افندي بالي احد تجار حلب . والثانية شركة بلجيكية . والثالثة شركة المشاريع الافرنسية . وكل من هذه الشركات قدمت شروطاً تختلف عن الاخرى . وبما ان شركة كريم افندي بالي الوطنية لم تقدم الضمان اللازم لم تُنحج بطلبها . وبعد ذلك تألفت لجنة لدرس الشروط المقدمة ووضع تقرير فيها . وعقبى مذاكرة طويلة رأيت هذه اللجنة ان الشروط المقدمة من الشركتين المذكورتين لا توافق مصلحة البلدية كل الموافقة وعلى ذلك نظمت شروطاً خاصة ومقتبسة من شروط الامتيازات القديمة الممنوحة من الدولة العثمانية لشركات كهربائية اخرى ومن الشروط التي قدمتها الشركتان المار ذكرهما وقد طلبت اللجنة في تقريرها اعلان ذلك ودعوة الشركات للناقصة فلم يقدم احد .

وفي سنة ١٩٢٤ عرض على بلدية حلب مشروع امتياز جديد من شركة المشاريع الافرنسية لا يختلف كثيراً عن مشروعها الذي قدمته للمرة الاولى وطلبت المصادقة عليه وأخيراً تمكنت البلدية من تحديد الضمانة الغير المحدودة والمطلوبة من الشركة عن الخسارة مسانحة بمبلغ ٢٠ الف ليرة سورية ورقاً . اي ان الخسارة التي تقع بأكثر من هذا المبلغ المحدد تكون على الشركة . وأهم الشروط في هذا الامتياز ان مدته سبعون سنة . وان التعرفة تعين سنوياً بعد اجراء حساب الدخل والخرج والفائدة والاستهلاك . وان جميع الاراضي والمقالع اللازمة للانشاء والتأسيس تشتريها البلدية على حسابها الخاص وتسلمها للشركة . وان الخسارة اذا تجاوزت العشرين الف ليرة سورية ورقاً تكون على البلدية . وكذلك تقسم الارباح ٣٥ في المئة للبلدية وما بقي للشركة . وحق النفيس والفسخ يرجع فيهما للمفوضية العليا ويكون جميع مأموري الشركة من السوريين ما عدا الاخصائين الفنيين . وتحل الاختلافات التي تحدث بواسطة التحكيم . كما ان الشركة مضطرة ان تدرس على حساب البلدية مشروع جلب الماء الى حلب خلال خمس سنين على الاكثر ثم تقدمه للبلدية حتى اذا وافقها تمنح امتيازه للشركة المذكورة . وانكره الشركة على اخذ هذا الامتياز . وقد بدأت الشركة بالعمل أوائل سنة ١٩٢٦ وأنجزت حتى الآن من



الاشغال بناء الادارة والمستودع وتركيب الآلات . وقد قلعت بلاط الطريق القديم وبدأت تمد القضب الحديدية ونفرش الزفت وبدلت البلدية البلاط الاسود به . ومدت الشركة خطين للترام ، الاول يقطع مدينة حلب من الغرب الى الشرق و يبتدي من محطة دمشق وينتهي بمحطة القصيلة وطوله خمسة كيلومترات تقريباً . واما الخط الثاني فيقطع المدينة من الشمال الى الجنوب و يبتدي من محطة الحميدية وينتهي عند شارع خان الحرير وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف تقريباً وعرض هذين الخطين متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض خطوط ترام دمشق .

\* \* \*

خط الترام في طرابلس الشام { خط الترام الممتد بين مدينة طرابلس ومينائها هو خط  
تجر حافظاته على الخيل . والميناء في مرفأ المدينة تبعد عنها ثلاثة كيلومترات . وقد منح امتياز هذا الخط في سنة ١٨٧٨ لشركة وطنية برأس مال يبلغ مائتي الف فرنك اي تسعة آلاف ليرة عثمانية وهو ينقسم الى اثني سهم بقيمة مائة فرنك لكل سهم منها وقد أحست هذه الشركة إدارته واستثماره مما جعل الربح يخلف بين الاربع عشرة والستة عشر فرنكاً لكل سهم .  
واما ما يتعلق بخطوط الترام في سائر بلاد الشام الاخرى فمن دواعي الاسف اننا لم نقف على الوثائق المتعلقة بها ولذا لم نتمكن من ذكر شي عنها .

\* \* \*

الطرق العامة في الشام { نألف الشام من ثلاثة دروب موازية لساحل البحر  
نفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة تمتد الواحدة منها من صور الى الاسكندرونة بلا انقطاع فيها الا في نقطتين . والثانية تبتدي من الجنوب وتنتهي بالقرب من حمص فيملاقى الدربان درب البقاع مع درب دمشق وتحصل منها سهول حماة وحلب العظيمة الممتدة حتى الفرات . فالسلسلة الاولى نألف من جبل لبنان وتلعاته العديدة الشاهقة المرتفعة عن سطح البحر ما ينيف عن الالف متر والحد الاعظم ٣٠٦٣ . ويمتد هذا الجبل ثلاثين كيلومتراً في الشمال الغربي لطرابلس . وهناك يتخفص عند فوهة حمص ثم يرتفع مجدداً باسم

جبل النصيرية المرتفع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر وجبل الأفرع وجبل كاسيوس المرتفع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر . وبعد ذلك تمتد السلسلة حتى نهر العاصي الذي يقطعها بانخفاض عظيم وبعرض قليل . ثم تمتد هذه السلسلة حتى جبل اللكام وتدخل في بلاد الترك حتى ترتبط بجبال طوروس . فهذه السلسلة تحد غرباً الدرب الاول الذي هو عبارة عن الساحل . وكثيراً ما يقرب الجبل من البحر ويسقط فيه كما هو الحال بين صور وحيفا . ولا يوجد في هذا الدرب ارضون سهلية الا بالقرب من حيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية ولكنها قليلة المساحة . وقد أنشئت المدن المذكورة في هذه السهول . اما السلسلة الثانية الموازية للاولى فتبتدي بجبل الشيخ ( حرمون ) بارتفاع ٢٨٠٧ أمتار وتصل بالجبل الشرقي بارتفاع ٣٠٠٠ متر . وبين هاتين السلسلتين سهل البقاع الذي يبلغ عرضه ١٥ كيلومتراً ويمتد طوله بين الجبلين على مسافة عظيمة . ان هذا السهل يتخدر على طرفيه من نقطته العليا الموجودة بالقرب من شمال بعلبك ويقطع هذا السهل النهران العظيمان نهر الليطاني الذي ينبس من بعلبك فيتخدر جنوباً ثم غرباً حتى البحر . والنهر الثاني هو العاصي القرب من نهر الليطاني ينساب شمالاً ماراً بمحص وحماة وانطاكية بين جبلي الامانوس والأفرع ثم يصب في البحر المتوسط في السويدية وبشرق السلسلة الثانية يقع الدرب الثالث وهو سهل دمشق الذي تجري اليه مياه الجبل الشرقي التي تروي الصحراء . وهناك جبل حوران المعروف بجبل الدروز الممتد شرقاً نحو الصحراء وهو واقع بجزيرة منفصلة عن بقية البلاد فهذه الدروب هي التي تقع فيها جميع البلدان الشامية وليس لهذا الجبل ارتباط بالسلسلتين المذكورتين ولذلك فمسألة الطرق تنحصر في ثلاث نقاط :

(اولاً) طرق المواصلة بين المدن الواقعة في درب واحد . (ثانياً) الطرق الواصلة بين المدن الواقعة بين دربين متوازيين وذلك بواسطة طرق عرضية اي (شرقية - غربية) . (ثالثاً) الطرق المتشعبة كالشرايين في سهول دمشق وحلب . هذا هو الوضع الجغرافي للبلاد الشامية ذكرناه توطئة للبحث ومنها يتمكن القارئ من متابعتها للوقوف على أكثر الطرق .



طرق الشام { كانت الطرق ووسائل النقل والمواصلات مفقودة في  
الزمن العابر بل وفي القرون الاخيرة في جميع بلاد الترك  
عموماً وفي الشام خصوصاً مما سبب تأخر دخول المدنية الغربية الى هذه البلاد مدة  
طويلة من الزمن . غير ان الدولة العثمانية في المدة الاخيرة من حكمها الشام اي في  
سنة ١٨٦٢ كانت أقرت برنامجاً للطرق ووضعت قانوناً لانشائها واعمارها  
ومحافظتها فمن ذلك التاريخ أخذت الأحوال تتبدل وبدأت المشاريع تظهر في ديار  
الشام بصورة جيدة . وكان القانون العثماني بقضي على كل شخص ان يقوم اربعة ايام  
في السنة بعمارة الطرق مدة عشرين سنة او ان يقدم ضريبة قدرها ريال مجيدي  
واحد . وكانت هذه الضريبة تجبي بمعرفة لجنة قوامها بعض الموظفين الاداريين وموظفي  
المصارف الزراعية . ولكن هذا القانون لم يراع في كثير من الاحوال وكانت الاموال  
التي خصصت لعمل الطرق تذهب لنفقات الدولة العامة . وقد بقي العمل بهذا  
القانون مدة قليلة لان الظروف والأحوال السياسية حالت دون اتمام البرنامج المذكور  
ولذلك بقيت سورية محرومة من الطرق وكثيراً ما كان يرجع المار على الطريق ان  
ينبع الاراضي المجاورة له لصعوبة السير عليه .

اما الحالة في لبنان فقد كانت على غير ذلك . لانه منذ نال لبنان استقلاله الاداري  
سنة ١٨٦٠ ازدادت نفوسه ونتج عن ذلك ان ظهرت حركة المهاجرة التي ما فتئت تزداد  
من ذلك الحين . فاللبنانيون المهاجرون كانوا لا ينسون الذين تركوهم في الوطن بل كانوا  
يرسلون لهم الأموال بكثرة من مخرجهم اميركا . كما ان الكثير من هؤلاء كان يرجع الى  
بلادهم بعد حصوله على ثروة لا تمام بقية حياته فيها . وان قسماً عظيماً من هذه الثروة التي  
كان يجمعها اللبناني المهاجر كان ينفقه باعمار بيوتهم او لانشاء بيوت جديدة بطراز  
حديث . وبهذه الصورة تمكن الجبل بمدة قليلة ان يرتدي ثوب العمار بالحصول على  
قرى جميلة كثيفة بالنفوس تحتاج للمواصلات مع السواحل ولا سيما بيروت وطرابلس  
الشام وصيدا . وقد اتفق حينئذ الاهلون ان ينشئوا كثيراً من الطرق باموالهم الخاصة .  
فكان عدد الطرق لا يتناسب مع الفائدة المطلوبة منها بل ولا مع ثروة القرية التي تنتهي  
فيها هذه الطرق . فكثيراً ما نرى طريقين او اكثر تمتدان الى قرى قريبة بعضها

من بعض على هضبة واحدة الا ان سكانهما الاغنياء صرفوا على انشاءهما المباني اللازمة . ومن جهة أخرى نرى بعض القرى الفقيرة محرومة هذه الحالة فلا يصل اليها طريق .

\*\*\*

الطرق العامة { اولاً : الطرق الطويلة — من الجنوب الى الشمال .  
 (١) طريق الساحل — يبدأ من بئر السبع جنوباً و ينتهي بالاسكندرونة شمالاً ويمر من بئر السبع — غزة — بنة — يافا — طولكرم — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت — طرابلس — طرطوس — اللاذقية — جسر الشغور — جسر الحديد — بكي شهر — بكي كوي — الاسكندرونة .  
 (٢) الطريق الثاني — يبدأ من بئر السبع جنوباً و ينتهي في كليس شمالاً ويمر من بئر السبع = الخليل = القدس = البيرة = رام الله = نابلس = جنين = الناصرة = طبرية = الجاعونة = مرجعيون = قرعون = سفين = عميق = قب الياس = شتورة = المعلقه = بعلبك = القصير = حمص = الرستن = حماة = معرة النعمان = سراقب = نفنناز = اوروم الصغرى = حلب = كليس .  
 (٣) الطريق الثالث — يبدأ من بئر السبع جنوباً و ينتهي بجمص شمالاً فيلنقي بطريق حماة وحلب . ويمر من المدن المذكورة أعلاه في الطريق الثاني حتى الجاعونة حيث يفصل منها فيمر من جسر بنات يعقوب = القنيطرة = وادي العجم = دمشق = دوما = القطيفة = النيك = قارة = حسيه = حمص . ويمتد بعد ذلك الى حلب كما هو مذكور في الطريق الثاني .

(٤) الطريق الرابع — يبدأ من القدس جنوباً و ينتهي في دمشق شمالاً فيمر في القدس = أريحا = الصلت = عمان = الرمتا = درعا = شيخ مسكين = غباغب = خان دنون = الكسوة = دمشق .

(٥) الطريق الخامس طريق البادية — يتدي من دمشق جنوباً و ينتهي بدير الزور بعد ان يتصل بطريق الموصل شمالاً ويمر في دمشق = القطيفة = جبرود = القر بئين = تدمر = السخنة = دير الزور = الصوار = البضاء على الحدود



التركية . وفتح يبدأ من دير الزور أيضاً الى الصوار ومنها الى نصيبين حيث الاراضي  
الداخلة في حدود تركيا .

ثانياً : الطرق العرضية من الغرب الى الشرق . (١) غزوة = بئر السبع .

(٢) يافا = الرملة = القدس = عمّان .

(٣) يافا = نلقيلية = نابلس = الناصرة = طبرية = ميمخ .

(٤) حيفا = الناصرة = طبرية = الجاعونة = جسر بنات يعقوب .

(٥) حيفا = الناصرة = جينين = نابلس = أريحا .

(٦) صيدا = مرجعيون = بانباس = القنيطرة = ازرع = السويداء =

صرخد .

(٧) درعا = بصرى = صرخد .

(٨) بيروت = دمشق = بغداد .

(٩) طرابلس = حمص = تدمر = بغداد .

(١٠) اللاذقية = جسر الشغور = ادلب = حلب = دير الزور .

(١١) السويدية = انطاكية = جسر الحديد = حارم = حلب .

(١٢) الاسكندرونة = فرق خان = بكي شهر = اوروم الصغرى = حلب .

\*\*\*

اولاً - طريق الساحل : يبلغ طول هذا الطريق  
وصف حالة الطرق { ٢٧٠ كيلومتراً اعتباراً من بئر السبع الى عكا

ورأس الناقورة . ومن رأس الناقورة حتى مدينة اللاذقية ٤٠٠ كيلومتر وهو طريق

معبّد من أحسن الطرق الشامية . وطريق اللاذقية حتى بكي كوي وطوله ١٧٠

كيلومتراً قيد الانشاء ولا يزال في حالة تمهيدية . ومن بكي كوي الى الاسكندرونة

طريق معبد وطوله ٥٠ كيلومتراً وبلغ مجموع طول هذا الطريق ٨٤٠ كيلومتراً وان

المبالغ المنفقة عليه من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٧ لا تقل عن ثلاثمائة الف ليرة

ذهبية تقريباً .

ثانياً - الطريق الطولي الثانية : ان هذا الطريق يبدأ من بئر السبع الى طبرية

والجاغونة وطوله ٢٩٠ كيلومتراً وهو معبد ٠ ومن الجاغونة الى سغبين وطوله ٨٠ كيلومتراً كانت بوشريه في زمن الحرب ولما يتم تعبيده ٠ ومن سغبين الى شتورة والمعلقة وبعليك وطوله ٦٠ كيلومتراً وهو معبد أيضاً ٠ ومن بعليك الى حمص فان الطريق لم يجر انشاؤه حتى الآن ٠ وقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بانشاء بعض الجسور فيه ولكنه لم يتم عمله ٠

اما القسم الواقع بين حمص وحماة فطوله ٤٧ كيلومتراً فانه كان معبداً حيث كانت شركة الحافلات (الداليجانس) الوطنية قد أنشأته قديماً وبعد انشاء الخطوط الحديدية أهملته الحكومة فنخرّب خلال الحرب العامة بسبب التقليلات العسكرية بالسيارات الضخمة وحتى الآن لم يجر تعبيده ٠ ولم يكن طريق حماة - حلب وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبداً من قبل وليس ثمة سوى طريق القوافل القديمة على ان ادارة النافعة في حلب باشرت بانشاؤه منذ ثلاث سنوات نقر بيساً واتخذت طريقاً جديداً يبدأ من حلب الى نفنناز باستقامة طريق ادلب = جسر الشغور = اللاذقية ومن نفنناز يتجه نحو بلدة خان شينون الواقعة على حدود اراضي حلب ودمشق ماراً بسراقب ومعرة النعمان ٠ وقد تمت تسوية الطريق الداخل في منطقة حلب وبوشريه بتعبيده وسينتهي في عام ١٩٢٨ وكذلك باشرت ادارة النافعة بدمشق بتسوية القسم الداخل في منطقتها وسينتهي تسويته في أوائل عام ١٩٢٨ ٠ وقد بلغ ما صُرف على هذا القسم من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٢٧ ما يربو على اربعين الف ليرة ذهبية ٠ والطريق من حلب الى نفنناز على طول خمسين كيلومتراً معبداً ٠ وجرث تسوية الطريق من نفنناز الى خان شينون على طول سبعين كيلومتراً ٠ وتم بنائه الأعمال الصناعية من جسور وقناطر وهو يجري تعبيده الآن ٠ وبوشريه بتسوية طريق خان شينون الى حماة على طول ثلاثين كيلومتراً والطريق معبد منذ القديم من حلب حتى كليس وطوله ستون كيلومتراً وقد جرى اصلاحه مجدداً ٠

ثالثاً - الطريق الطولي الثالث : يتندي هذا الطريق من بئر السبع الى الجاغونة وجسر بنات يعقوب وطوله ٣٠٠ كيلومتر وهو معبد ٠ والطريق معبد من جسر بنات يعقوب الى القنيطرة ووادي العجم ودمشق وطوله تسعون كيلومتراً ٠ وكانت الحكومة



العثمانية باشرت بإنشائه منذ عشرين سنة ولما يتم عمله . وقد أنفق على انشائه من سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٧ ما يربو على ثلاثين الف ليرة ذهبية .

أما طريق دمشق = النبك = حمص وطوله ١٦٠ كيلومتراً فقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بإنشائه قبل ثلاثين سنة وتم قسم كبير من نسوبته يبدأ انه لم يتم عمله . وهناك قسم منه وطوله ثلاثون كيلومتراً يقع بين النبك وقارة والبريج لم ينشأ فيه شيء أيضاً ولا يزال بمحالته الطبيعية وتعمل حكومة قضاء النبك على إصلاحه أحياناً وتزبل الحجارة منه وتردم الحفر التي تنشأ بمرور العجلات والسيارات . وتفكر الحكومة الآن بتحويل هذا الطريق الى قرية ديرعطية بدلاً من قرية قارة التي كانت دائماً المركز الطبيعي للاتصالات بين دمشق وحمص . ولقد هجرت الحكومة العثمانية هذا الطريق أثناء الحرب العامة لفقد الامن فيه وكثرة اعتداءات العشائر والجنود الفارين من الزحف وكانوا يلجأون الى هذه المنطقة ليعتاشوا . وصرفت حكومة دمشق مبالغ كبيرة لإنشاء هذا الطريق ولم ينه الى الآن . وقد بلغ ما أنفق عليه من عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٧ ما يربو على الخمسين الف ليرة ذهبية .

رابعاً - الطريق الطولي الرابع : يبدأ هذا الطريق من القدس ويتجه صوب أريحا والصلت وعمان والرمثا وإربد ودرعا . وكان شرع بتعبيد هذا الطريق منذ ثلاثين سنة ولم ننه ولم تزل على ما كانت عليه . وجرت فيها بعض الاصلاحات في جهة القدس والصلت وعمان . وما برح من درعا حتى دمشق على حالته القديمة ولم يدخل عليه سوى بعض الاصلاحات بين دمشق وخان دنون وتعمل حكومة دمشق على إصلاحه وقد حال فقدان المال دون إنجازها .

خامساً - الطريق الطولي الخامس : يبدأ هذا الطريق الذي يجناز البادية من دمشق الى القطيفة وهو معبد وطوله ٤٠ كيلومتراً . ومن القطيفة الى جبرود افتتح طريق جديد وجرت نسوبته بتسخير الاهالي بالعمل فيه . ولم يجر شيء من الاصلاحات من جبرود الى القريةين وتدمر ودير الزور حتى البيضاء . وبلغ طول هذا الطريق من دمشق الى تدمر ٢٥٠ كيلومتراً ومن تدمر الى دير الزور ٢٢٠ كيلومتراً ومن دير الزور الى البيضاء في حدود الموصل ١٥٠ كيلومتراً فيكون مجموع طول هذا

الطريق ٦٢٠ كيلو متراً ولم يعمل فيه سوى جسر الصوار المعلق وفوهته خمسون متراً . وقد بنت نافعة حلب هذا الجسر مؤخراً وأنفق عليه ١٥ الف ليرة ذهبية . وبنى الآن في دير الزور جسر كبير معلق يبلغ طوله ٢٥٠ متراً وسيتم بناؤه قريباً وتقدر نفقاته بستين الف ليرة ذهبية .

وأما الفرع الثاني الذي ينفصل من الصوار الى الحسبة ونصيبين وطوله ١٩٠ كيلومتراً فإنه طريق طبيعي لم يعمل فيه شيء منذ القرون القديمة . وبتدأ طريق بغداد من دير الزور ماراً بالبصرة والبيادين والبوكمال وبلغ طوله حتى حدود العراق ١٤٠ كيلومتراً . وتفكر ادارة النافعة في حلب باجراء بعض اصلاحات فيه وهي تقوم بانشاء جسر على نهر الخابور في البصرة . وكذلك تعمل على تعبيد القسم المار في ارض صخرية وطوله ١٥ كيلومتراً . وهذا القسم الاخير هو جزء من الطريق الذي يبدأ من حلب الى دير الزور وينتهي الى بغداد .

ثانياً = الطرق العرضية من الغرب الى الشرق : (١) أنشي طريق غزوة = بئر السبع وطوله ٤٢ كيلومتراً في زمن الحكومة العثمانية وهو معبد .

(٢) أنجزت الحكومة العثمانية بعض أقسام طريق يافا - الرملة - القدس - الصلت = عمان وطوله ١٦٠ كيلومتراً والبعض الآخر منه لم يتم . وقسم يافا - القدس وطوله ٦٠ كيلومتراً معبد والباقي قيد الانجاز .

(٣) تم في العهد الاخير تعبيد طريق يافا - قلقيلية - نابلس - الناصرة - طبرية = سمنخ - وطوله ١٥٠ كيلومتراً .

(٤) تم انشاء طريق حيفا - الناصرة - طبرية - الجاعونة - جسر بنات يعقوب وطوله ١١٠ كيلومتراً . وكانت الحكومة العثمانية أنشأت بعض أقسامه .

(٥) ونصف طريق حيفا - الناصرة - جينين - نابلس - أريحا وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبد والنصف الآخر لم يتم تعبيده .

(٦) طريق صيدا - مرجعيون - بانياس - القنيطرة - الشيخ مسكين - ازرع - السويداء - صرخد وطوله ١٨٠ كيلومتراً . وكانت الحكومة العثمانية باشرت انشاء قسم الشيخ مسكين الى ازرع والسويداء حتى صرخد وذلك بعد حروب جبل الدروز



لتموين الجيش ولم يتم اذ ذلك فتم مؤخراً تعبيد القسم الواقع بين ازرع والتويداء وطوله ٣٧ كيلومتراً . وبادثرت حكومة لبنان تعبيد طريق صيدا > مرجعيون > بانياس وطوله ٤٠ كيلومتراً ولم يتمه حتى الآن . وتقوم ادارة النافعة بدمشق بتعبيد القسم الواقع بين بانياس والقيطرة و يبلغ طوله ٣٤ كيلومتراً . وسينتهي في اول صيف عام ١٩٢٨ . وتدرس هذه الادارة ايضاً مشروع انشاء طريق من القيطرة الى الشيخ مسكين فازرع وسينشأ هذا القسم خلال ثلاث سنوات . وتقدر نفقات انشائه بنحو مائة الف ليرة ذهباً .

(٧) = لم يتم تعبيد طريق درعا > بصرى > صرخد وطوله ٦٠ كيلومتراً وكانت الحكومة العثمانية بادثرت بانشائه .

(٨) = طريق بيروت > دمشق > بغداد وطوله من بيروت الى دمشق ١١٢ كيلومتراً نالت امتيازها شركة افرنسية في سنة ١٨٥٧ و بادثرت بانشائه في سنة ١٨٥٩ . وقد ترأس اعماله الكونت دي تويري وكان رأس مال هذه الشركة افرنسياً بجمعاً . وكان السير عليه ضاحكاً ومساهاً من الجهتين بواسطة الحوافل (الداليجانس) وتقطع هذه الحوافل المسافة بين بيروت ودمشق في ثلاث عشرة ساعة ووضعت الحكومة العثمانية اذ ذلك لهذه الشركة نظاماً وأسعاراً لنقل الركاب والبضائع والحيوانات . وامتنع بعض الاهالي من السير عليه بسبب غلاء الاسعار فكانوا يسرون بالقرب منه على طريقين متوازيين له . وقد كانت هذا العمل من ارباح الاعمال التي قامت برووس أموال افرنسية وكان الكل يجمعاً على ان هذا المشروع أفاد الاهالي والبلاد واصحاب الاسهم فائدة عظيمة وقد ربحت الشركة ارباحاً طائلة منه . اذ كان الربح الصافي سنوياً يقدر بثمانية الف فرنك . واستمرت هذه الشركة على أعمالها مدة ثلاثين سنة حتى انحلت سنة ١٨٩٢ ايام اشتركت مع شركة خط بيروت > دمشق > حوران الحديدية . واذ ذلك استلمت الحكومة العثمانية الطريق وأتممت محافظته حتى قبل الحرب العامة . فأصبح السير عليه صعباً لعدم اصلاحه وتعميره . غير ان الاتراك اهتموا باصلاحه في الحرب العامة . وبعد الحرب قامت الحكومات السورية واللبنانية

بإصلاحه فصلاح السير عليه وتيسر ان تستعمل السرعة عليه باجناس السيارات والدراجات على اختلاف أنواعها .

وبعد دمشق فينتجه الطريق شمالاً على طريق النيك وبعد عشرين كيلومتراً ينتجه شرقاً على طريق الصحراء ماراً بجوار قريبي العدراء وضمير الى الرحبية نقطة الحدود السورية العراقية . و يبلغ طول الطريق من دمشق الى بغداد ٧٧٠ كيلومتراً منه عشرون كيلومتراً على طريق النيك يسير في طريق معبدة والباقي ٧٥٠ كيلومتراً طريق طبيعي قد مهدته السيارات في الصحراء . ولهذا الطريق مكانة كبرى في التجارة والسفر بين دمشق والعراق وبلاد فارس .

ومن دمشق الى بغداد طريق ثالث وهو الطريق الذي يمر بالقطيعة وجيروود والقريتين وتدمر وطوله ٨٥٠ كيلومتراً ، فانه يزيد طوله عن الطريق الاول ٨٠ كيلومتراً و يبلغ طوله من دمشق الى القطيعة ٤٠ كيلومتراً وهو جزء من طريق النيك المعبد وهو بحالة حسنة . وقد جرى فتح طريق القطيعة جبرود مجدداً على طول ١٥ كيلومتراً ولم يعبد بعد غير انه سهل المرور . ومن جيروود حتى القريتين وتدمر وبغداد فان الطريق طبيعي لم تعمل يد الانسان فيه شيئاً . ويرجع شأن هذا الطريق لاجتيازه البلدان العامرة والقري الآهلة على طول ٣٥٠ كيلومتراً بين دمشق وجيروود وتدمر وعلى الاخص لمروره بمدينة تدمر التاريخية .

(٩) = طريق طرابلس = حمص تدمر = بغداد . كانت تستثمر طريق طرابلس = حمص شركة وطنية كما كانت تستثمر طريق بيروت = دمشق شركة افرنسية وكان ذلك قبل ان تؤسس شركة الخطوط الحديدية الافرنسية . والمسافة بين طرابلس وحمص ٩٤ كيلومتراً وبين حمص وحماة ٤٧ كيلومتراً فيكون المجموع ١٤١ كيلومتراً كانت كلها موضوعة تحت تصرف الشركة الوطنية المذكورة وكان رأس مالها ٢٨ الف ليرة عثمانية ذهبية . ويقسم رأس المال الى سبعة آلاف سهم بقيمة كل سهم اربع ليرات عثمانية ذهبية . وكان ربح كل سهم من هذه الاسهم ليرة واحدة في السنة . ومدة الامتياز خمسون سنة . واجرة الراكب في الحوافل (الداليجانس) نصف ليرة من طرابلس الى حمص . وبعد انحلال هذه الشركة هجرت



الحكومة العثمانية هذا الطريق حتى خربت وتداعت جميع جسوره اثناء الحرب العامة وزادت السيول في تحريمه حتى أصبح في عام ١٩٢٥ بحالة لم يبق معها صالحاً للسير عليه . وقد بوشر بتعبيده في آخر عام ١٩٢٦ وانتهى في النصف الاول من عام ١٩٢٧ . واما طريق حمص - حماة فلم يزل على ما هو عليه ايام الحرب العامة . وشرعت الحكومة السورية باصلاح بعض الاقسام فيه وسيتم انشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ . والطريق من حمص الى تدمر فيبغداد يمر بالصحراء على طريق طبيعي مهدته السيارات و يبلغ طوله ٧٥٠ كيلومتراً . وكانت السيارات تمر على هذا الطريق اثناء انقطاع السبل بين بيروت ودمشق وبغداد .

(١٠) = طريق اللاذقية - جسر الشغور - ادلب - حلب - دير الزور . وقد افتتح القسم الواقع بين اللاذقية وحلب في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً وسينتهي تعبده في عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٩٠ كيلومتراً وطول المعبد منه الآن مائة كيلومتر . وفي اللاذقية يتصل هذا الطريق بالطريق العام الواصل بين اللاذقية وطرابلس وبيروت ورأس الناقورة فيتمكن المسافر من حلب ان يقطع هذا الطريق على متن السيارة من حلب حتى اللاذقية وبيروت بسهولة . واما من حلب الى دير الزور فالطريق صعب جداً وتقوم ادارة النافعة بحلب باصلاح الاقسام الاكثر صعوبة منه و يبلغ طوله ٣٢٠ كيلومتراً وهو مار بجوار مسكنة والرفة وينتهي في بلدة دير الزور حيث يتفرع منها ثلاثة طرق طريق الموصل وطريق بغداد وطريق تدمر - دمشق .

(١١) - طريق السويدية - انطاكية - جسر الحديد - حارم - حلب . افتتح هذا الطريق حديثاً في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً . وسيتم انشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٤٠ كيلومتراً . وافتتح القسم الواقع بين السويدية وانطاكية في الجبال والاودية وبنى عليه عدة جسور ذات شأن عظيم وستكلف نفقات باهظة وطول هذا القسم ٣٥ كيلومتراً . ومن انطاكية الى جسر الحديد حتى حارم يجناز الطريق في ارض طينية لا يمكن المرور فيها في فصل الشتاء . واما بين حارم وحلب فالطريق معبدة وطولها ٧٠ كيلومتراً وتسير عليها السيارات بسرعة .

(١٢) - طريق الاسكندرونة - فرق خان - بيكي شهر - اوروم الصغرى

حلب . نقضي كثرة المعاملات بين حلب والاسكندرونة بان تكون المواصلات بين هذين البلدين سهلة ولكن لم يعمل في زمن الحكومة العثمانية ما من شأنه ان يضمن النجاح في هذا الشأن . وكان التجار الانكليز في القرن السابع عشر يشكون من الصعوبات اللمة التي كانوا يلاقونها حين ذهابهم من حلب الى الاسكندرونة .

وكانت الحكومة العثمانية أنشأت طريقاً في سنة ١٨٧٠ في الحدود الشمالية من ولاية حلب تضمن به المواصلات بواسطة البحر الى جهات كاييس وعينتاب وبيره جك والبلاد التركية الاخرى . وكان القصد من انشائه وصل الاسكندرونة بالبلاد التركية وقد وصلت الحكومة العثمانية هذا الطريق بفرع بين قطنة وحلب اقتصاداً من انشاء طريق ثان خاص بحلب فأصبح هذا الطريق بعد طريقاً لحلب . ثم تخرب في سنة ١٨٨٠ وكان كلف الحكومة مبلغاً كبيراً لو أنفق على انشاء خط ترامواي لما كان كلف اكثر من ذلك . وكانت القوافل تتبع طريقاً أقصر طولاً منه باربعين كيلومتراً وهو الطريق الذي انشأته الحكومة السورية حديثاً . وكانت القوافل تتجنب المرور في مسة قعات نهر عفرين التي يمر منها الطريق القديم . وعلى هذا فقد بقي هذا الطريق مخرباً الى سنة ١٨٩٠ حتى اتفق ان مر احد الولاة في حلب عليه فتخطمت عجلته وعلى اثر ذلك قررت الحكومة تعميمه وخصصت لهذا العمل سنوياً مبلغاً قدره ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة للاستمرار على ترميمه واصلاحه . وبعد جلاء الاتراك بقي هذا الطريق مهجوراً من غير اصلاح او ترميم الى ان تخرب . ورأت حكومة سورية أخيراً تركه لطول مسافته وكثرة نفقات اصلاحه ولبعد عن مراكز البلاد الواقعة بين الاسكندرونة وحلب . ففكرت بعد انشاء طريق حلب حارم ان ننشي فرعاً بين بيكيشهر وبيكي كوي للاتصال بين الاسكندرونة وحلب . وقد تم فتح هذا الفرع بتمهيدته ولم يعبد بعد . وقد أصبح طول هذا الطريق الجديد بين حلب والاسكندرونة ١٢٣ كيلومتراً بعد ان كان طول الطريق القديم ١٦٣ كيلومتراً وصارت المسافة بالطريق الجديد أقصر منها في الطريق القديم باربعين كيلومتراً .

هذا مجموع الطرق الاساسية العامة ببلاد الشام وهناك طرق فرعية كثيرة ممتدة كالشرايين تصل القرى بعضها ببعض ثم تربطها بمراكز الاقضية كما انها لتصل بالطرق

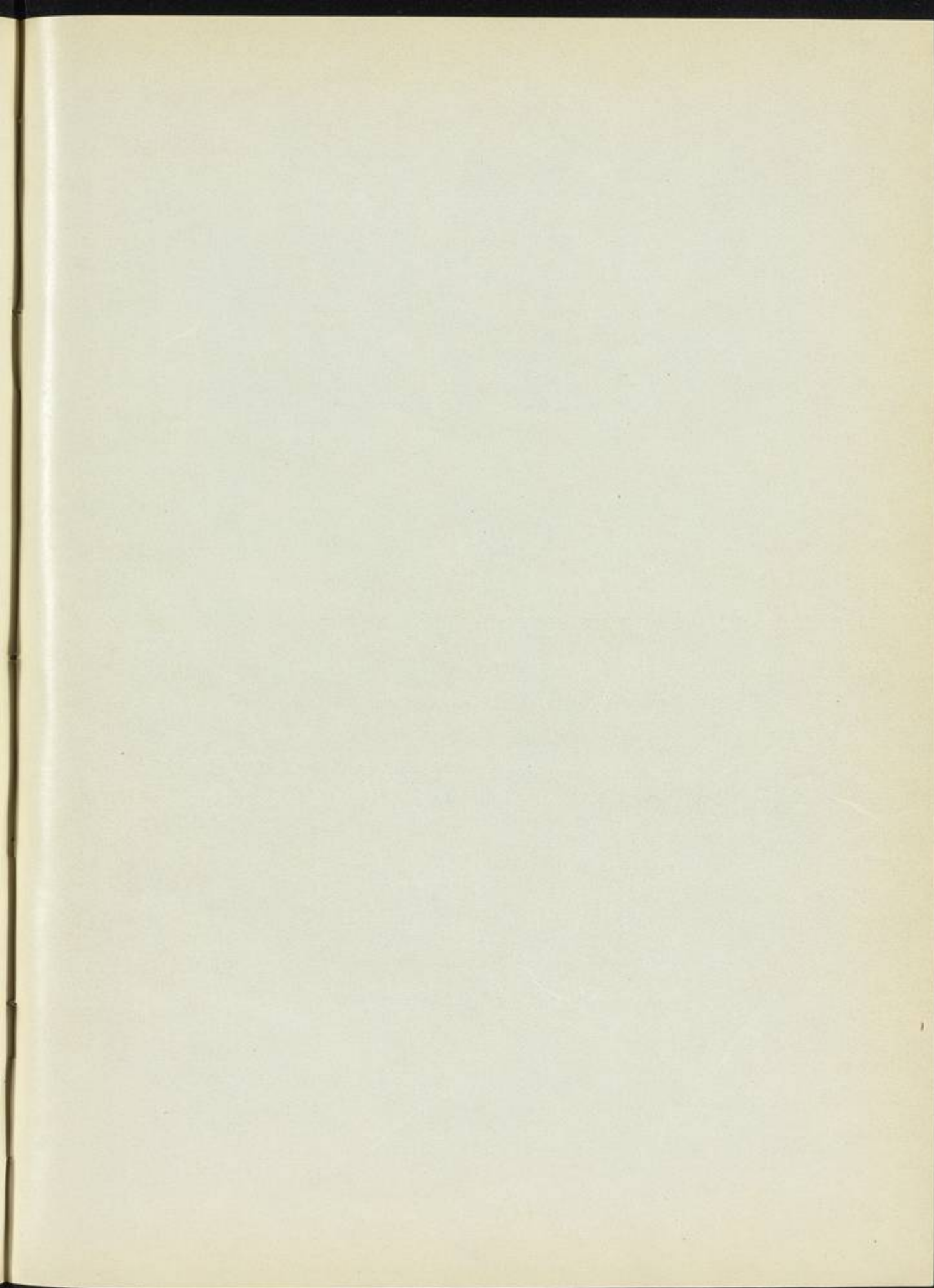


العامة . وكان أنشي قسم من هذه الطرق الفرعية قديماً وافتتح القسم الآخر حديثاً بطريق السخرة غير ان أكثر هذه الطرق ان لم تقل كلها تحتاج الى الاصلاح والتعبيد لتسهيل المواصلات بين القرى والبلدان ولتتمكن السيارات من السير عليها على أيسر صورة وتصبح حركة النقل سريعة لا كما هي عليه الآن في أكثر هذه الطرق من البطء الظاهر وحينئذ تزداد موارد البلاد ويسهل نقل البضائع الى المدن والسواحل ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة لانعاش حياة البلاد الاقتصادية . ومن جهة أخرى فانت وجود طرق صالحة في البلاد يزيد عدد السياح والمصطافين الذين يرتادونها وهذا أيضاً له شأنه في تقدمها وعمرانها .

\* \* \*

السيارات { وقد اخذ عقب انتهاء الحرب العامة سوق السيارات على اختلاف أنواعها وأصنافها تروج رواجاً كبيراً في بلاد الشام حتى أصبح منها عدد غير قليل يستخدم لنقل الركاب والبضائع في جميع أنحاءها . وقد تبين من الاحصاء الرسمي لغاية ايلول سنة ١٩٢٧ ان مجموع عدد السيارات التي سجلت رسمياً في البلاد الشامية ٦٦٢٢ . منها ٦٥٣ في دمشق و٦٢٩ في حلب و١٠١ في حمص و٩٣ في حماة و٤١ في دير الزور و٢١٥ في بلاد العلويين و٤٨٩٠ في لبنان . واذا فرضنا ان عدد السيارات في فلسطين نحو ثلاثة آلاف فيكون مجموعها في بلاد الشام ما يقرب من عشرة آلاف سيارة مختلفة الشكل والصورة . وقد اضررت هذه السيارات بمصلحة بعض السكك الحديدية ففترت أعمالها بعض الشيء لرغبة الناس في السرعة الزائدة . انتهى ما كتبه السيد عبد الوهاب المالكى .







## البرق والبريد والهاتف (١)



منشأ البرق «التلغراف» { لم يكن الى الربع الاخير من الحكم التركي بالشام برق ولا بريد ولا هاتف منظم . وضع نظام البرق في ٢٧ ربيع الاول سنة ١٢٧٦ هـ ونظام البريد في ٢٦ المحرم سنة ١٢٨٦ هـ وكان يتبادل بريد الحكومة على عهد الحكومات السابقة بواسطة السعاة والنجايبين او بواسطة حمام الزاجل . وتشمعل اشارات الضياء ( الفوانيس ) ابان الحروب عوضاً عن الاشارات البرقية السلكية واللاسلكية والهوليسته المستعملة الآن . واصطليح على استعمال كلمة برق عوضاً عن كلمة تلغراف اليونانية المركبة من كلمتين تل — غراف والاولى بمعنى بعيد والثانية الكتابة اي الكتابة عن بعد ، منذ نحو اربعين سنة واستعملت كلمة الهاتف على عهد الحكومة العربية عوضاً عن كلمة تلفون اليونانية المركبة من تل وفون اي الصدى البعيد . وللبرق ثلاثة فصول : الشبكة والآلات والادوات المستعملة وشكل الادارة والمخايرة واقتصرت شبكة البرق بدمشق على العهد التركي حتى سنة ١٨٩٩ على الاسلاك الممتدة منها شمالاً الى حلب وجنوباً الى القنيطرة، الصلت، حوران وشرقاً دوماً وغرباً بيروت ، حاصبها ثم توسعت هذه الشبكة في سنة ١٩٠٠ بتدبير الخط البرقي التجازي من الصلت حتى المدينة المنورة وامتد فرع منه بين معان والعقبة البحرية . وللسلك البرقي التجازي عمود تذكاري ركري في ساحة الشهداء بدمشق .

(١) أخذت معلومات هذا الفصل من إدارة البريد والبرق في دمشق .

ونفرع من السلك الشمالي فرع امتد بين حمص ، طرابلس الشام وحمص ، بعلبك  
وحماة ، سلمية وحماة ، العمرانية ومن السلك الجنوبي الى جبل الدروز وبصرى .  
وعلى أثر جلاء الجيش التركي ودخول جيش الحلفاء أواخر سنة ١٩١٨ خربت هذه  
الشبكة ثم أعيد انشاؤها على عهد الحكومة العربية على ما كانت عليه قبلاً الى ان  
انسحبت منطقتا فلسطين وشرقي الأردن وحكومة جبل الدروز عن جسم الشام .  
وظلت هذه الشبكة البرقية في الشام بطول ١٥٧١ كيلومتراً .  
وقد أنشأت الحكومة التركية اثناء الحرب العامة المخابرات اللاسلكية بدمشق  
وحلب واستعملت الاشارات الضيائية والبصرية بالاعلام والسواعد ضمن قطعات  
الجيش فقط .

\* \* \*

الآلات والادوات { كانت الآلات والادوات البرقية المستعملة على  
والخابرة { العهد التركي حتى سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٩ م مخصصة  
في نوع ميميس ومورس الاوربي ثم عدلت هذه الادوات في مصنع البرق الذي أحدث  
في نظارة البريد والبرق في الاستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين يجعل ابرة  
الكتابة بالآلة الاخذ للمفاوضات البرقية ان لتنقش الاشارات الرمزية ٠٠٠ — ٠٠ —  
[ — — ٠٠٠ — — ٠ ] على شريط الورق بصورة ناشفة بدلاً من  
نقشها بالحبر كالآلات السابقة ثم ألغت النظارة المذكورة استعمال الابرة والسلك على  
أثر ترقى الموظفين بتلقي نقرات الخابرة سماعاً وأصبحت الآلات المذكورة من نوع  
البارلور الذي هو عبارة عن الآلة الآخذة ، وقد وفرت على الادارة ثلاثة أضعاف  
ما كانت تكلفها قبلاً بوجود أقسام الكتابة . واستمر الحال على استعمال هاته  
الآلة حتى نشوب الحرب العامة فأحدثت الماكينات المضاعفة (دوبلكس) الالمانية  
والانكليزية التي سهلت الخابرة اخذاً ورداً في آن واحد على خط واحد كل حدثاتها  
ماكنت الهوك المفردة والمضاعفة التي نقل المخابرات البرقية على السلك الورقي حروفاً  
هجائية اخذاً ورداً .

وكانت المفاوضات البرقية على العهد التركي حتى سنة ١٩٠٠ في أكثر المراكز



تُخصر باللغتين الشرقيتين التركية والعربية ولا تُعدي البلاد العثمانية عدا بضعة مراكز كدمشق وبيروت وما يماثلها من مراكز الولايات وبعد ذلك أُحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية وأوروبا .

\*\*\*

أحدث الهاتف في الشام بعد اعلان القانون  
 الاسامي في تركيا خلال ١٩٠٨ / ٣٢٤ { احداث الهاتف «التلفون»

وكان مخصصاً بالدوائر الرسمية الملكية والعسكرية ورخص بتمديد الاسلاك  
 الخصوصية في مسكن كل مشترك وحانوته او مشترك آخر في بلدة واحدة تحت إشراف  
 ديوان البرق الملكية . واستمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكائها حتى نشوب الحرب العامة  
 فألغيت منها الاسلاك الخاصة وانحصرت بالاسلاك الرسمية التي تجاوزت نفس دمشق  
 وتوسعت الى مناطق الجيوش ومواقع الحرب حتى اذا انجلت الحكومة العثمانية عن  
 البلاد ودخل الجيش المحتل استلمها وأسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية وعممها  
 الى جميع مناطق الانداب الرئيسية كدمشق وحمص وحماة وحلب والاسكندرونه الخ .  
 وسمح للسكان وتجار هذه البلاد بالاشتراك والارتباط والمكالمة بها مقابل اجور  
 مقطوعة على كل ثلاث دقائق ثم اثناء الخابرة . وارتبطت الحكومات الوطنية في  
 كل من هاته البلدان بدوائرها المركزية هائلياً واستقلت الدرك بشبكة خاصة  
 مع مخافرها .

اما الهاتف اللاسلكي الرسمي فانه مخصص والحالة هذه بمصلحة الراديو العسكري  
 اخذاً ورداً والهاتف اللاسلكي التجاري مسموح به في قسم الاخذ منه تحت إشراف إدارة  
 البريد والبرق دون استعمال آلة الراداي الاصدار .

\*\*\*

البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتي بريد  
 منشأ البريد «البوسطة» { ذنب اي ممتطوع الذنب . والسبب بهذا

الاصطلاح الغير المأنوس هو ان الفرس كانوا يقطعون اذنان الحيوانات التي تنقل  
 بريد الحكومة تمييزاً لها عن بقية الحيوانات التي تستخدمها لركوب الدرك والجهابة .

فحذفت العرب كلمة الذئب واقتصر على كلمة البريد والجمع منها برد ( ارجع لتاريخ الطائر الغريد في وصف البريد ) على ما جاء في تاريخ البريد التركي تأليف مدير بريد الاستانة محمد علي بك . ولم يكن قبل القرن السابع عشر اثر للبريد على ما ورد في مجموعة البرق والبريد التركية .

كان شكل وإدارة البريد وسيره من حيث النقل حتى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩١ م بين بيروت ودمشق - المزربب أنحصر الى بيروت بمركبات شركة الخوافل المملوغة بعد سير السكة المذكورة . واما باقي الجهات فكانت شمالاً حتى حلب فالاستانة تسافر برآ مع التاتار اي مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل وشرقاً بين دمشق والعراق - بغداد على ظهر العجين ( اللؤلؤ ) وجنوباً بواسطة السعاة المأجورين وبجراً بواسطة بيروت وهو عبارة عن تبادل الكتب والصحف والملفات والنماذج دون القيمة والصرر ذات القيمة مع البلاد العثمانية وعلى الكتب والصحف والملفات مع البلاد الاجنبية .

وقد بدأ بتطور شكل سير البريد نقلاً وإدارة ومعاملة من سنة ٣١٦ - ١٩٠٠ فألغيت سعاة التاتار سنة ١٩٠٢ بين دمشق وحماة وسنة ١٩٠٥ بين حماة وحلب وسنة ٣٣١ - ١٩١٥ من حلب وأذنة فقونية . وأصبح نقل البريد حتى الاستانة برآ بالسكة الحديدية التي أنشئت شمالاً كما انها احدثت تقلبات البريد حتى الحجاز اي المدينة المنورة بالسكة الحجازية التي كان بدوي بانشائها سنة ١٩٠١ - ٣١٧ وانتهت بسنة ١٩٠٨ - ١٣٢٤ . وتبدلت تقلبات البريد تدريجياً بين البلاد الشامية من وسائل الحيوانات الى متن السيارات . واما فيما له شأن بالمعاملات فقد احدثت على التدرج واعتباراً من سنة ١٩٠٠ أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية والطرود العادية فالمشروطة التأديرة والمكاتب ذات القيمة المقدره بين الممالك العثمانية والشام . وفي سنة ١٩٠٢ بدأت هذه المعاملات الجديدة مع الممالك الاجنبية في اوروبا وآسيا وافريقية . ودامت على هذا التوسع التدريجي حتى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا واقتصر على البلاد المنقمة معها الى ان جلت الحكومة المذكورة عن هذه البلاد الشامية وانقطعت المواصلات البريدية اثناء



احتلال دول الاندلس بلاد الشام ثم عادت المواصلات الى سيرها السابق فتكاملها  
اللاحق بكل فروعها وذلك بمعاونة الحكومة المنتدبة هذا عداعن انقطاع السكة الحجازية  
الذي لم يصل والحالة هذه بين الشام والحجاز اي المدينة المنورة بعد الاحتلال  
البريطاني لفلسطين وشرقي الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية .

\* \* \*

مراكز البريد والبرق { دمشق مركز البريد ، دمشق باب توما ، دمشق  
في الشام { الميدان ، عفرين ، حلب ، اعزاز ، الباب ،  
بصرى ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جسر الشغور ، دوما ، أريحا ، ازرع ، حماة ،  
حارم ، حمص ، خربة الغزالة ، ادلب ، قطنا ، القنيطرة ، القطفية ، معرة النعمان ،  
منبج ، النبك ، عمرآغا ، الرقة ، سلبية ، السويداء ، بerood ، الزبداني ، الاسكندرونة ،  
انطاكية ، آرسوز ، بيلان ، قريوق خان ، الرميحانية ، السويدية ، كسب ، بلودان .  
هذا في دولة سورية ، وهذه مراكز البريد في لبنان :

بيروت ، جديدة المتن ، جونيسة ، جبيل ، بترون ، أنفة ، طرابلس ، زغرنا ،  
عكار ، غزير ، أميون ، بشرتي ، الدامور ، صيدا ، صور ، تبنين ، بنت جبيل ،  
جزين ، نبطية ، مرجعيون ، حاصبيا ، بعبداء ، عاليه ، دير القمر ، بعقلين ، بيت صهي ،  
برمانا ، بكفيا ، بيت شباب ، شوير ، بسكننا ، بجمدون ، صوفر ، حمانا ، زحلة ،  
رياق ، بعلبك ، الهرمل ، جب جنين ، مشغرة ، حصرون ، أهدن ، دوما لبنان ،  
حدث الجبة ، عين زحلنا ، سوق الغرب ، سبر ، قرطبا ، الشويفات .  
وهذه أسماء مراكز البريد في بلاد العلويين :

بانياس ، جبلة ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ، المشق ، العمرانية (مصيف) ،  
أرواد ، صافيتا ، صهيون ، طرطوس ، تل كلخ .  
واليك أسماء مراكز البريد والبرق في فلسطين :

عكا ، العفولة ، بئر السبع ، يسان ، غزة ، حيفا ، يافا ، جنين ، القدس ،  
لد ، المجدل ، نابلس ، نابلس ، الرملة ، ديران ، سمخ ، صرند ، تل أبيب ، طولكرم ،  
زمارين .

وقد أصبحت فلسطين في عهد الاندلس الانكليزي مربوطة كلها حتى قراها بشبكة من سلك الهاتف فنازع الهاتف البرق في هذا القسم الجنوبي من ارض الشام وأصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية .

وهذه جريدة اسماء مراكز البرق والبريد في شرقي الأردن :

اربدة ، ام قيس ، دير ابو سعيد ، الحصن ، الرمتا ، الزرقا ، الصلت ، الطفيلة ، عجلون ، عمان ، القطرانة ، الكرك ، مادبا ، معان ، جرش .

اما مراكز البرق خاصة في بلاد الاندلس الافرسي في الشام فهي كما يلي :

( سورية ) : حلب ، الاسكندرونة ، انطاكية ، آرسور ، اعزاز ، البساب ،

بيلان ، بلودان ، بصرى ، دمشق ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جبرود ، جسر

الشغور ، درما ، ربحا ، ازرع ، حماة ، حارم ، حسيه ، خربة الغزالة ، حمص ،

ادلب ، قطنان ، قرق خان ، القنيطرة ، القتيبة ، معرة النعمان ، معبلي ، منبج ، النبك ،

عمر آغا ، القنيطرة ، الرميحية ، سلمية ، السويداء ، السويدية ، الزبداني ، بربود .

( لبنان ) : عكار ، عاليه ، أميون ، بعبداء ، بعقلين ، بعلبك ، البتروت ،

بشري ، بيت لحم ، بيت صري ، بيروت ، بجمدون ، بجنس ، بنت جبيل ،

بسكنتا ، بركية ، برمانا ، الدامور ، دير القمر ، ظهور الشوير ، جزين ، جب جنين ،

جبيل ، جونيه ، اهدن ، انفة ، غزير ، حمانا ، حاصبيا ، حصرون ، الهرمل ، قب

البياس ، مشغرة ، مرجعيون ، النبطية ، راشيا ، رياق ، صيدا ، صوفر ، تبنين ،

طرابلس الشام ، ميناء طرابلس ، صور ، زحلة ، زغرتا .

( العلويون ) : بانياس ، جبلة ، حقه ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ،

صيف ، المشتى ، أرود ، صافيتا ، طرطوس ، تل كلخ .

فمجموع المراكز ٤٥ في لبنان و ٤٠ في سورية و ١٢ في العلوبين .





## المصانع والقصور

انقسام المصانع وعظمتها { ان قطراً كهذا القطر البديع ، تماقب الحكمة عليه الخثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والنتر والشركس ، وأعجب الفاتحون بجبراته ، واغبتوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يسغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيتها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني .

ان الشعوب التي أنشأت مصانع وادي مومى وجرش وعمان ومادبا وبعلبك وتدمر والرقفة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ولاشك ذات معرفة بالهندسة ، لا نقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتخريق ، بايدي المخربين ، من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

نقسم مصانع الشام الى قسمين : مدني وديني ، فالمدني كالفلاع والحصون والابراج والمناور والمراسد والقصور والجسور والسكرور والقنوات والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيوع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والخانات والملاجي وما شاكلها .

\*\*\*

مصانع الامم القديمة { ومن أقدم مصانع الشام ما وجد في قرية الحصن من  
 مجلون وهي أنصاب ( Dolmens ) يبلغ عددها  
 المثنين على ما قال مالون ، وهي عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة احدها طويل  
 منبسط ، يبلغ طوله ثلاثة أمتار في عرض مترين ، يركز أفقياً فوق حجرين آخرين  
 مربعين مستطيلين . ومنها ما يبلغ علوه ٨٠ سم ومنها ضعف ذلك . وقد زعموا انها  
 كانت مذابح دينية وانها هي المشارف التي تكرر ذكرها في الاسفار المقدسة . والرأي  
 المرجح انها كانت قبوراً ، ولا يعرف لها تاريخ أكيد . والعلماء يجعلون عهدا في  
 الطور المعروف بطور الظران . وربما كانت أقدم عاديات الشام .  
 ومن أقدم مصانع الحثيين قلعهم التي أنشأوها على الفرات في كركيش (جرابلس)  
 فبقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد حتى استولى الاشوريون  
 عليها . وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطعمهم سوى آثار ضئيلة .  
 واهم ما بقي من آثارهم ، معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصناعات والمهندسين  
 من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ قبل الميلاد ، وقد حُرق هذا المعبد فرم  
 غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد ولما عاد اليهود بعد ثنتين وخمسين  
 سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة ، وكانت دثرت محاسنه  
 الاولى ، ثم وقع ترميمه في أدوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين  
 خلفاء الاسكندر المكدوني في الشام ، ولا في زمن بومبيوس الروماني ، لانه كان من  
 عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ، ان لا يقاتلوا الامم التي بدو خونها على آربابها .  
 وربما اقتبسوا من غلبهم على امرهم عباداتهم من غير تكبير .  
 وسع هيروودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد  
 نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهرأ طويلاً . وقد قيل ان  
 سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة ،  
 قدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا  
 الحديد والنحاس والخشب . فأكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد وكان نجر اورشليم ،  
 وأجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السوراي اي العمدة ،



فأدار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء ، وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . وتحيط بالهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف عدة دور ، منها دار الامم وهي الدار الخارجية ، ثم دار النساء ، ثم دار اسرائيل ، ثم دار الكهنة ، ثم الهيكل . وقد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م .

ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون يتقنون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد ، وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من أرز لبنان وغيره ، مموهاً بالذهب والفضة ومجلى بالعاج والاحجار الكريمة ، وفيه من الاواني الثمينة والمُؤدَى والاحواض وادوات البيوت ، ما صعب ان يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل .

\*\*\*

هندسة الفينيقيين { لم يشتهر الفينيقيون بانتمهم عنوا بالبناء والهندسة  
وآثارهم { عنايتهم بالريج والكسب وارتياح القاصية ، ومع هذا  
أعجب الغربون لعهدنا بالكتائب التجارية التي أقامها الفينيقيون في شواطئ يونان  
وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافريقية . بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار  
مدينته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد  
حضارتهم ، أقل مما خلفته تدمر والبثراء . ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم  
الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها ، فن الباقي من أساس حصن  
صور الذي أعجز اقتحامه قدماء الفساحين كسراغون وبيزنصر والاسكندر ، لا يدل  
على كبير امر ، وقد بنى الاسكندر بين البر والجزيرة فيها سدّه الغرب ، وكان بناء  
صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا أعجب وأغرب شأنًا منه » وقال ابن  
جبير : انه بضرب المثل بمحصانها ، وذلك انها راجعة الى بابين ، احدهما في البر  
والآخر في البحر ، وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج  
ثلاثة أبواب اربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب ، اما الذي في البحر فهو  
مدخل بين برجين مشيدتين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضاً منها ، يحيط

بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . وكانت بيوت صور كبيوت طرابلس ذات طبقات ست وسبع وثمان على عهد الفينيقيين . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ، ولا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين ، لانه أشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا و يونان القدماء . وهكذا يقال في أسوار بيروت وصيدا وجزيرة أرواد وعمريت ومعبد هذه على رأي «رنان» أقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي . اما قبور الفينيقيين فهي أهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكلها تقريبا تقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في عمريت هي أهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ، ولا تزال محفوظة في متحف فروق .

بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر ، وامتدوا في حفر باتهم الى بلاد العرب للعثور على مدينة يعتد بها سبقت الرومان واليونان . وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لهم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المعد للضيف «السلامك» ، ودائرة الحرم ، شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هر كان في عراق الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية . ونقل في فلسطين وشمال غرب بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي فحنت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها مثال من أمثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن ، والاثريون يوالون النباش ليكشفوا شيئا يستدلون منه على مدينة أقدم أمة نزلت الارض المقدسة .

\*\*\*

أقيمت عدة أنصاب في الشام لملوك الرومان منها ما عثر  
 عليه الاثريون . ذكر وادنكتون كتابة وجدما في  
 عادات الرومان



السويداء كأنها كتبت تحت نصب أقيم لاحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر أدريانوس انطونينوس ييوس العاهل » ووجدت كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتهين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضر من جبل حوران ، وأخرى في الشهبه المسماة فيليببولي نسبة الى الملك فيلبس العربي ، ووجدت في السويداء ايضا كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمة للملك كومود ، أقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ، ذكرى جلب الماء الى المدينة وضواحيها سنة ١٨٢ ، ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عُدوة النهر الكبير كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساو يروس برتينكس اغسطس ، أقام هذا النصب بومبيابوس انجيوس نذراً للمشتري » .

بصعب الحكم على كل أثر بعينه ، ونسبة كل بناء الى الامة التي أقامته ، وكل واحدة منها تركت على الأغلب في هذا القطر أثراً مخلصاً متلداً نفاخر به . فالطرق الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها ، وطريق مادبا الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش وداي مومى ، والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد الى العراق ، وكان يسمى بالرصيف ، هي من الآثار المهمة كالمسكن الروماني في أذرح ، وآثار قنوات وشهبة وصالة ودامة العليا ولبن .

\*\*\*

عديبات البتراء وجرش } عديت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها وعمان } بضروب مرافقها ، ومنها الهياكل الجميلة ، والدور الفخمة ، والاندية والمجالس والقصور ، والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات ، وقد رأى فيها «دومازفسكي» آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والشامية . ومعلوم ان اهل البتراء عرب من النبط شيدها حوالي القرن السادس قبل الميلاد ، وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد . ومن أجمل ما في وادي مومى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم تقرت في الصخر

وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . وهذا القصر الفخم الذي يسميه الناس خزنة فرعون كان في الغالب معبداً لايزيس ، أنشئ على عهد الامبراطور ادر يانوس سنة ١٣١ وفي واجهة هذا التصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها ونقوش وتيجان ، وربما كان يصعد الى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحوائط من اثر الادراج . واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلج أحجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها . وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها ، وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدهشة . وكل هذه السواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان يهد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاؤون . والذي يزيد في الدهشة ان الحجر أحمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه يتناثر كالصخر الاصم . ثم ترى فيه ذك الممان ، فمن موجة حمراء الى أخرى زرقاء ، الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء . فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظر ، ورزق بانيه بدأ صناعاً لتفنن في نطيمه ، ونقره بما فاق به البناء في سائر عاديات الشام . فان كانت قلعة بملكك ثم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجرا الاثقال . فان هذه العاديات الازلية لتنادي بلسان حالها . هذه عظيمة الديان الى جانب تفنن الانسان .

وفي هذا الجوار أقدم النواويس وأهمها وبعد ذلك يجيء قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الابنية الضخمة من قلاع وأبراج وأسوار ونحوها . والغالب انه كان للتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل عهد الاسلام . وهناك ولا سيما في خربة الصاري آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها انها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان . وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والادوية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار البتراء في المكانة . وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل فتالاً بين سفن حربية . ويقول بعض علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت كانت على مثال قبور الحجر ، يرد عهدها الى الحارث الرابع احد ملوك البتراء اي ٩ و ٣٠ قبل المسيح وبعده .



وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها . وان ما يشاهد من صور ابي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على ان هذه البلاد تأثرت بالمدينة المصرية . والمسلتان الموجودتان في الحجر تمثل ربي النبطيين اللات والعزى ، وانها كانت مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بسنة قرون على الاقل ، وان المدينة اليونانية دخلت البتراء على عهد البطالسة فاختلط المنصران المصري والشامي ، وظل القول الفصل فيها للمدينة اليونانية الى عهد الحارث الرابع . وفي البتراء ٨٥١ مصنعا من القبور والمعابد والمذابح .

وعدوا من مفاخر وادي موسى الملعب العظيم المنحوت في الصخر ، قطره ١١٧ قدما وفيه ٣٣ صفا من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين . والملعب الروماني في عمان ( ربة عمون ) اكبر الملاعب في الشام . وهو مركب من ثلاث مراتب ، جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد ، والمرتبة الوسطى اربعة عشر صفا ، والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفا من المجالس . وهو يسع اربعة آلاف ناظر ايضا . وفي أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الاسود والنمورة والتاسيح .

و يرد تاريخ ارتفاع جرش الى القرون الاولى للمسيح ، وتاريخ ابيتها الى ابراطرة القرنين الاول والثاني ، وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة . وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب ، وعمدها المائلة للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة أقدام ، وملاعبيها وهياكلها وساحاتها وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها . وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ، وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بجائظ وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير انه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية أوسع من السفلى ، وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك ، وكل درجة وعليها مرتبة من الناس ، وكلهم ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يجيبون عنه ولا يجيب

عنهم في ذلك المجلس وكانما هو ليوم الحكم العام فقط ، و بالقرب من هذا الملعب ايضاً  
ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة ، وهن مستديرات المراكز كصورة  
دائرة ، وكانما كان على رؤوسها من التجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك  
ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة  
بعلبك وباب البريد بدمشق اه .

\* \* \*

وصف المحدثين { تبدأ خرائب جرش من الجنوب بيساب النصر المسمى  
خرائب جرش { باب عمان وهو بناء عرضه ٢٥٠٣٠ م والشق الاوسط  
منه ٦٤٧ على ١٢ متراً من العلو ، وله من كل جهة باب وهذا البناء أشبه بقوس  
النصر المنسوب لتراجان في مدينة رومية . ولذلك يظن ان البناء يرد عهده الى القرن  
الثاني للميلاد . وفي غربي هذا الباب سطح واسع فيه محلان ، وفي الاسفل مسرح  
لتمثيل الحروب البحرية ، وله بحيرة طولها ١٥٥٠ م وعرضها ٥٥ متراً ، وله اربعة  
سدود من جنوبها وعمقها ٤٧٠ م ومقاعد المنفرجين على طول المحل . وهذا الحوض  
متصل بقناة مع العين . وبفصل الحائط الشمالي المسرح بملعب كبير قطره ٩٠٥٥ م  
لا تزال ترى فيه اربعة صفوف من الدرجات وعلى مقربة من الملعب بقايا مدفئ  
كبير . وعلى بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طولها ٣٠ متراً وعرضه ٣٠٠٢٠ ،  
وكان للبناء المحيط به عمد منفردة احد عشر عموداً من الشمال ومثلها من الجنوب ،  
وثمانية أعمدة من الشرق ومن الغرب . وكان للدليلين صفان من الاعمدة وله تيجان  
قورناتية وعرض الرتاج ٤٧٠ م . وغرف المنفرجين التي مازالت جدرانها الجنوبية  
سليمة الى عشرة أمتار كان طولها ٢٥ متراً وعرضها ١٥٠ . وقد فقدت تيجان القواعد  
المركبة ( الركائز ) المبنية من الصخر المحكم الوضع وقام في العالي طنف بسيط قليل  
البروز . ومجموع البناء حسن للغاية . وقام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربية من  
هذا المعبد على سور المدينة . ولا يزال ٣٢ صفاً من المقاعد سليماً . ومعظم قطر المسرح  
٨٧٠٧٦ م . وهناك ممشي على شكل نصف دائرة يتصل مع الاسفل بخمسة سلام ومع  
الاعلى بنسعة ، ونقسم هذه الدرجات الى قسمين وله اربعة دهايز من جهة الجنوب .



ويمتد في الشمال الشرقي من المعبد والمسرح ميدان مهاد تحيط به عمد لطيفة ،  
تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربي . ولا تزال معظم السواري وعددها ٥٦  
محفوطة بجبالها ، وهي من الطراز اليوناني يتصل بعضها بالآخر من سطوح الاعمدة .  
وفي الشمال الشرقي من الميدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقيمة الاضلاع تجاز المدينة  
كلها وطولها ٨٠٣ مترات وعرضها ١٢٦٠ متراً والمسافة بين الاعمدة الموضوعة ثلاثة  
أمتار . ولم يبق من ال ٥٢٠ عموداً سوى ٧١ عموداً قائمة الى اليوم . اما الاخرى  
فقد تداعت بالزلازل او هدمتها يد الانسان في العهد الحديث ، لان هذه الخرائب  
أصبح اكثرها مقالع لاهل القرية بأخذون من أبنيتها الجميلة حجارة لبنائهم . وعلو هذه  
الاعمدة من ٦٥٠ م الى ٩ م يدخل في ذلك الاساس والتاج . اما العمدة القائمة وسط  
الشارع فهي من الطرز القورنثي ، وتيجانها من أرقى ما صنع الصانعون . وما كان منها  
بالقرب من الميدان وعلى نحو الباب من الشمال فهو من الطراز اليوناني .

وبرى الناظر من جانبي الشارع بقايا صف آخر من الاعمدة ربما كانت مجازات  
بين الاعمدة على طول الدور . وهناك جسر يجاز القناة على خمس حنايا وعرض  
الاطراف منها ١١٤٠ م . وثم بقايا بناء عظيم منقوش كان يتخذ محكمة جعل على  
شكل نصف دائرة ، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار ولها فوارة . وعلى مقربة من  
هذا خرائب أروقة المعبد الكبير الضخمة العظيمة . وقد تهدم جزء من سطح أعلى الباب  
الاعظم وهو منحرف بفرج لنوافذ مثلثة الشكل منقوشة أجمل نقش . والنقوش السالمة  
التي تزين الواجهة الغربية هي من طراز رائق بديع . وهذه الأروقة تؤدي الى معبد  
عظيم يدعى عادة معبد الشمس وهو في مستوى طوله ١٦٠٦٥ م وعرضه ١٠٤٨٥ م تحيط  
به ٢٦٠ عموداً . وطول المعبد ٢٦٧٠ م وعرضه ٢٠ م . ويتألف رواق المعبد من  
صفيين من الاعمدة احدهما من ست والآخر من اربع . وزيادة على ذلك عمود من  
كل جهة من الحواجز البارزة من المعبد . وفيه تسع سوار علوها ١٣٨٠ م وعرض  
الزناج خمسة أمتار وعرض المجالس ١١٢٠ م وطولها ١٧٨٠ م . وفي جنوبي المعبد  
كنيسة كاتدرائية ذات ثلاثة صحنون . وفي الجنوب الغربي كنيسة أصغر منها .  
ويظهر ان كنيسة ثالثة في شرقي الأروقة كانت من جملة الاجزاء المتممة لمعبد الشمس .

ومن هناك نشعب شوارع أخرى وتقاطع الطرق ، وكانت مزينة بتماثيل ونصب وعمد وسوار لا يزال بعضها أثراً شاهداً على العظمة الماضية .  
 اما ملعب الشمال الذي كان خاصاً على ما يظهر بقتال الحيوانات والصراع ، فكان له ١٧ صفاً من الادراج ومجموع علوه ١٢ م وفي محيط الدائرة منها بين الصف الثامن والتاسع خمسة معابر او ممشى ترى بين كل واحد منها كوة عظمي وثنين أصغر حجماً على شكل الصدف . والحمامات العامة عبارة عن مجموع غرف وعقود يطلق عليها اسم الخفاف . ومدخلها بناء سلم برتمه من عوادي الايام تعلوه قبة ومساحتها ١٦٧٠ متراً مربعاً . وهناك سلم يوصل الى محل الحمامات الحقيقي . مؤلف من ارض مساحتها ٦٧٧٠ م طولاً و ٣٠ عرضاً ولها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ٤٢ م وعرضه ١١٧٠ م . والقرب من جامع القرية بناء آخر قديم كان حماماً ايضاً وعلى الشاطيء الشرقي من النهر تشاهد حيطان سور كنيسة رابعة طولها ٦٠ متراً وعرضها ٣٦ م ٦٠ م وحنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سواربها سوى تسع قواعد يونانية وبعض اسطوانات . وكان هذا المعبد في الاصل مدفناً للربة نيميزيس ويرد عهدها الي الامبراطور تراجان .»

\* \* \*

عاديات تدمر { ذكر بعض الاثر بين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة ، وقد أصبحت في اوائل الصراينة احدى المدينتين اللتين جمعتهما بين تجارة اوربا وآسيا وأعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليها السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان . ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانبياءه وأضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن  
 وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحددنا عن القند



وختيس الجن افي قد امرتهم بينون تدمر بالصنّاح والعمد  
خربت آثار تدمر سنة ٢٧٣ م على يد اورليانوس الروماني لما قهر زينب ملكتها .  
ولما انتقض أهلها عليه عاد فانفتحها عنوة ، وأعمل في أهلها السيف اباماً متواليه حتى  
كلت ايدي جنوده من القتل والذبح . ثم امر فبمئرت الابنية ، وقوضت الهياكل ،  
ودكت الأسوار ، وهدمت القلاع . فأصبحت تلك المدينة الزاهرة قائماً صنفماً  
وظلت على هذه الحال قرية حقيرة الى عهد ديوكليتيانوس استخدمها الرومان لرد  
غزوات البادية وغيرها .

\* \* \*

وصف عاديات { وبعد<sup>(١)</sup> فان كل مادونه مؤرخو العرب في تدمر وما  
تدمر { وصفها به رحالتهم مختصر جداً لا يسفاد منه الفائدة  
العملية اللازمة وبتعذر علينا من النصوص التي اتصلت بنا ان ندرك حقيقة حالة تدمر  
وعمرانها حين فتحها المسلمون . والمعروف ان تدمر لم تستعد مكانتها ولا بعضها منذ  
استيلاء اورليانوس عليها في سنة ٢٧٣ م . يوم دك معاقلها وهدم دورها ودرس  
قصورها فأخذت تدمر حينئذ بالانحطاط الى ان ماوصلت الى ما هي عليه اليوم .  
ان اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فانا نجمل ما انتاب البقية الباقية من عمرانها  
بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر . ايام نزلها في سنة ١٧٥١ المهندس  
الانكليزيان وانكس وود فرسما مخططاً لتلك الخرائب ونقلها الى بلادهم جملة رقم  
تدمرية و يونانية تمكن بفضلها سو ينن و برتليبي من قراءة حروفها وتفسير معانيها .  
ومنذ ذاك العهد اشتهرت تدمر في بلاد الغرب ولا سيما عند علماء الآثار وغواتها  
فكثر شد الرجال اليها وزاد زوارها في السنوات الاخيرة خاصة وذلك بالنظر لسهولة  
المواصلات وتوفر أسباب الراحة فيها . وبالرغم مما انتاب تدمر من عوامل الهدم  
والتخريب فان القسم القليل الذي سلم من كوارث الايام واحداث الدهر بني بجهد  
عظمتها وجلال قدرها . فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الاطلال ويتأمل هذا الانتان

(١) كتب وصف تدمر الباحث الاثري الامير جعفر الحسيني .

ان لا تأخذه حيرة في دهشة او رعشة في وحشة لهذا الابداع العجيب ودقة الصنعة ونسب الجمال والعظمة . فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططيها ومهارة عمالها وصناعها . فقد جمعت بين الابداع والاعجاز حتى يتساءل المرء وهو في القرن العشرين ان كان هذا ثمرة جهود الانسان او عمل من صنع الجان .

تعد خرائب تدمر اليوم من اكبر خرائب الشام وأهمها وتقسّم بناياتها الى ثلاثة أقسام : الهياكل والبلدة والمدافن . ولم يبق من الهياكل سوى الهيكل الكبير وهو هيكل بعل والهيكل الصغير وهو هيكل بعلشاميم . والاول هو اكبر بنايات تدمر وأهمها ويقع الى الجهة الشرقية من البلدة . وهو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ٢٣٥ متراً يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه نحو من ١٥ متراً . ومدخله من الغرب . وهذا المدخل يؤدي الى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ١٤ متراً ومنه تجناز الواجهة الداخلية وتعتبر هذه من ابداع مصانع تدمر وأثقتها صنعا . ويحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائماً على ٣٩٠ عموداً تهدم اليوم معظمها . وقد شيد في وسط هذا الفناء الهيكل الاصلي وطوله ٦٠ متراً وعرضه ٣١ متراً ونصف . وأقدم كتابة وجدت داخل هذا الهيكل مؤرخة بسنة ١٧ م . ويزجج ان هذا الهيكل بني في أوائل العهد المسيحي .

والهيكل الثاني الى شمالي البلدة ومدخله من الشرق وهو أصغر حجماً من الاول وأقل كلفة . ومجموعته الخارجي يكاد يكون سالماً ومع بساطته تجيد إنقائاً في بنائه ودقة في نقوشه وقد تم بناؤه في النصف الاول من القرن الثاني للميلاد .

ان ما بقي من آثار البلدة هو أروع شيء في خرائب تدمر وأعظم منظراً . ومنها تلك الاروقة التي كانت تمتد من جانبي أهم شوارع البلدة فهي أبهج منظراً لعظمة تلك المدينة وأطول هذه الشوارع هو الذي يخترق البلدة من الشرق الى الشمال ويقسمها الى منطقتين وطوله ١٢٠٠ متر وعدد أعمدة كل صف يبلغ ٣٧٥ عموداً ارتفاع كل منها ١٧ متراً وقد تهدم معظمها فلم يسلّم منها سوى ١٥٠ عموداً . ويخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلته وعند ملتقاهما يؤلفان صلباً وكان على مقربة منه تمثالاً أذينة وزنوبياً . وفي منتصف كل عمود ركيزة قامت عليها تماثيل



مشاهير حكامها والصالحين من رعيتها . ولم يزل مدخل المدينة الشرقي قائماً وله منظر رائع ومرأى جميل . وما خلا ذلك من الأبقاض المتراكمة الباقية والأعمدة والاحجار المنخوتة مبعثر مشئت عرف بفضلها أصحاب الهندسة تخطيط أبنية المدينة وهندسة شوارعها وأزقتها .

ان قبور تدمر مبعثرة حول البلدة ومعظمها في الجهة الغربية في واد يعرف بوادي القبور لكثرتها فيه . وهي على نوعين : منها ما هو قائم على شكل أبراج مربعة في ثلاث او اربع طبقات منقسمة حجراً وفي جدرانها القبور . والنوع الثاني كهوف تقرت في الصخر على سفح الجبل وهي ذات ابوابين او ثلاثة ومن القبور ما هو في الجدر ومنها ما هو على شكل النواويس ويختلف عدد القبور في كل مدفن بين العشرين والسبعين وهو ملك أسرة واحدة او اكثر . وكان لابناء الأشر في تدمر عناية خاصة بمدافنهم يتنافسون بانقانها وزخرفتها ومنها ما هو أشبه بقصور منها بقبور . وكل هذه العناية لحرصهم على راحتهم في دار البقاء كما ننص على ذلك رقيمهم القبرية اه .

أقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة . وبعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات . ولا شك في ان الحرس الروماني كان في بعضها . وبني الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث البادية . وطريقاً من صرخد الى البصرة . وطريقاً من حوران الى البلقاء الى عقبة أيلة وما اليها . وكان ذلك في ايام عظيمتهم . قال احد علماء الهندسة من الفرنج : ان الرومان لما أصبحوا سادة الارض وامسى معهم جميع الشعوب بمثابة العبيد عدلوا وهم في اوج عزهم عن أعمال في العمران كان فيها عزهم ونجاحهم واستسلموا الى الكسل وإضاءة الاوقات . وبعد ان فتحت زينب او زنوبيا سلطنة تدمر المشهورة القطر المصري عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من أقطار الارض ولا سيما اليونان . ولما جاء يوستينيانوس سنة ٥٢٧ جدد بناء الاخرية في تدمر وشيد ابنية أخرى فيها وجعل لها سوراً . ثم سطت عليها الزلازل كثيراً . وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق . وما استخراج ولا يزال يستخرج من ارضها من التماثيل والانصاب والشواهد بدل على فضل ذوق وحسن هندسة .

ومن كل أنواع الانام مصور  
ومجلس أنس يفسح الطرف ملؤه  
وصرعى وقتلى في قتال عساكر  
فمن جانب أضحيت نُصب مدامة  
خليطات هذا للقراع معبس  
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم  
وكل يُعاني شغله غير انه  
ملاعب فيها الملك رام بطرفه  
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم  
فلولا مكان الدين قل لفقدتم  
ملوك أقاموا ما أقاموا أعزة  
وخيل للرأي ليذكر عهدهم  
خيال لم يهدى الى كل أمة

\* \* \*

عاديات بعلبك { ان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة  
امس واليوم { وهيكل باخوس ودار المذبح او البهو الكبير المائلة الى  
اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتفاعه فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت  
الرومان واليونان . وقد عدت أحجار بعلبك ومنارة الاسكندرية ( الاسكندرونة )  
من جملة عجائب الشام . فقد قال العمداني في أحجار بعلبك ان فيها حجراً على خمسة عشر  
ذراعاً اقل او اكثر ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعاً في  
طول خمسة واربعين ذراعاً . هذا حجر واحد في حائط . واما منارة الاسكندرية  
فانه يصعد اليها رجل على برذون حتى يبلغ اعلاها وهي مبنية على سر كان من زجاج .  
وفي بعلبك هيكلان كبيران طول أصغرهما ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً  
وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس  
٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ قطر الواحد منها ٧ أقدام وعلاه



من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وممكك ١٢٠ قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة . ذكر ابن حوقل ان قلعة بعلبك الحصينة الجميلة من أجل مباني الارض . وانما بنيت قلعة دمشق على مثالها ، وهيئات لا تعد من أمثالها . ابن قلعة دمشق من قلعة بعلبك وحجارتها تلك الجبال الثابت ، وعمدها تلك الصخور الثابت .

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه ان السماء نظير الماء في الزرق قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش أجنحته . وفي اربع قرن السقف اربعة أصنام واسماؤها ودّ وسواع ويغوث وبعوق . ويقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثلاً للناس . يعني ان من هنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة - وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الجبل - وبالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر عددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اه .

وان آثار بعلبك بما فيها من العمدة الضخمة ومنها من النوع المعروف بالمحبيب ( غرانيت ) الذي جلب من بلاد السودان على ما يظن تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الالوف من العملة المسخرين المستعبدين . وهكذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان . بيد انهم خلفوا عادات عظيمة أعلت بين الامم القديمة ذكرهم . وجعلتهم موضع الاعجاب على توالي الأحقاب . وصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام مصر انها صبرت على عمر الازمان بل على ممرها صبر الزمان . فانك اذا تجررتها وجدت الازهان الشريفة قد استهلكت فيها . والمقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها . والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها . والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية إحكامها حتي انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر مجالهم وبنطق

عن علومهم وأذهانهم وترجم عن سيرهم وأخبارهم . أو ما قاله في براني مصر : فالحكاية  
عن عظمها وانقان صنعتها وإحكام صورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش  
والتصاوير والخطوط مع إحكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر .  
ومن أجل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها	فنتة السامعين والنظار
مجزات من البناء كبار	لأناس ملء الزمان كبار
البيتها الشموس تفويف در	وعقبى على رداء نضار
وتحلت من الليالي بشاما	ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع	مربتها ظوايح الانوار
زادها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها به يد الأعصار
رب شيب أتم حسناً وأولى	واهن العزم صولة الجبار
معبد للامرار قام ولكن	صنعه كان أعظم الامرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقصدار
صنعوا من جماده ثمراً ينج	نى ولكن بالعقل والابصار
وضروباً من كل زهر انيق	لم تفتها نضارة الازهار
وشموماً مضيئةً وشعاعاً	باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيات	خالدات الغدو والابكار
في جنات معلقات زواه	بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً ينجشى التحفز منها	ويروع السكوت كالنزار
عابسات الوجوه غير غضاب	باديات الانياب غير ضواري
في عرائنها دخان مثار	وبالحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في	كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام	دق حتى كأنها في انتشار
في مقام للحسن بعدد بعد ال	مقل فيه والعقل بعد الباري
منهي ما يجاد زماماً وابهى	ما تخرج القلوب في الانظار



انطاكية وحمص وأفامية } هذا إجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار  
والبارة ودهشقي } وهندستها ، ومن أم آثارها انطاكية التي  
بناها انطيجنوس وأكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ قبل الميلاد . وكان فيها من  
عجائب الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان ان تعمل مثله في أرضها ، ولولا ان الزلازل  
تحينتها في أحوار مختلفة لكانت اليوم من أم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية  
عاصمة الشرق أيام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل  
انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والمياكل والحمامات والقنوات  
ودور التمثيل يبكي لبلد انفتحت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ، ولم يبق من  
عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزان حمص وقناة  
سليمة وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها معراج حلب ، وهي صورة تامة من نشوء  
الهندسة ، وقد غنيت هذه المدينة الاخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية  
والمدينة وما برح معظمها بحاله . ومن أم ما في شمالي الشام ملعب أفامية (قلعة المضيق)  
وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب  
عند قدماء اليونان ، ونصب فيها برياكسيس المهندس الاثيني تمثالاً للرب اشتهر  
بين العارفين بالصنائع الجميلة ، وهو قابض بيده على فيثارة ، وقد صورت صورته على  
نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرهما من الارباب .

وكانت مدينة أفامية على عهد السلاسة خلفاء الاسكندر من المدن الكبرى  
بدليل ما ذكره الحمصاني من انه كان فيها ملعب يعد من البناء المذكور في العالم .  
وكانت مستقراً للجيش الرومي . وفيها زرائب واصطبلات تؤوي ٣٠٠ فيل و ٣٠٠  
جاموس و ٣٠٠٠٠ حصان ترعى في سهلها الخصب وترد ماؤها العذب النثير . وقد ذلك  
حصنها بومييس وكان من أمنع الحصون . وفيها الى اليوم آثار شارع يمتد من الباب  
الشمالي وعلى جانبه سوار وعمد مختلفة الاشكال والحجوم وتبلغ نحو ١٨٠٠ سارية  
يردئ عهدها الى أواخر حكم الرومان . ولا يزال كثير من الارتمجة والابواب قائماً  
وهناك خرائب أخرى لم تعلم ماهيتها .

ومنها خرائب البارة في الشمال غربي العاصي . وخرائبها واسعة ومهمة وشوارعها العديدة وبوتها « على رواية فان برشم » لا تزال محفوظة . منها بقايا خمس اوست كنائس وبيع . وفي ضواحيها بيوت مهيمة عملت من الحجر الصلد يكفي ان تسقف بالخشب حتى تسكن وهي خالية . وان ما هنالك من مصانع ومعابد وبيع وقصور وكلها نقر بها من العهد المسيحي قد لا يخلو من نقوش ، ويرد عهدا على الاغلب الى القرن الخامس والسادس ، وفي قلعها من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين والثلاثة وعرضه ٧٥ م زيرت عليها حروف يونانية . وأغرب ما في عاديات هذه القرية ان خرائبها الواقعة على اربعمائة متر نقر بها ما زالت بجبالها تذكر المرء بأثار بومبيه ومساحتها السطحية اربعة كيلومترات مما دل على عظم المدينة في القديم . وقد قام بين المثلتين قصر ذو طابقتين محفوظ في الجملة اسمه ديرسو باطرفيه آثار ونواويس وأبواب أزيلت . وقد وجد على احد ابوابها كتابة يونانية معناها « ليخفظ المولى من ملكك ومخزجك الآن وفي العصور المقبلة آمين » وكانت هذه المدينة في سعة حلب كما يفهم من خططها .

ومن أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخترقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمدة وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والخوانيت . وكان مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والمجالات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجالئين . والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً . ومن العاديات القديمة في دمشق مدخل الكنيسة ولا سيما من الغرب وهي التي أصبحت في الاسلام الجامع الأموي .

\*\*\*

حوران ولبنان { ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران ، واحصن  
وأقامية وغيرها } مدن باشان ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في تلك  
المدينة من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع  
ميل وعرضها ميلاً ، ويحيط بالسور ربض كثير المباني ، ومحيطها خمسة أميال لها  
سور عالي الجدران ، وثيق البنيان ، وقلعة لأحصن منها في عامة بلاد الشام . ويقطع



المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة ، وبدائع البناء ، واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، وركام الأتقاض وبوت الاقدمين . وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى . والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس اذ عشرة مساجد ، عدا القصور والحمامات والسبل والقنوت وأقواس النصر وغير ذلك من المباني انكشيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بنساها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً . ففي كل مدينة ساحة عامة ( فوروم ) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابول اذ معبد المشتري وجونون ومينرفا ( ربة الحكمة والفنون والحرب ) . وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة . وفيها أسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقامم ماء ذات قنوت لا تزال ترى الى اليوم آثارها . ومراحيض عامة وخاصة . واماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبوت للتعريق . وقاعات للرياضة والمحادثة ومماش للتنزه . وأفوان وأقواس نصر وأبواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في أكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن أهم مصانع الشام عاديات قنوت في جبل حرران وصفها بورتون بقوله : بلغنا أكمة تطل على قنوت فرأينا على اليسار وادياً عميقاً ، وعلى جانبه النربي خرائب المدينة القديمة وسورها يتبع الشواقي مسافة ميل ثم يتعطف متعرجاً . فيكشف ارضاً عرضها نصف ميل فيها القصور والهياكل والكنائس والمشاهد وما ماؤها من المباني المنحمة قائمة بعضها بازاء بعض على نسق بديع يدهش الابصار . ووراء السور في اسفل الوادي وعلى الجبال المحيطة به في القنن الشاهقة وبين حراج البلوط ، اعمدة رفيعة ، وابراج مشيدة ، ومدافن عالية . واسمها عند اليونان قناتا وسمها العرب قنوت بلغت اوج مجدها على عهد الرومان . وكانت من اعظم المدن شرقي الاردن . وفي عهد

النصرانية فنصر اهلها وحولوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الاسلامي وقتل سكانها او هجروها فلم يُعْن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا في غيرها من مدن الشام .

ثم ذكر انه لم ير في مدينة أخرى من مدن فلسطين ما رآه في هذه المدينة وبينها تماثيل اسود وفهود وكلاب، وفيها رأس عظيم للربة عشتاروت امام هيكل صغير، وامام القصر ساحة فسحة تحتها صهر ينج كبير سقفه موقود، كانت المياه تجري اليه بقناة منحوتة في جانب الوادي، فيجتمع فيه ما يكفي المدينة فصل الصيف . وغربي المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمدة الكورنثية، وهو قائم على اكمة صناعية وقد سقط اكثره وتصدعت الجدران، وفيها برج مستدير وآثار سور . وفي بطن الوادي مماش مدرجة وفسافي منسقة وكرامبي التماثيل وهيكل صغير وملعب سُخِنت مقاعده في الصخر . وفوق دكة كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها ان مرفص لوسياس بناه على نفقته ووهبه لابناء وطنه . ويصعد من هذا الملعب بسلم منحوت في الصخر الى البرج المستدير وهو ضخم الحجارة قديم البناء لم يبق منه الا ما ارتفاعه عشرون قدماً وعلى مقربة منه بقايا قصر مبني بحجارة كبيرة منحوتة واغلاق أبوابه وكواه من الحجر كلها وهي كثيرة النقش عليها الكليل بارزة من الأزهار والأثمار .

ومن أهم الآثار في الشام جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها فنانان تمتدان بين نهر النكب وجونية والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل انقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذهبان في سفح جبل صنين . وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل زيزا ونادس في جهات أميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة وفي البتروت حصن منبع وملعب وفي بيروت مسرح . ومن قلاعهم قلعة صربا ويحمور . ومن أجمل حماماتهم حمام شعبة الذي يذكره يخرائبه النخسة كما قال ري بحمامات كارا كالا في رومية . وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في



رومية . قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

\* \* \*

الهندسة الشامية والكنائس { قال احد علماء الآثار : ان في الشام  
والهياكل الوسطى مجالاً واسعاً للابحاث العلمية ودرس  
العاديات ، فان فيها مالا يحصى من الابنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية  
ودور الخاصة والاندية العمومية من أواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع  
للميلاد ، ولا كثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها . وهذه الآثار لتوالي سنة  
بعد سنة حتى لو جملت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية  
من أثار أو آثار .

وقد عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية وتدمر وبعبك ولدو وباب  
جبيوت قال والروم نقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرّها ( اورفة )  
ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب الغناب ولا بناء  
بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات التجارة ابهى من كنيسة حمص .  
وبعده القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على  
أساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس ، وعلى  
احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثني عشرة ساعة وسي  
اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخرّج منها المياه  
وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزّع . وكنيسة  
حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . وكان في مادبا  
من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على  
الجانبين . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطراييلها اي صوامعها . وفي  
كتاب لبنان ان من الآثار اليونانية البيزنطية في لبنان كنيسة مشنقة ومعبد ناوس  
فوق شبطين ومعبد كفر شليمان وكنيسة حدثوث وكانت مبلطة بالفسيفساء تمثل  
رسوماً وتصاوير جميلة ومن الفسيفساء امثلة جميلة في بعض الكنائس القديمة في لبنان

كفسيقساء كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح وكنيسة كور القديمة وما وجد في النبي يونس من دائرة فيها كأس حوله طيور كالتاوس والسجل وبعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة ٥٥٤ م . وكان في بيروت عدة كنائس بيزنطية . ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأناً عظيماً وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وسنعرض للكلام على بقية الكنائس والاديار في الفصل الخاص بها من هذا السفر .

\* \* \*

آثار العرب قبل الاسلام { كان العرب قبل الاسلام يخلطون الى بلاد الشام  
الاسلام . بل كانت النبط وهم عرب هم الذين أنشأوا آثار  
جرش والبثراء . والغسانيون واليهيم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر  
النعمان بن المنذر في السويداء وفي حارب . وبنو جفنة اول ملوكها جلق والقرية  
وعدة مصانع . وبنو ابنه عمرو ديرحالي وديرابوب ودير الدهناء . وبنو ثعلبة بن عمرو  
عقة وصرح القدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء . وبنو جبلة بن الحارث من  
ملوكهم القناطر وأذرح والقسطل . وبنو الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء  
الحفير في البلقاء ، ومصنعه بين دعيان وقصر ابيرو . وبنو المنذر بن الحارث صربا ورزقا  
قريباً من القدير . وبنو جبلة بن الحارث قصر حارب . وبنو الابهيم بن الحارث من  
الاديار ديرضخم وديرالبوة وسعف . وبنو عمرو بن الحارث قصر الغضا وصفاء العجلات  
وقصر منار . وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين اباغ . وأصلح  
النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة . وكان بعض ملوك تخم خربها .

وحكم النبوخيون شمالي الشام قبل ان يبيتها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للضجاء  
والنبوخبين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ  
وآثار بني مميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . وأقدم اثر عثر عليه  
العلماء الآن وكتب بالعربية كتابة وجدت في زبد للجنوب الشرقي من حلب وأخرى في  
حوران جنوبي دمشق من أعمال التجارة في حوران . الاولى مثلثة اللغات عربية وسريانية



ويونانية برني عهدها الى سنة ٥١٢ م . ب . م . والثانية بالعربية واليونانية تاريخها سنة ٥٦٨ م . م . بيد ان الاثري دوسو اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطي في حرّة وادي السوط على مسافة كيلومتر من النمرة في حوران الى جنوبيها الشرقي وتاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبصرى الموافقة لسنة ٣٢٨ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية . وفي الكتابة المذكورة تاريخ وفاة احد ملوك عرب الشام واسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بني أسد . وزار احد عمال القياصرة في بادية الشام هذه الكتابة واولها : « تي نفس ( هذا قبر ) امرء القيس برّ ( بن ) عمرو ملك العرب كله ذو ( الذي ) امر التاج وملك الاسدين ونزار وملوكهم الخ » . ونسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الغسانيين .

ولقد أخطأ الاثري كلرمون غانوف في قوله ليست المدنية العربية الا كلمة خداعة لا وجود لها اكثر من فظائمه الفتح العربي ، وان المدنية العربية آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية طفئت بايدي خرقاء ولكنها محترمة وهي الاسلام . ليست الحضارة ثمرة جبل بذاته ولا هي مما يرتجل ارتجالاً كالارث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع ارثي من القوى الحية . هو كنز من التوفير انت عليه مئات من السنين قد يستطيع احد اللصوص ان يضع يده عليه وبيدّ فيه يوماً ولكن حياته بأمرها لا تكفي للايجاد فقد احترت هاته الامة الحديثة النعمة ما وجدته من الادارات والمعارف والفنون على حين لم يكن وراءها ماضٍ تعز به واقتصرت ان تميل كل شيء الى منفعتها وبلغ بها الحال ايضاً ان جعلت لدى مسيس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية وهي امتيازات جادت بها ، ونار التعصب يحرقها ، فتساهلت معها تساهلاً دينياً عجيباً . نعم أخطأ في حكمه على العرب وعجيب بعد ان كان للعرب من البنيان قصر غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والابلق الفرد وقصر المشنى والفدين وغيرها من المصانع والقصور التي سنعرض لها في هذا البحث كيف يسلمهم كلرمون غانو ابداعهم المجمع عليه .

\*\*\*

قصور العرب { كان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم في  
 في الاسلام { الفتح ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ، ثم اخذوا في كل بلد  
 ينزلونه يرون ما عور من بنائه ، وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ، ولكن  
 عادوا الى استعمال الحجر . فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان  
 سعداً وأصحابه بنوا بالمدر كتب : أكره لكم البنين بالمدر فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان ،  
 وأطيلوا السمك ، وقاربوا بين الخشب . وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا  
 دمشق دور وقصور منتشرة في أنحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن  
 الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز الازدي ووابصة بن معبد  
 وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري ووائل بن اسفح وهبار بن  
 الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى  
 امثالهم . ولا نعرف الا مكان دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب اي المحلة التي  
 تعرف اليوم بالبيارستان وكانت أجمل حي في دمشق وقد أقام بعضهم مساجد  
 في جوارهم .

وكان معاوية يقيم أحياناً في غوطة دمشق وينصب الابنية والاروقة والفساطيط  
 وزعم اليعقوبي ان معاوية كان اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم  
 يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء ، لقبه خضراء بناها  
 عليها ، عرفت الدار بها ، وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا : ما احسن  
 ما بناها للعصافير وفي رواية اما علاها فللعصافير واما اسفلها فللنار فهدمها وبنها بالحجر .  
 والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الخامس وفيها دار الامارة . واحترقت سنة ٤٦١  
 وبادت على ما نقل البرزالي . وقرأ المقدمي في بعض الكتب ان ما أنفق على الخضراء  
 ثمانية عشر حمل بغل ذهب . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن  
 يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعةين الف دينار  
 واشترى منه اربعم ضياع باربعة اجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين عمّواس  
 ومن الأردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص ديززكا .  
 وبنى الأمويون بعده بيوتاً لم كانت يجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبدالعزيز



مكان المدرسة السيمساطية الآن ، ودار هشام مكان تربة نور الدين ، وقصر سليمان ابن عبد الملك مكان سقاية جيرون ، ودار مسلمة بن هشام بباب البريد . قال الذهبي : بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرج محرز وكان لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق . وقال ابن عساکر : كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان . وقال ابن شاكر وكان قبله ايضاً معروفاً بالحجاجية ملكاً للحجاج ابن يوسف الثقفي فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور وكانت امه بنت محمد بن يوسف اخي الحجاج بن يوسف الثقفي منته باسم عمها الحجاج فخلعها الارض المذكورة وبني له القصر فعرف به ونسب اليه . وقال آخر ان الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج . واسم قصر الحجاج ما زال دائراً الى اليوم دون القصر الذي دثر .

وقد بنى الأمويون قصوراً لهم في النوطة وكانوا يماكون جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها أثر ولا خبر . قال ابن حزم وكانت دولة بني مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لانفسهم انما كان سكانهم كل امير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة . ومن قصور الأمويين في حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية جده في زمن العباسيين عامل تلك المدينة الفضل بن قارن الطبري وتحصن به لما وثب به اهلها .

\*\*\*

عناية الأمويين  
واعتنائهم  
في ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تشكلم في  
البنائات والعمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس  
المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في البنائات وانقان المصانع وفي عهده  
دخلت دمشق في طور العواصم والناس على دين ملوكهم . قال احد المؤرخين :  
وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء ، عمر الضياع ووضع  
النار في الطرقات ، وأعطى الجزامين وأفردهم ، وقال لا تسألوا واخدم كل مقعد  
خدماً ، وأعطى كل ضرير قائداً ، وكتب الى جميع البلاد يهدم المساجد والزبادة

فيها ، وتسهيل الطرق وحفر الانهار ، وان تعمل البيارسنانات التي تعالج فيها المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من أجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق .  
قال ابن ابي عميلة رحم الله الوليد ، وابن مثل الوليد ، افنتح الهند والاندلس ، وبني مسجد دمشق ، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء ، (فقراء) مسجد بيت المقدس .  
وعدا المقدمي من أمصار المسلمين في الشام او من المدن التي عمرها السلوون وبعبارة أخرى الأمويون ثم العباسيون على قلة ، انطاكية ، بالس ، المعرتين ، منبج ، قنسرين ، سليية ، تدمر ، اللاذقية ، جبلة ، جبيل ، انطرسوس ، بلنياس ، اللجون ، جوسية ، حماة ، شيزر ، وادي بطنان ، داريا ، بانياس ، صيدا ، بيروت ، عرقة ، طرابلس ، الزبداني ، كامد ، عرجموش ، بيسان ، أذرعات ، قدس ، كابل ، عكا ، صور ، الفراذية ، بيت جبريل ، غزة ، عسقلان ، يافا ، أرسوف ، قيسارية ، نابلس ، اريحا ، عمان ، ديلة ، عينون ، مدين ، اذرح ، مآب ، معان .

\* \* \*

المسجد الأقصى } ومن أهم الآثار التي نتم عن ذوق عربي في هذه  
والجامع الاموي } الديار المسجد الاقصى ، وقد جرى ترميمه في اوقات  
مختلفة ، والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصورهم يدل على ما كان هناك من  
فكرة وقادة ، وبد صناع . وقد غشى الوليد قبة الاقصى بالخماس اخذه من كنيسة  
في بعلبك ، وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته ، وكان صناع هذه القبة  
من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الأقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية  
وممزوجة باشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع  
ما بعث اليه من المفصص اي السيفساء والذهب قال المقدمي : ان الوليد جمع لبنائه  
'حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروي ابن شداد : ان الوليد اقتلع من  
كنيسة انطاكية عمداً عجيبه من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى  
ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان نقول انه جمع اجمل ما في  
الهند وفارس وآيئة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بجالها



كما كانت يوم ككونها ببيعة أو معبدًا للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوسابيوس انها ذات أفنية واواوين ونساقى ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من نفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت منقصة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى قامات ، وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحجر والزرق والبض وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أتفق فيه خراج الشام سنين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار . وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ريع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي : والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة .

وقد غلب حب البناء على بني أمية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو أنشأ مسجد جامعها ونقل الناس اليها من لدن وكانت المدينة التي ينزلها الناس فاخذ يهدم منازلهم بالدم والبنيان بالرملة وعاقب من امنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع البيرة عنهم حتى انقلوا وخرّب لدن . دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكنم فازدادوا عجباً فقال المأمون لها : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فاننا نضمه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول ، وهذا بجاله مع طول الزمن ، كأن الصانع فرغ منه الآن . فقال المأمون : ما اعجبني هذا . فقال يحيى بن اكنم : الذي أعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها . فقال المأمون : كلا بل أعجبني انه بني على غير مثال شوهد .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمره عبيد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم

والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على أسلوب جميل لم يسبق إليه . قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنياس وبنى موضعها المسجد الاقصى ، وننوق في تيمقه واكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والايحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروى ابن العديم ان جامع حلب كان بضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق .

\* \* \*

تاريخ الحرم { شيد المسجد الاقصى وقبة الصخرة في مكان تل موريا ،  
القدسي } وهي منزلة دينية سامية قدسها الوثنيون واليهود والمسيحيون  
والمسلمون ، وربما كانت بديراً لاحد البوسيين سكان فلسطين القدماء ، وقد بنى  
فوقها داود بعد فتحه البلاد مذبحاً تقدم فيه القرابين . وامر سليمان سنة ١٠١٣ ق م  
بانشاء قصر له مكان المسجد الاقصى وهيكل نغم حيث قبة الصخرة . وقد دمره  
الكلدانيون سنة ٥٨٨ ق م وفي السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودس الكبير  
باقامة هيكل و برج عال في المكان نفسه ولم يتمه ، ودمره جنود الرومان سنة ٧٠  
لما استولى طيطوس على بيت المقدس . وبنى الامبراطور ادريانوس سنة ١٣٠ م  
مدينة ابلياء وامر بتشيد زون كبير للشتري اله الحرب اثنا عشري الشكل  
( Dodecastyle ) فنصب فيه صنماً للشتري وآخر لدبوسقورس او صنم التوامين  
( كاستور وبلو كس ) واقام تمثالاً لنفسه بالقرب من الصخرة المباركة . وقضى الفرس  
على بيت المقدس لما اكتسحوها سنة ٦١٤ .

ولما وافى عمر بن الخطاب القدس ذهب نواً الى مكان الحرم الشريف وأزال  
ما كان فيه من الأقدار ، ولما افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وحيل بينه  
وبين الحرمين الشريفين لقيام عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز امر بانشاء المسجد  
الاقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين ففرغ في



سنة ٧٢ هـ وكتب اسمه منقوشاً بالفيسفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي « بنى هذه القبة عبد الملك ٠٠٠ امير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين » . وسقط شرقي المسجد وغربه سنة ١٣٠ بالزلازل وكذلك في سنة ١٥٨ تجدد في سنة ١٦٩ في خلافة المهدي ، وقد أنقص من طوله وزيد في عرضه ، وجدد عمارة قبة الصخرة في ايام المأمون (٢١٦) وزلزلت الارض ثلثة (٤٠٧) فتمهدت قبة الصخرة وبعض الجدران ، تجددتها الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمي (٤١٣ هـ) وزيد فيه في زمن الفاطميين البناء المسمى اليوم بجامع النساء . ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة الى كنيسة ، والمسجد الاقصى الى منزل لسكنى ملكهم . ولما استعاد صلاح الدين بن ايوب أعاد الحرم الى ما كانت عليه وامر بترميم محراب الاقصى وكتب عليه بالفصوص المذبة ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . امر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن ايوب ابو المنظر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهو يسأل الله اذاعة شكر هذه النعمة ، واجزال حفظه من المغفرة والرحمة » .

وفي سنة ٦٣٤ عمر في المسجد الملك المعظم عيسى . وفي سنة ٦٨٨ رم المسجد والصخرة الملك الظاهر بهرس . وفي سنة ٦٨٦ عمر فيه المنصور قلاوون الصالحى ورم فيه العادل كتبغا والملك المنصور لاجين والناصر قلاوون في سلطنته الثالثة وفي ايامه عمر فيه ايضا الامير نكز الناصري . ثم جدد الملك الاشرف شعبان (٧٦٩) والملك الظاهر برقوق ( ٧٨٩ ) والملك الظاهر جقمق العلاءي وفي سنة ٨٧٧ جدد فيه الملك الاشرف ابو النصر . وفي ايام العثمانيين تمت في الحرم عدة عمارات منها ما جدده السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٩ ومنها ما جدد في سني ١٢٣٢ و ١٢٥٦ و ١٢٩١ وبعدها .

\* \* \*

المسجد الاقصى  
اليوم  
هو اولى القبلتين وثالث الحرم بين الشريفتين ، ووقع  
الحرم على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها ٤٩٠

متراً والشرقية ٤٧٤ متراً والشمالية ٣٢١ متراً والجنوبية ٢٨٣ متراً يحيط بها سور  
يختلف ارتفاعه بين ٣٠ متراً و٤٠٠ . و يبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة امتار  
طولاً في اربعة امتار عرضاً . وحول السور من جهة الغرب والشمال اربعة فسحة  
معمودة يتخللها بعض ابواب الحرم وهي ١٤ باباً . وقد قام جامع الصخرة الشريفة في  
فناء مربع مفروش بالبلاط النخيت طوله من القبلة الى الشمال اكثر من عرضه من  
المشرق الى المغرب وارتفاعه ثلاثة امتار يصعد اليه بادراج من الجهات الاربع ،  
وعقد على كل درج من اعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام . والقبة على بناء  
نخم ثمن الشكل ، ذرع كل ثمانية منه ٢٩ ذراعاً وثلاث ذراع (٢٠م/٤٠) . وقد  
كسي القسم السفلي من ظاهر الرخام الابيض المشجر ، والقاشاني البديع الذي يتفرق  
فيه ماء الالوان المتزاوجة ، من لازوردي صافر ، واخضر قائم ، وابيض ناصع ،  
يعلو ذلك شبه افر يزرممت عليه آي القرآن . وضع هذا القاشاني في ايام السلطان  
سليمان القانوني سنة ٩٦٩ هـ وتحتوي كل ثمانية من البناء على سبع طائفات للتي لا باب  
فيها وعلى ست للتي لها باب . والطائفات المحاذية لاطراف الثمينات مسدودة كلها ،  
والاخرى مركب عليها الزجاج والشبابيك الحديد . ولجامع الصخرة اربعة ابواب  
مزوجة داخلاً وخارجاً مربعة الشكل بمقود متموسة ، وامام الباب الاخير من الخارج  
رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشاني في وسطه قنطرة معمودة والسقف  
محمول على ثمانية اعمدة من الرخام مختلفات في النوع واللون ، والباب المذكور مصراعان  
ملبسان بالنحاس الاصفر المقوش عليها افعال نفيسة منقطة الوضع .

ويبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ متراً وهو مقسم الى ثلاث دوائر يفصل بعضها  
عن بعض صقان مستديران من الاعمدة والاركان يتألف الاول منها من ثمانية سوار  
مسدسة الاضلاع و١٦ عموداً منها « ابيض وازرق » عشرة و « اخضر مرسيني »  
ثلاثة و « شحم لحم » ثلاثة ، والصف الثاني مؤلف من اربع سوار مربعة الاضلاع  
واثني عشر عموداً منها سبعة « اخضر مرسيني » وخمسة « شحم لحم » . والسواري  
ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع ، والاعمدة قديمة جداً واكثر تيجانها تدل على  
انها من الطراز الروماني او البيزنطي القديم ، ويربط اعمدة الصف الاول بعضها ببعض



و بالسواري بسابل ملبسة بالبخاس الاصفر المنقوش المذهب . وتحمل هذه الاعمدة مع جدار الجامع سقفاً مائلاً بعض الميل مدهوناً بأنواع الدهان قائماً على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصللاً طرفه الاعلى بكرمي القبة . ويزين باطن القبة مجموعة لانظير لها من الفصوص الملوثة تمثل ٦٤ شكلاً من الزخارف على نحو ما كانت يصنعه فنانو البيزنطيين ، وهي مركبة على سطح موثى بالذهب وفي كرمي القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلاً منها طبقة من الجبس ، مقسمة عيوناً مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان والاشكال ، نفذ منها اشعة الشمس صافية ، ملطفة بفضل الواح الزجاج الخارجية والمشبكات المصنوعة من الفاشاني ، وعلى هذه الطافات نقوش تدل على انها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة ٩٤٥ هـ كما ان المرمر الذي يكسوها ركبت في زمن السلطان صلاح الدين وجرى في ايام السلطان سليمان القانوني .

والصخرة الشريفة قائمة درايزين من خشب منقوش مدهون بأنواع الاصباغ طولها ١٧,٧٠ متراً وعرضها ١٣,٥٠ متراً وارتفاعها عن الارض يبلغ نحو ١,٣٥ متر الى مترين ، وينزل الى المغارة التي تحتها باحدى عشرة درجة من جهة القبلة ، وعند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين وباطنها محرابان كل محراب على عمودي رخام لطيفين وأمام المحراب الايمن صفة تسمى مقام الخضر بواجهها عمود رخام قائم للسقف وآخر راقد وفي الركن الشمالي منها صفة تسمى باب الخليل وجميع باطن ارض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام وفي وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها اذا نقر عليها رنين تجاذب اصداؤه مما يدل على خلوا تحتها . وحول الدرايزين الخشب مصلي للنساء وهو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته وله ابواب اربعة لا يفتح منها عادة الا الباب الغربي الموازي لباب النساء وهو من عمل الصليبيين ابان احتلالهم بيت المقدس .

\*\*\*

صفة المسجد { يقع المسجد الاقصى جنوبي جامع الصخرة وطوله ٨٠ متراً  
الاقصى { وعرضه ٥٥ متراً عدا ما أضيف اليه من الابنية واول ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم

عيسى صاحب دمشق سنة ٦٣٤ هـ ووجد من بعده وهو مؤلف من سبع قاطر عقدت على ممشي ينتهي الى سبعة ابواب، كل باب يؤدي الى كور من اكوار المسجد السبعة . وللمسجد عشرة ابواب والبناء قائم على خمسة واربعين عموداً . والغالب ان هذه الاعمدة قديمة نقلت من أنقاض ابنية متنوعة أقدم عهداً من الحرم . وفوق الاعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة وفوق القناطر صفان من الطافات وباطن السقف مكوت من عوارض كلها من الخشب . وعدة ما في المسجد من السواري اربعون ، وهي ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة . وياقضى البواب من جهة الجنوب . قبة مرتفعة مزينة بالنصوص الملونة المذهبة . وهي عمارته صلاح الدين الايوبي ( ٥٨٤ هـ ) كما رمى اكبر جناحي المسجد ، والقبة والجناح على الغالب انما صنعها - في خلافة المهدي بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل ، وهي كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفاتح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهب من باطنها ، ويجدد هذه التزيينات هو الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٨ هـ وهناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفي على جانبي المحراب . والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبه المنبر وهو من الخشب المرصع بالعاج والابنوس عمل في عصر نورالدين زنكي ويقابل المنبر دكة المؤذنين وهي على عمد من رخام .

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء او الجامع الابيض ، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سواري في غاية الاحكام بناه الفاطميون ، ومن جهة الشرق جامع عمر وهو معقود بالحجر والجير ، سمي بذلك لانه بقية من الجامع الذي بناه عمر رضي الله عنه حين الفتح . والى جانب هذا البناء ابواب كبير معقود يسمى مقام عزيز وبه باب يتوصل منه الى جامع عمر ويجوار هذا الايوان من الشمال ابواب لطيف به محراب يسمى محراب زكريا وهو يجوار الباب الشرقي . وفي صحن المسجد الاقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سورت بالقضب الحديدية يقال لها الكأس يأتيها الماء بانابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجع المسماة ببرك سليمان اهمها عين عذاب ووادي الآبار . ومن الآثار المهمة في الحرم البناء السفلي المعقود بالحجر معروف عند الافرنج باصطبل سليمان وهو عبارة عن مهل عيسى ومحراب مریم



والعقود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الاقصى . وكذا البراق الشريف وهو في السور الغربي وجامع المغاربة والمدرسة النخوية المعظمية وفيها اليوم دار كتب المسجد الاقصى وهي من اُبنية الملك المعظم ( ٦٠٤ هـ ) ومنبر القاضي برهان الدين بن جماعة ومحرابه . وقبة السلسلة وهي شرقي قبة الصخرة وعلى شكلها صنعت في ايام عبد الملك بن مروان . وقبة المعراج سنة ٥٩٧ هـ . وسبيل قايتباي ( ٨٨٧ هـ ) وما يحيط بالحرم من المدارس القديمة . هذا حاصر المسجد الاقصى وما اليه وقد اُثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر والشمس والثلج والأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفايح الرصاص ونخرت ما نامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد ، فبادر المجلس الاسلامي الاعلى الى الكشف عن البناء فتبين انه يحتاج الى مئة وخمسين الف جنيه على أقل تعديل . وألفت لجنة لعارته برئاسة المعماري الشهير كمال الدين بك واستصرخ الامم الاسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين الف جنيهه ، وشرع حالاً بما كان احكم بناؤه من حجر منقوش او مرمر مسنون او خزف مصقول او خشب منجور او صفر مطلي بالفضة او مكسو بالذهب ، او فص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موثني منقح ، وبوشك بفضل الله ان يعود الى ما كان له من بهجة في الأعصار السالفة .

\*\*\*

وصف المقدمي للمسجد { وصف المقدمي للمسجد الاقصى فقال : هو على  
الاقصى في القرن الرابع { قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل  
داود ، طول النجر عشرة اذرع وأقل ، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة ، وقد بنى عليه  
عبد الملك بمجارة صغار حسان وكان أحسن من جامع دمشق ، لكن جاءت زلزلة في  
زمن بني العباس فطرحت المغطى الا ما حول المحراب فلما بلغ الخليفة خبره ، قيل له  
لا يفي برده الى ما كان بيت مال المسلمين ، فكتب الى امراء الأطراف وسائر القواد  
ان يبني كل واحد منهم رواقاً فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة  
شامة فيه وهي الى حد أعمدة الرخام ، وما كان من الاساطين المشيدة فهو محدث ،  
وللمغطى ستة وعشرون باباً ، باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الاعظم مصفح  
بالصفر المذهب ، لا يفتح مصراعه الا رجل شديد الباع قوي الذراع ، عن يمينه سبعة

أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب ، وعلى اليسار مثلين ، ومن نحو الشرق احد عشر باباً سواذج ، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام احده عبد الله بن ظاهر وعلى الصحن من اليمينه أروقة على أعمدة رخام وأساطين وعلى المؤخر أروقة أزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جبل عظيم خلف قبة حسنة والسقوف كلها الا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار والصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد اليها من الاربعة جوانب في مرقا واسعة ، وفي الدكة اربع قباب : قبة السلسلة ، قبة المعراج ، قبة النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثنى باربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة ، باب القبلي ، باب اسرافيل ، باب الصور ، باب النساء ، يفتح الى الغرب جميعها مذهبة في وجه كل واحد باب ظريف من خشب الثنوب مداخل حسن امرت بهن أم المقتدر بالله . وعلى كل باب صفة مرخمة بالثنوبية تطبق على الصفيرة من خارج . وعلى أبواب الصفاف ابواب ايضا سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معبونة أجل من الرخام وأحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لاطية ، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة ، لا مثنى على أعمدة معبونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقات كبار ، والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع ، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامه وبسطة . والقبة على عظمها ملبسة بالصفير المذهب ، وارض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق . والقبة ثلاث سافات الاولى من الواح مزوقة والثانية على أعمدة الحديد قد شبكت لثلاثا تميلها الرياح ثم الثالثة من خشب عليها الصفايح وفي وسطها طريق الى عند السفود يصعد الصانع لتفقدتها ورمها ، فاذا بزغت عليها الشمس أشرفت القبة وتلاأت المنطقة ورأيت شبتا عجيباً . وعلى الجملة لم أر في الاسلام ولا سمعت ان في الشرك مثل هذه القبة ويدخل الى المسجد من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً اه .



اصل الجامع الأموي { كان الجامع الأموي على ما ذكر المؤرخون معبداً قبل  
 الإسلام ، قال البيروني : ان من آثار الصابئة القبة التي  
 فوق المحراب عند المقصورة ، وكان مصلاهم ايام كان اليونانيون والروم على دينهم ثم  
 صار في ايدي اليهود فعملوه كنيسة لهم ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة الى ان  
 جاء الاسلام واهله فاتخذوها مسجداً . وقال البرزالي : وبني اليونان والكلدان هذا  
 المعبد ، وكانوا يصلون الى جهة القطب الشمالي وكانت محاربه تهبه الشمال و بابه  
 يفتح الى جهة القبلة خلف المحراب ، وهو باب حسن عن يمينه ويساره بابان صغيران  
 بالنسبة اليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الاعمدة التي بباب البريد  
 وغربيه قصر جيرون ، داران يكونان لمن يملك دمشق قديماً ، فهو أقدم معبد . وقال  
 شيخ الربوة ان له نحو اربعة آلاف سنة وهو معبد . ولما فتح المسلمون دمشق اخذوا من  
 النصارى النصف الشرقي من هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مار يوحنا ، وكان  
 المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصيل في القبلة فينصرف  
 النصارى الى جهة الغرب والمسلمون الى الشرق . وكان لا يستطيع اهل الانجيل ان  
 يجهروا في قراءته بكنائسهم ولا يضربوا بناقوسهم لإجلال الصحابة . فلما اخذت أصواتهم  
 ترفع في صلواتهم أحب الوليد ان يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه اربع كنائس اخرى .  
 وقيل انه بذل للنصارى فيه اربعين الف دينار فليريدوا ان يأخذوها فأخذها كما  
 قال ابن العميد . واحتاج الوليد الى صناع كثيرة فوجه اليه ملك الروم بمائتي صانع .  
 وحكي الجاحظ في كتاب البلدان انه كان مبنياً على الاعمدة الرخام طبقتين الطبقة  
 التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في  
 الدنيا بالفسيفساء الذهب والاحضر والاصفر ، وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر  
 ليس في دمشق شيء اعلى ولا ابهى منظراً منها ، ولها ثلاث منائر احداها وهي الكبرى  
 كانت ديدباناً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . وروى البرزالي انه  
 كان ابتداء عمارة جامع دمشق في اواخر سنة ست وثمانين وتكامل في عشر سنين .  
 وكان الفراغ منه سنة ست وتسعين وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك وقد بقيت  
 فيه بقايا من الزخرفة فأكملها اخوه سليمان بن عبد الملك وحدث فيه اشياء أخر ، فمن

ذلك القبة الغربية التي في صحننه ويسميتها الناس قبة عائشة ، وغالب ظني انها بنيت في سنة ستين ومائة في ايام المهدي المنصور ، واما القبة الشرقية التي في صحننه تجاه مشهد علي بن الحسين فعمرت في ايام المستنصر العبيدي في سنة خمس واربعمائة وكتب عليها اسمه واسم الائمة الاثني عشر .

وذكر ابن جبيران طول الجامع من الغرب الى الشرق مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرتنه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق الى المغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً منها اربع وخمسون سارية ثمانية ارجل جصية لتخللها وانثنان مرخمة ملصقة معها بجدار الذي يلي الصخرة ، واربعة ارجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، وقد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب ، وأشكالاً غريبة ، فائمة في البلاط ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع واربعون منها اربعة عشر رجلاً والباقي سوار . وسقف الجامع كله من خارج الواح رصاص واعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة ، وقد اسنقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب الى الصحن والقبة ، وقد اغصت الهواء فاذا استقبلتها رايت مرأى هائلاً .

وذكر الباحثون من الفرنج ان طول الحرم الاصيلي من الشرق الى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال الى الجنوب ١٠٠٠ فهو ربع مساحة دمشق كلها . وكانت أمام جدرانه الاربعة من الداخل صف من الاعمدة على دائرة كشف علماء الآثار بعضها ، والجامع في وسط هذا الحرم قائم على أسس الكنيسة التي كانت قبله ، وهي قائمة على أسس الهيكل الذي كان قبلها او على بعضها ، والجدار الغربي من الجامع قديم كله ، ما عدا باب البريد في وسطه فانه من زمن العرب ، وفي الجدار الجنوبي انواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامي اليوناني ، وجانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس واركاديوس من القرن الرابع والخامس للميلاد ، وجانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن ، وتجديدات أخرى بعدما احترق في قرون متعددة .



وقال ابن حوقل ان الوليد جعل ارض الجامع رخاماً مفروشاً وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزماً وأساطينه رخاماً موشى ومعاقدرؤوس أساطينه ذهباً ومحراه مذهب الجملة مرصعاً بالجواهر ودور السقف كله ذهباً مكتوباً عليه كما يطوف بترايع جدار المسجد واذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء اليه فدار على رقعة المسجد باجمعه حتى اذا فجر منه انبسط عنه وعن جميع الاركان بالسوية . وأبوابه الاربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها وفيه ثلاث مقاصير مقصورة معاوية احدثها سنة ٤٤ لما وثب عليه بعضهم ليقتله كان في جدار الصحن القبلي من الجامع حجر مدور على ما روى القزويني شبه درقة منقطة بابيض واحمر بذل الفرنج اموالاً فلم يجابوا اليه . وقد كان عزم عمر بن عبد العزيز ان يعمد الى ما في الجامع من السيفساء وهو النقش المنقوش والرخام فيقلعه وينزع السلاسل الذهبية وكانت ستمائة سلسلة ويجعل مكانها حبالاً وينزع غيرها من ضروب الزينة ويبيعها ويجعلها في بيت المال فارجمه اهل دمشق عن فكره . وذكروا له ما قام به اهل الشام من بنائه على هذه الصورة .

ووصف ابن جبيرة الرصاص في الجامع الاموي فقال : انها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهياكلها الماثلة للنبات قال : انها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب مننظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التالوين ، بديمة القرنصة ، وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطر مقلنة ، لا ننقلها الفيلة فضلاً عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تظليلها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

ومن أجمل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكنفاني من قصيدة :  
 وكانت جامعها البديع بناؤه ملك يميز من المساجد جحفا  
 ذو قبة رفعت فضاحت قلة ومنابر بنيت فخاكت مقلنا

تبدو الأهلة في أعاليها كما تبدو الهلال تعالياً وتهللاً  
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً يعلو جداراً بالرخام مزملاً  
قد أآف الاقوام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلاً  
لم يرض تجليلاً بجص فانبرى بالفص يعلو والنضار بجلا  
يفشى سوام اللحظ في أرجائه من عسجد ارضاً ومن فص خلا  
فاذا نذر الشمس فيه تحاله يلقاً تآلق او حريقاً مشعلاً  
فكأنما محرابه من سندس او لؤلؤ وزمرد قد فصلا  
وتخال طاقات الزجاج اذا بدت منه للحظك عبقرية مسدلا  
تبدو القباب بصحنه لك مثلاً تبدو العرائس بالخلي لتجئلي  
وعلت به فوارة من فضة سالت فظنوها معيناً سلسلا  
وبابه حركات ساعات اذا فتحت لها باب تراجع مقفلا  
ويريك باريها وكل قد رمى من فيه بقذفه بصيب سنجلا

وظل الجامع بحاله بهجة النظار والسفار، ومفخر دمشق على غير الاعصار، والملوك  
حتى من العباسيين يرثون فيه الى ان وقع فيه الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ فذهبت  
محاسنه، وذلك في حرب مصر بين المغاربة اي الفاطميين مع العراقيين، فأحرقوا داراً  
بجاورة للجامع فنعلقت النيران به فدمرت محاسنه وتشوه منظره واحترقت سقوفه  
المبطنه بالذهب وفصوصه وسقطت القبة كما قال الذهبي فأعيد الى ما كانت .  
واحترق ثانية سنة ٧٤٠ وكان الاصل فيه كما قال ابن مفلح من النصارى بدمشق،  
واشتهر ذلك عنهم وكتب عليهم محضر به ونقضت مأذنة عيسى وجددت من أموالهم  
لكونهم اتعموا بحريقها باقرار بعضهم . وهذا الحريق عم جميع الجامع وما حوله من  
الأسواق . وفي سنة ٧٥٣ كان ثالث حريق وذلك انه وقع حريق عند باب  
جيرون فانصل بالباب لخماس الأصفر فنزعوه وكسروا خشبه وكانت من نحاس  
دمشق ومعاملها . وكانت في سنة ٧٩٥ حريق سوق الدمستان وسوق الوراقين  
والساعات ونصف المعزبة من شرقي الجامع ثم أعيد الى ما كانت عليه . ورابع



حريق كان في سنة ٨٠٣ عند حضور تيمورلنك وحرقت خزانة المصاحف والكتب فأعيد سنة ٨٠٥ الى قريب ما كان عليه وخامس حريق كان سنة ٨٨٤ .  
وأصيب بالزلازل مرات وتمطت جوانبه وتداعت بعض سقوفه ومنها زلزلة سنة ٥٩٧ فرمى بعض المنارة الشرقية وسقط ١٦ شرفة وتشققت قبة النسرة وأخرها زلزال سنة ١١٧٣ فخرت قبة النسرة والرواق الشمالي وأعيد بناؤهما من قابل . حتى اذا كانت سنة ١٣١٠ سرت النار الى جزوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدمر آخر ما بقي من آثاره وأثاثه ووربائه ، وحرقت فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى ، وكان الناس يقولون انه المصحف العثماني ، وجمعت أموال من إعانات وغيرها فبخز القسم الشرقي في سنة ١٣١٧ وفي سنة ١٣٢٠ نبذ القسم الغربي وظل العملة في بنائه الذي أرجع الى ما كان عليه بالجملة عشر سنين وصرف عليه ستون الف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعوا للعمل فيه بلا أجر . ولم يبق من محاسن الجامع القديمة الا جدرانه وبعض كتابات من عهد السلجوقيين والايوبيين والمماليك على بعض سواربه . وفي دار الآثار بدمشق ايضا حجران كتبوا بالخط الكوفي بعبارة قسم من الجامع في القرن الخامس وصورتهما :

الاول - ( بسم الله الرحمن الرحيم ) : شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام .  
امر بعبارة هذه القبة والقصور والسقف والطافات والاركانت في خلافة الدولة العباسية ايام الامام المقتدي بامر الله امير المؤمنين ، وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سيد ملوك الامم ابي الفتح ملك شاه بن محمد واياهم اخيه الملك الاجل المؤيد المنصور تاج الدولة وسراج الملة شرف الامة ابي سعيد نئش بن ملك الاسلام ناصر امير المؤمنين وفي ايام وزارة الشيخ الاجل نظام الملك أتابك ابي علي الحسن بن علي الوزير الاجل السيد نجر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين ابو نصر احمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهر خمس وسبعين وربعمائة .

الثاني - ( بسم الله الرحمن الرحيم ) : لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . أمر بعمل

هذه المقصورة وترخيم الاركان في خلافة الدولة العباسية ايام المقتدي بامر الله ابي القاسم عبد الله امير المؤمنين وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سيد ملوك الامم مولى العرب والحجج ابي الفتح ملكشاه بن محمد بن دارد امين امير المؤمنين وايام اخيه الملك الاجل تاج الدولة وسراج الملة وشرف الامة ابي سعيد نبش بن ملك الاسلام ناصر امير المؤمنين الوزير الاجل السيد نجر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين ابو النصر احمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهر سنة خمس وسبعين واربعمائة « اه .

\* \* \*

دور الامو بين ومصايفهم  
ومشاتهم { وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن  
عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار  
محصنة حيطانها وسقوفها ، وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ،  
ثم ادخلت داراً اخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر ، واذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم  
ثياب خضر وحلي الزمرد ، وان ولي العهد قاعد على سرير معه امراته . ووصف  
حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال : انها دار قوراء مفروشة بالرخام ،  
وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وحيطانه  
كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حمراء من الخبز ، وقد تضخخ  
بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب ، يقبله بين يديه فنفوح رائحته ،  
وفي المجلس جاريثان لم ير مثلها قط اه . والله اعلم ان كان ذلك حقيقة ام خيالاً .

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرب السابع اي لولا دخول العرب  
العالمين لبلغ الساميون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم ، وان  
امتزج بها شيء من هندسة الامم الاخرى ، فرد عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة  
دمشق لم تمس عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبهمتهم . قلنا ولولم يعف بنو  
العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان  
منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها . لان الامو بين كانوا على  
الاغلب بنحامون نزول دمشق لزطوبتها وحمياتها فتمهم من نزل قصر الموقر او المقور



وقصر المشتى والزيزاء والفسدين والازرق والاغدف والبجراء والابيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحوآرين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأباير في البلقاء وشمالي الشام وشرقها . وحصن الموقر ( وقيل المقوّر ) باللقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشتى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك وكان رمه فجعله من القصور الجميلة . واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد في القسطل في البلقاء . والوليد في الزيزاء وقصر الازرق . وابنتي عبد الملك الابنية حول قصر الموقر وكان له في البرية عدة قصور . وقصر عمرا على خط قصر المشتى على سبعين كيلو متراً من جهة الشرق وهو في وسط البادية . اكتشف قصر عمرا الاثري موسيل سنة ١٨٩٨ وهو قصر أموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون . وهو على الشاطئ الشمالي من البحر الميت وكان على ما يظهر حماماً حفظت فيه كما قال هرزفلد نقوش عجيبة بحالها لم يحفظ مثلها في صقع آخر من أصقاع الشام، تمثل مشاهد الحمامات وألعاباً رياضية كالجر يد وصيداً لأنواع الطيور وقنصاً في البحر ولوحات تمثل الصناعات وصوراً رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتاريخ والفلسفة والشعر، وخليفة جالساً على العرش واعداء الاسلام ورسوم منطقة البروج ورجالاً ونساءً واشجاراً وحيوانات في كؤوس وفرش، وشجيرات وعسلج الكرمة والدفلى والنخيل وثماراً وطيوراً من أطياف البادية وامرأة عربية محلاة باللؤلؤ . وكلها تدل على انها من هندسة الروم والشاميين والفرس . ووجد فيه اسم : « قيصر ، رذريق ، كسرى ، النجاشي » مكتوباً بالعربية والرومية . وإجماع الاثريين على القول ان هذا القصر من عمل الوليد الاول بين سنتي ٧١٢ و٧١٥ ميلادية . وكذلك قصر المشتى وهو على اثني عشر ميلاً شرقي عمان وعلى ساعة من شرقي القسطل في خربة الموقر وهو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعه يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ١٥٠ متراً وفي زواياه اربعة بروج مستديرة ولكل من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بروج يشرف منها اثنان على جهتي باب البناء وهما كثيرا الاضلاع . ويقسم البناء الى ثلاث مربعات مستطيلة اوسعها الاوسط فيه ابنية القصر القديمة وطول القصر خمسون متراً في عرض سبعين ويشتمل على حجرة واسعة يليها اربعة منازل .

والابنية كلها مشيدة بالآجر ماعدا طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهي مبنية بالاجار  
البيضاء . وفي ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الاخضر لم تلحق بعد . وكان  
وجه البناء الخارجي مزينا بأبدع النقوش وهي تمثل جفنة محكمة الصنع ذات أغصان  
وفروع تمتد على طول البناء لتجلبها طيور وحيوانات ليست معروفة كالاسود المنجحة  
والمنقاء تمرح وتنقر العنب او تشرب من الكؤوس . اقتطع هذه الصور علماء من  
الالمان بامر عبد الحميد الثاني وهي اليوم في متحف برلين . والرأي الشائع انها من صنع  
الفسانيين . وفي تلك الارحاء نحو اربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن .

وبني هشام حصن المتعب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن  
بوفا من اعمال أنطاكية . وكان هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام فلما عمر  
الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات . وكان يزيد يقيم في حواريه وتدمر  
وابنه خالد يسكن في قصر الفدين في البلقاء . ومن الدور الكبيرة بدمشق دار خالد  
ابن عبد الله بن يزيد ابو الهيثم الجبلي القسري من اهل دمشق كان اميراً على مكة  
وولي إمرة العراقين وكانت داره بقنطرة سنان بباب نوما .

وبعض هذه القصور لا تزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموفر والمشي لم ينسهما  
الباسيون كما نسفوا آثار المدفن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً .  
وأخربوا ايضاً قصور الامويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر  
مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل  
سنير وقصري هشام في الرصافة وأبقوا في الغالب على قصر خناصرة من ارض  
الأحصن لعمرو بن عبد العزيز احتراموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية .  
والظاهر من كلام المقدمي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية  
كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين أتوا عليها كلها .  
والغالب ان بعض الابنية لم تعمر كثيراً ورمت فأطلق عليها اسمها الاصلي ونسبت الى  
بانيها الاول .

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الادم تمشي حول واقعة الدمي



تجيب بها الهام الصدى ولطالما  
كان لم يكن فيها انيس ولا النقي  
أجاب القيات الطائر المترنما  
بها الوفد جمعا والخميس عمر مرما

\*\*\*

عمل العباسيين { قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار  
من قبلهم وان يمتتوا ذكر أعزائهم ، فقد هدموا بذلك  
السبب المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في  
الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام ( الحصون ) التي كانت  
بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم اصحابنا ( يعني  
العباسيين ) بناء مدن الشامات ( قد تسمى الشام بالشامات ) اه .

اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعا يعتد به في الشام لتحصن على  
عظمتهم ، وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرها المؤمن الى معسكره بدير مران  
في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم بما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون  
يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بني للمتوكل  
العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر . قال ابن كثير ان المتوكل لما جاء  
دمشق عازما على الإقامة بها سنة اربع واربعين ومائتين امر ببناء القصور بها وهي التي  
بطريق داريا . ومن ذلك بنهم انما كانت موجودة الى زمن ابن كثير . وفي سنة  
٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان دارا عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها . اما المنغلبة  
على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسليوقيين فاننا  
لا نعرف عن آثارهم كبير امر ايضا ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان  
يجعلوا مصانعهم في مصر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان .  
ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على  
نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ أموالهم .

ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة فاضل دمشق من قبل  
الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات واجرى الفؤارة التي في جيرون .  
وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة سفي في كل سنة وهو الذي أنشأ

القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ . وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقرا سنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان . وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلمها دار المشيرية اليوم . ودار السعادة هذه اكملت عمارتها سنة ٤٠٨ هـ بعد الزام النائب اهل البلد بعمارتهما ومرة ما يحتاج السكني فيها وتحول اليها فسكنها .

\* \* \*

آثار عربية محلية { وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في الشام حركة  
ميناء عكا { مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب

انتهى اليها قليل من أعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابني ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فأحب ان يتخذ لمكان مثل ذلك الميناء ، فجمع صناعات الكورة وعرض عليهم ذلك فقبل لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء ، وقيل ان كان عند احد علم هذا فعنده ، فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه اليه ، فلما صار اليه وذكر له ذلك قال : هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة ، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخطب بعضها ببعض ، وجعل لها باباً على الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلاً بنى خمسة دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت العلق كلاً ثقلت نزلت ، حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك ، وكلاً بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخطبه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فلما كب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور . قال المقدسي : وميناء صور وعكا من العجائب . وقال ابن اياس : من اهل القرن العاشر ان في صور قنطرة ليس في الدنيا أعظم منها وهي على فوس واحد



مثل قنطرة طليطلة بالاندلس الا انها دون قنطرة صور . وبني احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

وذكر المؤرخون ان جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة ٣٥٨ نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد وأقام أصحابه هناك الاسواق والمسكن وصارت شبه المدينة واتخذ لنفسه قصرًا عجيبًا من الحجارة وجعله عظيمًا شامعًا في الهواء غريب البناء . وهذه صورة ما وجد على جسر ثورا مكتوباً على حجر بالخط الكوفي على ما حققه استاذنا الشيخ طاهر الجزائري : امر بعمارة الجسر المبارك مولانا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه تاج الامراء ٠٠٠ جيوش ٠٠٠ شرف الملك عمدة الامام سيف الاسلام معز الدولة وسعدها وعضدها وأطال الله بقاءه في ربيع الاول سنة ٤٥٦ .

وفي الروضتين ان صلاح الدين يوسف كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله في جوسق ( قصر ) ابن الفراه بالشرف الاعلى في بستانه ، حتى ان الصفي بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له داراً مطلة على الشرف بالقلعة وأتفق عليها أموالاً كثيرة وبالغ في تحبيرها وتحسينها وظن انها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفاً ولا استحسنها ، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي اوجبت عزله عن الديوان وقال : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعي للسعادة ، وما جئنا لنقيم ، وما نروم ان لا نريم .

\*\*\*

ومن المصانع التي كانت بدمشق القصر الأبلق في { القصر الأبلق  
الميدان القبلي ، وهو قصر عظيم مبني من أسفل الى أعلاه بالحجر الاسود والاصفر ، بتأليف غريب وإحكام عجيب ، بناه الظاهر بيبرس البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي أبلق دمشق دركاه <sup>(١)</sup> يدخل منها الى (١) الدرکاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدر مجاري القني

دهليز القصر وهو دهليز فسح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن، المؤزر بالرخام، المفصل بالصدف والنص المذهب، الى سقف السقف والدار الكبرى به ابوانان منقابلان تطل شبابهك شرقيهما على الميدان الاخضر وغربهما على شاطيء وادى اخضر يجري فيه نهر، وله رفارف عالية تناعي السحب، تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة : سمي بالقصر الأبلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكنته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلمانية قامت على أنقاض ذلك القصر .

وصف بهاء الدين الموصلى قصر الأبلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق ، من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق ، قد شام في غمده مشهور غمدان ، واسبل على ابوان كسرى ستر النسيان ، بهر الناظر حسن معناه ، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في أقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار يركه لتميز ناظر به ، يتكسر جمعه على شاذرواناته مجزوراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابهك الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والبانم واللافظ والطعام ، به الظباء الاوانس ، والمها الكوانس ، أقطاره عريضة طوبلة ، لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليله ، أنجحت خمائله الأيك والغصون ، ولاذ القائف بالسوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادركه الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان واديهما فأراد الوصول اليه فعارده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطربق وضرب بينهما بسور له باباه .

والابنية واخذوا البركار ايضاً وكما اخذوا الشاذروان للفوارة نشق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والخركاه والبيارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والمهندسة المارسية في الاوضاع والمهندسة العربية .



وبني علم الدين قيظر المعروف بتعاسيف للملك المظفر في حماة أبراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعادته في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

\* \* \*

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين	} المعاهد الدينية والمدنية في العهدين النوري والصلاحي
النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس	
وحماة وطرابلس وبلبك وغيرها واخذوا	

ينشئون فيها المدارس والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور ، كان منها ماهو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ، ولما ولي العادل أزل ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيصري في صالحية دمشق ، وهندسة مدرسة الصهبية في حلب ، وكذلك المدرسة التي كانت يجزار الشهباء وصفها ابن جبير قال : ومن أظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بهوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً أمامها ، فيمدُّ الساكن فيها يده ويحظنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الأشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومنزهات حسنة . وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من أحسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه كما قال ابن الاثير تغرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليله المقدار ، ولما تسلمها نبي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة . وبني الملك الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين يوسف قصراً في قرية القابون بدمشق « لم ير الراؤون مثله » وعمر الشرف الاعلى بدمشق بقصور العظماء .

عمران دمشق في { وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر  
القرون الوسطى } مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في  
القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي أجمل مدينة في العالم بل أغنى مدينة ، أحرق  
تيمورلنك بعض أحيائها ومدارسها وغرماً ملايين من الدنانير ، وحمل معه المهندسين  
والبنائين والقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند ، كما فعل السلطان  
سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر ، فحمل الى القسطنطينية  
كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصنائعها النفيسة .  
وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام أفردها ابن عبد الهادي في رسالة  
كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا  
القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل ابن منقذ الكنتاني  
يوم كان لنا القدح المملع في العائر :

واذا صررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنهما ان تقبلا  
ان كنت لا تستطيع ان تبتل الفر - دوس فانظرها تكن ممثلاً  
واذا عنات اللحظ أطلقه الفتي لم يلق الا جنبة او جدولا  
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكل  
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذنباً او مجدلاً او مؤثلاً  
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزئاً ومفصلاً

\*\*\*

دور الخاصة { ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليهما زكا الاعور  
ودار حاجبه فيروز ودار سبأ الطوبل ودار كورة الخراساني  
ومنها قصر السلطنة بدمشق . وذكر ابن عساكر ان محمد بن عمرو بن حوى السكسكي  
كان في اقليم من اقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لهيا بينها وبين دمشق نحو ميل وكان  
له في هذا الاقليم عدة قصور مبنية بالحجارة والخشب الصنوبر العرعري في كل قصر  
منها بستان ونهر يسقيه وكانت كل جليل يقدم من الحضرة ( بغداد ) او من مصر



يريدها ينزل عنده وفي قصوره ، وكان ذلك في القرن الثالث . ومن قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح والي حلب في مدينة منبج وكان بناه لنفسه وأنشأ بستاناً الى جانبه . قال ابن الجوزي : هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفاً من الناس . وقصر بطيماص في حلب المذكور في شعر البحترى كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس وكان عامراً الى عهده برج من الحصن الذي كان بناه مسلمة بالناعورة وكان بنى فيها قصرأ بالشجر الاسود الصلد .

وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فننة القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو أحسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤنين كاننا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكاننا من أعجب البناء . احرقها المصريون لما حاصروا دمشق . واللؤلؤتات الصغيرة والكبيرة هما اليوم حدائق في ارض باب السريجة بينها وبين قرية كفر سوسة . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام قنطرة أحسن منها ويقال انها من المجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي : من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ، ومضاء همته ، ومستحسن ابتدائه ، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها ، وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها ، أنشيء ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام الحديثة على صيغة اخترعها ، وبنية اقترحها ، وصفة آثرها ، نجاءت في نهاية الحسن والطيبة ، والقويم والاعتدال . واشتهرت في القرن الخامس دار ابن عقيل صاحب صور ( ٤٦٥ ) دخلها أسامة ابن منقذ فراها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الايات :

احذر من الدينسا ولا      تغتر بالهمر القصير  
وانظر الى آثار من      صرعتنا منا بالغرور  
عمروا وشادوا ما ترا      من المنازل والقصور  
وتحولوا من بعد سكا      ناهها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس

تخرت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ ، وكانت أسامة قد غرّم عليها أموالاً عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطفيف ، وصح فيه قول القائل الحجر المصبوب في البناء أساس الخراب . وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .  
ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الشركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة المشيرية امس ودار الانداب في دمشق اليوم .

\*\*\*

تجديد المدن { من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية الصغيرة { والايوبية مثل حمّاء فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر ، وكان الصيت لخص دونها ، فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة ، والتصوير الفائقة ، والمساكن الفاخرة ، وفي جوامعها أثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على أنقاض الكاتدرائية القديمة ، ومنها ما حرق وخرّب واستعيب عنه مكاناً آخر ، مثل طرابلس ففي سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس وأخرّب سورها وكان من الأسوار العظيمة . وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس . وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ، ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة ما يورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها ، وحسن بنائها وترتيبها ، بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جليلة . وكانت على منبج سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما أصبح الآن كالقرى مثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين أبوابها ساعة على السائر ومثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها . مر اقدم سنة اربعين وستائة بقيسارية فوجد على حائط منها مكتوباً هذه الايات :



هذه بلدة قضى الله يا صاح عليها كما ترى بالخراب  
 فقف العيس وقفه وابك من كان بها من شيوخها والشباب  
 واعتبر ان دخلت يوماً اليها فهي كانت منازل الاحباب  
 وأزهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً  
 وأنشأ فيها مجاري المياه الغربية سيف في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها  
 من الحى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حملاً عظيماً أجمع  
 من رأه انه ما عمر مثله في البلدان ، وعمر قيسارية وطاحوناً وأنشأ للمالكة بها مساكن  
 حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ، ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها ،  
 وعمر بعض القلعة وأقام أبراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس -  
 قاله النوبختي .

\* \* \*

القلع والحصون وقلعة حلب ودمشق  
 في بر الشام كثير من القلاع من بناء القرن  
 الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد  
 قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بنى حسام بن مسمار النكلي  
 قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل مقدم العرب  
 عز الدين نجر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر . وذكر عليها اسمه  
 ونسبه . ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يُردُّ الى ابعد من هذا القرن والمهم من  
 اُبنيتها بدأ في عهد الاسلام .

وقلعة حلب أنعم ما في الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على اكمة ربما  
 كانت صناعية ، ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملأونه ماءً ليعمذروالوصول اليها  
 الا من مدخلها ، وهذا من أحسن ما يتصور العقل ، ويقال ان حلب القديمة كانت  
 كلها مبنية في هذه القلعة ، تعاورتها الايدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة  
 الى سنة ١٨٢٢ م ايام خربت بالزلازل . يسير الداخل الى القلعة على جسر بديع  
 أقيم فوق الخندق ، فيبلغ برجاً خارجاً جميل في واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع ،  
 قيل انه من عهد الملك الظاهر غازي ، لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة ٦٠٥

مع بعض الآيات الكريمة . وفي دهليز القلعة المنعرج عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر منها صورة نمرين على يمين الباب و يساره من أجل ما زيرت ابدي النقاشين على الصخور . فاذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وآثار عدة شوارع وركاماً من الأتقاض ، بعضها أتقاض جامع ومأذنة ، وأخرى أتقاض أروقة ، وأخرى محال لرصد العدو ، وفي الوسط صهريج كبير ينزل اليه بمئة وخمس وعشرين درجة ، وكان بها دير للنصارى ويقال ان في أساسها ثمانية آلاف عمود . تعاورها الملوك في الاسلام بالبناء والترميم . ومنهم الظاهر غازي الذي بنى على بابها برجين لم يبن مثلها قط وجعل لها ثلاثة أبواب حديد . وكان كثير من ملوك حلب يسكنونها . وذكر الغزي ان في قلعة حلب آثار عدة مساجد وانه كان فيها عشرة مساجد . قال الجالدي شاعر سيف الدولة في وصف هذه القلعة :

وخرقاء(?) قد قامت على من يرومها      برقيها العالي وجانبها الصعب  
يجر عليها الجو صيب غمامه      ويلبسها عقداً بانجمه الشهب  
اذا مامري برق بدت من خلاله      كما لاحت العذراء من خلل العجب  
فكم من جنود قد أمانت بغصة      وذو سطوات قد أبانت على عقب

ومثل هذا يقال في قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من بناء تاج الدولة نش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار أمانة وسكنها ، ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الامويين ، فخرّب القصر في بعض فتن الفاطميين . وفي سنة ٦٩١ هـ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبّة الزرقاء في قلعة دمشق ، فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع ، وأنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر . طولها من الشرق الى الغرب ٣٣٠ وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٧٠ خطوة . وقد خربت في أدوار كثيرة ثم أعيد بناؤها .

وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها ، حتى قلنا أذفت الألفة ، وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : ( ليس لها من دون الله كاشفة ) ، واستجلبت



عروس الطارمة عند زفيمها وقد تجهزت للحرب ، ولم ترض بغير الارواح مهراً ، وقد عقدت على رأسها تلك العصائب ، وقد توشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الابيض سوار النهر ، وغازلت بمواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال ، واهدت الى العيون من مكاحل نارها الحلالاً كانت السهام لها أميال ، وطلبها كل من الحاضر ين وقدغلا دست الحرب ، وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية ، وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية ، وتالله لقد حرست بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار ، وقد استيقظوا لجل قديمهم ولم أنم اعينهم عن الاوتار ، فأعيد روايتها التي كالجبال الشاسخة بن أسس المجوج ، وأحصنها قلعة بالسماء ذات البروج .

ووصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال : هو شجاً في الحناجر ، وقذى في المحاجر ، قد اخذ من الآمال بمخنفها ، وقد قام بارصاد العزائم وطرقها ، وصار ذنباً للدهر في ذلك الفج ، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج ، وهو وحصن الشوبك يسران من الآخر كبيت الواصف للاسدن :

ما مرَّ يوم الا وعندهما لحم رجال او بولغان دما

ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق . وهي أقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة ، دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيروت وهونين وتينين وكوكب وعجلون وقافون والصبيبة والصلت والمارونية وبيت لاه وحصن ابي قبيس وصافيتسا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصبيون وبغراس ودر بساك ودر كوش واسفونا وبسرفوت وبلاطس وحصن الاكراد وشيزر والمنيطرة والشعر وبكاس وأرسوف وبيت جبرين وحبرون وأرتاح والاثارب وبارين وبارة وإعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات وحبليا وعرقا وبرز به وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والحوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحصن وعكا والكرك

والشوبك وصرخد وأذرح وصفد وشميميس . ومعظمها نساطح السحاب بعلمها وتشبه  
الجبال بمئاتها . وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب : ووردنا  
حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها القمام عمامة ،  
وانملة ، اذا خضبها الاصيل كان الهلال لها فلاماة .

ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد نفرط بالنجوم ، ونقرطق  
بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ، ورسا اصله الى النجوم ، تحال الشمس اذا علت انها  
تنتقل في أبراجه ، ويظن من سها الى اليها انها ذبالة في سراجها ، لا يعلوه من نسر السما  
غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق مبرجات بوجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف  
من نجمه ، وحوله كل شاخ تهب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الريح حسرى اذا  
تعرفت في هضابه ، تخفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من الحاجر ، ويحيل الفكر  
صورة الترتي اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحاجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم  
منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .

ولقد بدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع  
الحرابي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يبتاعها . ومن كتاب فاضلي  
في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر أذرع  
وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها ومادونها وعدتها  
تزيد على عشرين الف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة  
دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها انوف الجبال  
الشم ، وقد جمعت سقيته بالكس وأحاطت قبضته بالحجر ، مازجه بمثل جسمه ،  
وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض  
لهدمه » .

\*\*\*

مثل التخريب في { وكثيراً ما كان ساسة هذه الديار يجربون الاسوار  
الحصون والبيع { والحصون لغرض من الاغراض ، كما خرب عبد الله  
ابن طاهر سنة ٢٠٩ سور معرة النعمان ومعظم الحصون الصغار . مثل حصن الكفر



وحصن حناك وحصن كيسوم وغير ذلك . وكما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى أواخر عهد المماليك الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لثلاثين عاماً فاستولوا عليها وبنقدهموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم ويممروا به بناءً هم الحديث . ولهذا أمثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر العباد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ، ونقلوا منه أحمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الاماكن ومحووا سنا المحاسن » وبظواهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاء مرصعة ، وبالوان الرخام مجزعة ، واجناس تصاويرها منقوشة ، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سيدي كافل الشام في الدولة الشركسية لما أراد بناء جامع في باب الجانبية خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما أرادوا في أواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعتها . وربه اهدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية دار ياليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء . ودار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلمات وسمها دار العدل كان يجلس فيها لفصل الخصومات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء . وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع ( على الليطاني ) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . ولاهل الخير في كل عصر اباد بيضاء في إقامة الخانات والفنادق بين البلاد ومنها خان بنه علي بن ذي النون الاسعدي في دمشق بقرب الكسوة اول مرحلة للحج الشامي وكان من كبار التجار وعمّر هذا الخان لنفع الناس . وما كان في قم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من أبراج حمام الزاجل لنقل الاخبار

في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المائلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد  
فلكي بناء المأمون فدثر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن  
عمران رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قدم .

\* \* \*

قلاع الصليبيين { دخلت الشام في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية  
وكنائسهم } وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور  
والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا . واعتم الصليبيون ببناء القلاع  
والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما في طرابلس وصور وانطاكية  
وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على  
الشام زمن توفرت اهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين . فان كل مستعمرة تجارية  
في المواني البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات .  
ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى .  
قال فان يرشم : ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية  
كما اثرت هندسة المدن الايطالية انكبرى في جميع المواني البحرية في الشام . وكان  
للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليسان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا  
كانوا اسبق أم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية  
ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية . وكان عدد الصليبيين من جمهوريات  
ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم . قال الاثري فان يرشم : لما كانت سواحل الشام  
محط رحال الصليبيين ، ونقطة حركاتهم الحربية ، تشبعت ابنيتهما بالروح الايطالي  
خصوصاً لان الطليان كانوا اذذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي .  
ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ، ومنها ما هو  
باقى مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها  
يقبل الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنيتهما وهندستها . ولا تزال قلعة  
الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعوا فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين  
على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ؛ ناطقة بلسان



حالفها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وأرواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان : الظاهر ان البناءات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكلين . وان البناءات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبان وكثيراً ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم - وكانت البلاد خاصة بها - تعمد ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت أهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بنعة هي أجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

\*\*\*

هندسة البيوت وبيوت دمشق وحلب  
لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوت في جبل حوران محفوظة على الصورة التي كانت عليها بنوافذها وابوابها الحجرية . وكما ادعى القرماني ان في اللجاة من البنين ما يعجز عن وصفه اللسان وكل دورها من الصخر المستحدث ليس في الدار خشبة واحدة بل كلها حجارة سوداء منحوتة ننوف على مائتي الف دار ( كذا ) كل دار منفردة عن الاخرى لا بلاصقها جدر أخرى ، وكل دار فيها حوش وبئر وله باب من حجر اذا أغلق ووضع خلفه حصة لا يمكن فتحه ابدأ من الخارج . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بمصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة ومنه مثال حي من المدارس والرُّبُط وغيرها في دمشق .

قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفي بطيقان للتهوية ولها فناء دار داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالا في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالباً . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وأزقتها غامة ، واكثر أسواقها مغطاة ، ولم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى أحسن من حمامتها ، ولا أعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جببر في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها ، وان كان الرخام بها اقل ، وانما هو أحسن أنواعاً . قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولم يفي بساكنهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب أجل بناء اعنائتهم بالحجر فدمشق أزين واكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها ، وتسليطه على جميع نواحيها ، ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل ، الا انه لا يغشى بالبيضا ويكتفى بحسن ظاهره ، واشرف دورها ما قرب ، واحل حاضرتها ما هو في جانبها اه . قلنا وهذا بنافي ما كان يراه العرب في تخير أماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلموا على ان الاطراف منازل الاشراف قال البحتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاط - راف ألمني منازل الاشراف

\*\*\*

نماذج من آثار الشراكسة { ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية  
والعثمانيين } والربوة والشرف الاعلى الشمالي والشرف  
الادفي الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار ارباب  
الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفن المتوازة ولم تقو على عوادي الايام حتى نحكم



على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كانت في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ابقاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد ( القرن الحادي عشر ) . وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغلى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً : ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وقد أنشأ العثمانيون بعض خانات في طريق الشام الى الروم وفي طريق الشام الى الحجواز وبعض قلاع وأبراج ومنها برج قلعة طرابلس فقد كتب على احد جدرانها بعد البسمة « رسم بالامر الشريف العالي السلطاني الملكي المظفري سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت اوامره الشريفة مطاعة في الامراء بان يحدد هذا البرج المبارك ليكون حصناً منيعاً على الدوام وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة ٩٢٧ وفي سنة ٩٦٧ امر السلطان سليمان بتمعيم قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنيق لكل قلعة واحدة بلقطنانة وثانية بمان الى ما وراء ذلك من ارض الشام، فعمرت ودام الانداع بها زمناً طويلاً .

وأثار العثمانيين في دمشق التكيان السلمانية والسلمية والجامعات السنانية والدرية يشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية . قال سو برنهم الاثري : ان عدد أعظما من مصانع حلب يرد الى زمن المالك والعثمانيين وماءدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطنون بنا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضائها تذكر حلب بصورة الناهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات وفي هذا المستشفى اثار بز ونقوش من اجمل ما نقش القاشون تزيده فجمعه بهجة للاظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني

وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يتصور اصول الهندسة  
لا في حلب فقط بل في شمالي الشام اه . ومن اجمل آثار الهندسة في حلب محراب  
مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين وهي ابنة ابي بكر  
ابن ايوب الملك العادل . ولو كتب البقاء على الاقل للقصر الذي بناه بقرية بطياس  
من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح  
خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالى بني حمدان وقصر سيف الدولة  
ابن حمدان الذي بناه بالحملة من ضواحي حلب وثنائي في حسنه وعمل له اسواراً وقد  
احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك او قصر آخر من قصور الحمدانيين  
— لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء  
في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق  
عن الطراز القديم . و يقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من  
القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب .

\* \* \*

هندسة الجسور { وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب  
الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري  
كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون ، وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي  
اقامه السلطان انطونيوس الحلبي الذي تملك على روميسة بعد المسيح بمائة واربعين سنة  
وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل  
الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلي قبليته على  
هذه الصورة : الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحلبي السعيد  
اغسطس كبير الجرمانين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق  
مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني . وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما اصلحه  
انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة  
حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .  
لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدماور



الجاري بين صيدا وبيروت ، ندبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الساحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال النقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وعمر الامير بشير الشهابي بابعاز من والي صيدا جسراً على نهر الدامور ايضاً فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فأتمه في شهرين وعمر عليه نحو مائة الف درهم . وكذلك جسر الظاهر برفوق الذي بناه على نهر الأردن (الشريعة) وطوله مئة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بني سلطاننا برفوق جسراً      بامر والانام له مطيعه  
مجاز في الحقيقة للبرايا      وامر بالمرور على الشريعة

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوفاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين ويؤمن من حره . وجدد سور قلعة حلب السلطان سليمان بن السلطان سليم في شهر المحرم سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكتب ذلك بالعربية .

\* \* \*

القاعات والقصور { من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى  
المعتبرة } القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر  
ومنها تعرف كيف كانت هندسة القوم في تلك العصور . فمنها القاعة المشهورة بباب  
جيرون وباب السلسلة أنشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق  
فانه تأتق في عمارتها بالقاشاني والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر  
(١٠١١) . وذكر الخياري انه كان في القرن الحادي عشر في المرجة بدمشق قصر مقابل  
القصر المنجكي قصر الباشا محمد بن الناشف وغير ذلك من العمارات والقصور  
الفائقة . وكان في الصاحية محل يقال له القصر عمره ابو البقاء الصفوري المتوفى  
سنة ١٠٣٥ وكان يقال له صاحب القصر وكان من احسن المنزهات وفيه بقول الامير  
المنجكي من قصيدة :

أقسمت بالبيت العتيق وما حوت بطحاؤه من حجره وحجونه  
ما ضمت الدنيا كقصرك منزلاً كلا ولا سمحت بمثل قطيعه

ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة ١٠٠٢ بقربة  
قب اليباس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحبي: لم يرسم  
مثلها، جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني، ونقل لها الرخام من بلاد السواحل  
والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤ بنى الامير منذر  
ابن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد النوخى سرايا عظيمة في قرية عبيه في لبنان  
وبقي مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان البنائون من اسلامبول . وامر  
الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١ بعمارة قاعة معظمة داخل  
دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على أسلوب عجيب ووضع غريب . وقال  
المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير نجر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية  
والتنظيم اصطبلاته وبطرته حتى أصبح يضرب الامثال في ذلك ، وعمر في بيت الدين  
قصرأ ملوكياً وجلب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال بعض المؤرخين جر  
الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا الى منزله  
في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي الف درهم وكانت  
جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير اجرة اكراماً له .  
ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً .

والمهندسون - في سراي بيت الدين ايطاليون والبنائون دمشقيون وحلبيون  
واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي أنشأها الامير  
بشير عمر الكبير ١٨١٠ وانتهت سنة ١٨١٥ وعلى جوانب هذا القصر اربعة جواسق  
بدبعة وله مدخل نفخ يبلغ علوه نحو ١٥ متراً كله بني بضر وب الرخام الوطني الغسالي  
الثلثي والاجنبي الفاخر ، مزين بنقوش ملونة ، وتمثل اشكالاً هندسية ونباتات وتصاوير  
شئى ، ولهذا المدخل افاريز لطيفة الصنع نظيف به على شكل الاقواس ، وفوقه شرف  
بنقاطيع جميلة والمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين وفي داخل القصر ديوان كبير  
واسع يعرف بقاعة العمود ، للعمود من الرخام المجزع في وسطه ، كان مفروشاً بالفسيخساء



والرخام وهو ملك الحكومة منذ سنة ١٨٦٠ . ومن الابنية التي اشتهرت قاعة حسين ابن قرق في صالحية دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ . وكان يضرب بها المثل وهي على الاربع في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . وكان ابن قرق عارفاً بالعلوم الغربية . مثل الطلسمات والتبرنجيات والاعمال العجيبة وكان صدر دمشق وعمر الاماكن البهية من جعلتها قصره وقاعته قال فيه مفني دمشق احمد الممندار مؤرخاً عام بنائه :

لقد شيد الشهم الحسين الذي له ما أثر مجد لا يحيط بها عدت  
بنساء الى اعلى السماكين ارخوا هي القاعة الحسنات فطالها السعد

( ١٠٧٧ )

ومن الدور القديمة في حلب وهو مما بني في القرن العاشر دار جان بلاط بن عربو وهي ملك آل ابراهيم باشا ذكر في اعلام النبلاء ان صدر ايوانها مبلط بالقاشاني على اختلاف انواعه والوانه على اشكال هندسية واوزاع بديمة احسكت فيه الصنعة ايما احكام قال ان رؤيتها تذكرك ايوان كسرى وعظمته . وذكر المحيي ان الوزير حسين باشا صاري احد ولاة دمشق المتوفى ( ١٠٩٤ ) عمر القصر المعروف به في طرف الشرف بالميدان الاخضر من دمشق وكان مكانه يعرف بالخانونية وتأنق في وضعه وغرس فيه انواع الاشجار من كل صنف وعزته عليه بدمشق بعض انواع الراكهة تجلبه من اماكن بعيدة .

ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير منصور الشهباني امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب منقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليها الرخام من بلادهما . قال المحيي :  
ولعمري انها ابدعا ونوعا واجادا في صنعها .

وذكر المؤرخون ان الامير نجر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضا انه بني عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ، ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فأحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي

المنار لأعمرك يادير بججر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن  
واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر ،  
وبني جميع الدور القديمة في دير القمر ، ووزع في جدرانها من حجارة عكار ، وهي  
الحجارة الصفراء الموجودة في الخراج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي  
باقية الى الآن .

\* \* \*

قصور القرن الثاني {  
عشر والثالث عشر { جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها (١١٦٣)  
وانتهت (١١٧٤) قيل ان ما أنفق عليها اربعمائة كيس ، كل كيس بمخمسائة قرش .  
وهذا اجور العملة . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه  
عدا من مخزوم للبناء من الباس . وكان عدد العملة ثمانمائة . قال ابن بدير : ان بانيتها  
جد في العارة ليلاً ونهاراً واحضر لها ١٢ الف عمود خشب عدا ما اهداه اياه اعيان  
البلد . واوعز الى الاطراف ان لا يباع القصر مل الا اليه ، وشغل غالب بنائي البلدة  
ونجارها ونقاشيها ، وجلب البلاط من اكثر دور المدينة وحيثما وجد بلاطاً ورخاماً  
واعمدة وفساقي يبعث بن يقتلعها ويعطي القليل في ثمنها . وكان على مقربة من مقبرة  
البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال لها قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء  
انهدم فأخذ انقاضه واخذ انقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كيوان  
ونقل من بصرى اجماراً وعمدأ من الرخام واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية  
عمدأ غلاظاً وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العارة وكان كله عقدأ بالاحجار ففكه  
واخذ احجاره كما نقل اجماراً من جامع بلغنا . وابنا مسمع ببلاط لطيف او عمد حسنة  
بأقي بها شراءً وبلا شراءً ويشغل العملة بكراء وبلا كراء .

قيل ان داخل هذه الدار اما كن عديدة لا تشبه الواحدة الاخرى ، وجميعها  
عمل بقاء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم . ونقل بعض السائحين  
ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت  
من الفناء والقاعات والزدهات والاهساء والنساق والفوارث والحمام من اللطف



ما هندس المهندسون في ذلك القرن وكذلك يقال في قصره في حماة وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصفرة . والقوش وأنواع الزينة فيها فارسية . فاستدل من ذلك ان القاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي . ومن أجل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة أكثر من اليوم على ما يظهر . ودار أسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتها وجعلتها مدرسة للصناعات الاسلامية ( حزيران ١٩٢٢ ) وقد حرقته فاعتها في ثورة سنة ١٣٤٤ هـ . ودار اسعد باشا في حماة اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً . ومن أجل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه « بوابته » وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه . ومن أعظم بهوت حلب القديمة سراي الحلبي كانت كل غرفة منها تضاهي داراً عظيمة استخرج منها مؤخر أخان وعدة دور . ومن أعظم خانات - لب خان الكرك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع في مثلها .

ومن أجل آثار ذلك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسيج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذلك القرن . ومن البهوت الجميلة قصور بني جنبلاط في الخنارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا . فان هذه القصور مثال من نفنن أعيان ذلك الزمان في نهجيد بهوتهم وحسن هندستها . وكانوا يبنون كما قيل بناء الجبارة وينقشون نقش الصياغ . وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام تراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في إعادة البهوت منذ القرون الاولى . وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن . وما دور بني مسسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتونني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزة في حلب ومصائب لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرها وبعض الدور المحدثه في دمشق الامثال منها . ومن أهم ابنية الشام المحدثه دير الكازانوف في الناصرة ، ودير الالمان ودير الروس في

القدس ، ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ،  
ومحطة السكة الحجازية في دمشق ، ومحطة سكة بغداد في حلب ، وغير ذلك من  
القصور الخاصة والفنادق والمدارس والملاجئ والميآم والمستشفيات في القدس وطبرية  
وبيروت ولبنان وغيرها . ومن أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي وشامية  
وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني . ومن الدر الحديثة قصر الامارة الجديد في  
عمان . ويسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منهما  
على الاغلب . واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها نبتو عنه العين والزخرف في  
داخلها قال المجهري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طامعاً والسنبر  
مشرفات على دمشق وقداء - رض منها بياض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى  
الصفرة او الحمرة ، فان القوم يستسهلون او يسترخصون البناء بالخشب واللبن او الحجر  
الاسود الناري فينبون به كما يبني اهل حمص بل اهل كل بلد كانت الحراء  
السوداء قريبة منهم . وأجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب . ولم يزل  
بناء بيت المقدس - كما قال القاسمي الفاضل - من الرخام الذي يطرد ماؤه ،  
ولا ينطرد لآلؤه ، قد لطف الحديد في تيزيمه ، وثخن في توسيعه ، الى ان صار  
الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيق ، فما ترى الا مقاعد  
كالرياض لها من بياض الترخيم رفرق ، كالاشجار لها من النبت اوراق . وان  
بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء  
فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطاريء طراً عليها .

\*\*\*

العمة في فلة { قلت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع  
قصور الافراد { والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد  
كانوا يفتنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب



الدولة او من كان يعد من جملتهم ، وكان سائر الناس يماذرون ان ننشأ لهم شهرة في الثروة ، والثروة تجلي في الدار والفرش والداية واللباس ، فيتظاهرون بالفقر ليحجوا من محالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم ، وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك . وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذلك الغني المحروم .

وفسدت الأذواق في البناء في العهد الاخير . وحسن الذوق تبع للحضارة في الامة فاذا تأخرت حضارتها كان الذوق من اول ما يفسد فيها . ولذا كان الناس يخربون العامر ويبنون بانقاضه . وكم أدركنا وأدرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر يدبع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته . وكم من كتابة تاريخية عني اثرها جهلاً وغباوة . اجتاز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شيث ظاهر معرفة النعان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شيث فراغني به زجل الاحجار تحت المساوئل  
 نابلها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل  
 أنثفها شلت يمينك خلفها لمعتبر او زائر او مسائل  
 منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار اطل من حديث المنازل

\*\*\*

الاحنفاظ بالمعاديات { وبعد فقد علمنا بما مر بنا ان الشام وافر المصانع  
 والمصانع { ابق في كل امة وكل جيل اثر من غناها  
 وعظمتها وان الخراب يتحيف أكثر هذه المعاديات لان حب الاحنفاظ بالقديم قد  
 ضعف فينا . ونرى ان الشام لا يحفظ بآثاره وينمى الا يوم ننشأ فيه ادارة للمعاديات  
 يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد ، فاحفظت بالبقية  
 الباقية من أعمال الغابرين ، وخدمت احباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين .

ولا يبحث عن العاديات في أصقاع الا اذا توفر للباحثين العلم بالآثار على احدث الطرق العلمية ، حتى اذا استخرج شي منها يضمن به فلا يصدر الى البلاد الغربية بل يحفظ في دور الآثار تراث الاجداد . وأم من هذا وذلك ان يتربى في الامة الذوق في الجمال ، وينشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ، ويعرف كل وطني معنى هذه التذكريات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال ، المنبعثة من ارجائها ربح فضائلهم ، المشبعة بانوار نبوغهم ، الصادرة من فيض قرائهم وعبقريتهم ، وعندئذ يصبح الشام كله متحقاً نفيساً دونه اجمل المتاحف ، وانتم بيت يجمع المفاخر والمآثر .

— — — — —

انتهى الجزء الخامس وبليه الجزء السادس وارله « التاريخ المدني —  
البيع والكنائس والديرة »



فهرست الجزء الخامس

« من خطط الشام »

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة	صفحة
٣٩	٣ (التاريخ المدني) « الجيش » -
٤١	٤ جيوش اليونان والرومان
٤٥	٥ جيوش العرب مع الرومي
٤٧	٧ بعض قوانين الجيش العربي
٤٨	١٠ تعبئة الجيش العربي
٤٩	١٢ شدة الامور بين ومثال من اوامرهم
٥١	١٧ ادوات التدمير والسلاح والمواصلات
٥٥	٢٠ الجيش على عهد ملوك الطوائف
٥٧	٢١ الجيوش الصليبية والتبرية
٦١	٢٢ اجناس الجيوش في القرون الوسطى
٦٤	٢٤ وجمعيات الفتوة
٦٥	٢٥ الجيوش العثمانية
٦٦	٢٩ الجيوش الحديثة
٦٧	٣١ (الاسطول) - بحرية الفينيقيين
٦٨	٣٢ بحرية الرومان واليونان
٦٩	٣٣ العرب والبحار
٧٢	٣٤ اول خليفة غزا البحر الشامي
٧٣	والبحرية الاموية
٧٤	٣٧ وصف اسطول شامي

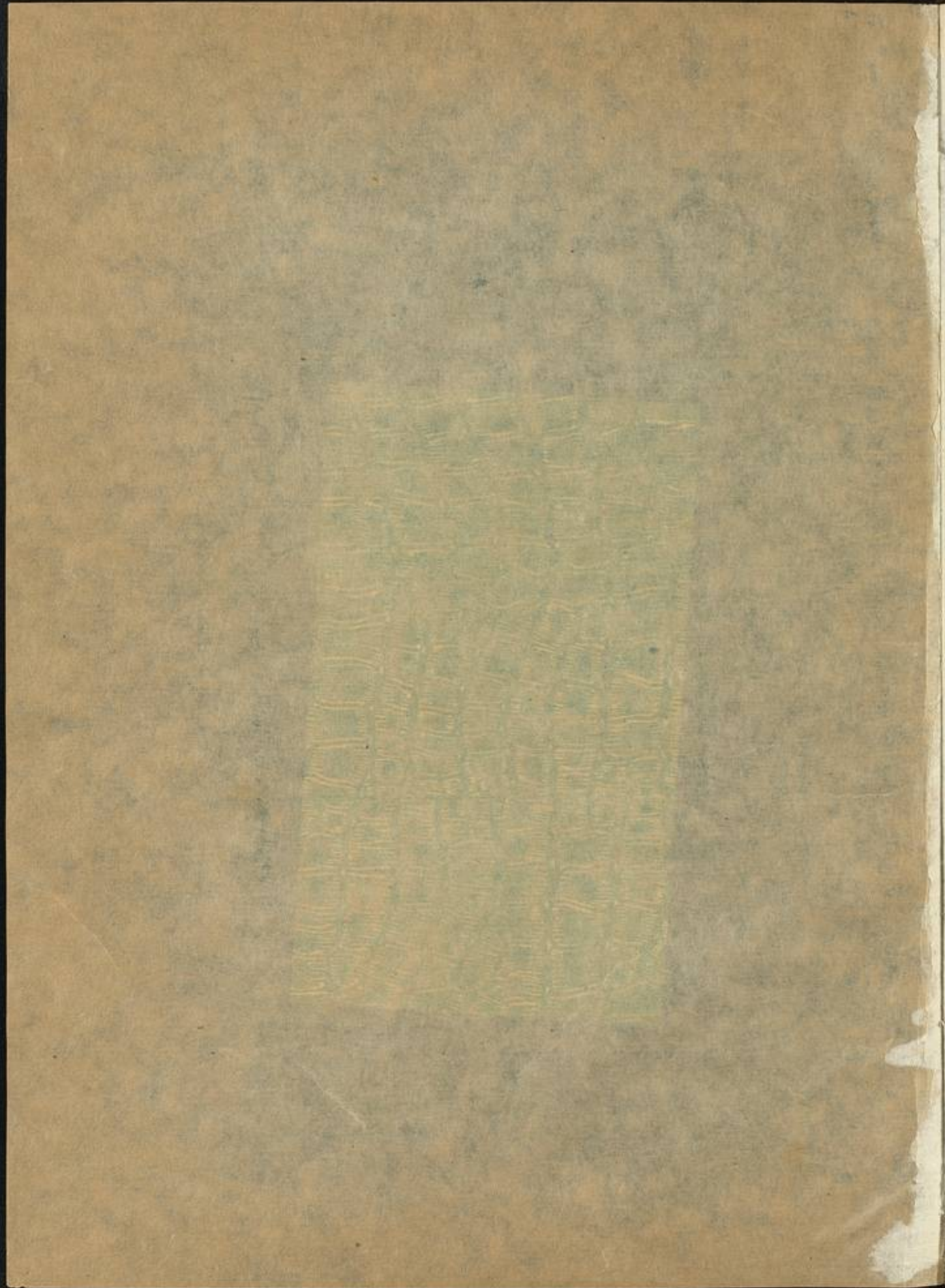
صفحة	صفحة
١٠١ ( الاوقاف ) — منشأ الوقف	٧٦ اسلوبهم في نشر الاوامر السلطانية
١٠٢ تعريف الاوقاف وطرقها	٧٧ غنى الشام في القرون الوسطى
١٠٣ اول اوقاف الشام	٧٧ المكوس على التجار
١٠٤ شرط الواقف وخراب اوقاف الشام	٧٨ رسوم غريبة
١٠٦ الثفنن في الاحباس والتلاعب بالموقوق	٨٠ ثفنن الشراكسة في اقتضاء الاموال
١١٠ اوقاف نور الدين وصلاح الدين ومن تقدمها وخلفها	٨١ الاموال اوائل العهد العثماني
١١٢ تكاثر الاوقاف ومضار الجمود	٨٣ الخراج والعثمانيون والستيف من ضرره
١١٣ تأثير الوقف في العمران	٨٥ ثفنن الجزائر في اخذ المال وطريقة العثمانيين
١١٣ الاوقاف عند قدماء العثمانيين	٨٧ الجباية على عهد المصريين والمقابلة بين طريقتهم وطريقة العثمانيين
١١٤ الوقف من مال غير محلل	٨٨ رأي انكليزي في اعنات البلاد بالضرائب
١١٦ مضار الاوقاف	٨٩ رأي مدحت باشا في مظالمهم
١١٦ منافع الاوقاف	٩٠ الاشتطاط في الاعشار والقسط في الجباية
١١٧ تقسيم الاوقاف واصلاحها	٩١ خراج الارض والعقارات
١٢٠ ضرر الحيل وانتهاك حرمة الاوقاف	٩٣ رسوم المواشي
١٢٣ مصائب الاوقاف	٩٣ الاعشار
١٢٤ اوقاف الذرية	٩٤ رسوم الجرك
١٢٥ الاوقاف في العهد العثماني الاخير	٩٦ الجمارك الشامية ووجوه نفقاتها وتوزيعها
١٢٨ الاوقاف بعد العهد التركي والى اليوم	
١٣٠ وسائل اصلاح الاوقاف	
١٣٥ ( الحسبة والبلديات ) — العرب دعاة مدنية	
١٣٦ تعريف الحسبة	٩٧ ضريبة التمتع
١٣٧ الحسبة تجمع الشرطة والصحة والبلدية وعملها	٩٩ الضريبة النسبية
	٩٩ الضريبة المقطوعة



صفحة	صفحة
١٨١	١٣٨
خط بيروت — المعاملتين	الحسبة قانون مدني
١٨١	١٤٠
خط دمشق — حوران	عمل المحتسب بحسب البلد
١٨٢	١٤١
خط دمشق — حلب	ثلاثة آراء في الحسبة
١٨٤	١٤٤
خط حمص — طرابلس	الحاجة والحسبة امس واليوم
١٨٤	١٤٤
طريق الحج وسبب انشاء الخط الحجازي	تأسيس البلديات
١٨٧	١٤٨
انشاء الخط الحجازي	النظام الجديد
١٩٧	١٥١
الخط الحجازي في عهد العثمانيين وغيرهم	تأثير البلديات في العمران
١٩٨	١٥٢
تقسيم الخط الحجازي	رأي في اصلاح البلدة
١٩٩	١٥٥
حالة الخط بعد دخول فرنسا دمشق	(الترع والمرافق والطرق) —
١٩٩	ترعة السويس
الخط الحجازي في شرقي الاردن	١٦٣
١٩٩	الترعة العظيمة عن طريق فلسطين
الخط الحجازي على عهد الحكومة الهاشمية	١٦٤
٢٠٠	الترعة بين البحر الابيض والخليج
الخط الحجازي في المؤتمرات	الفارسي
٢٠٠	١٦٤
الخط الجنوبي اليوم	مرفاً غزوة
٢٠١	١٦٥
نفقات الخط الحجازي	مرفاً يافا
٢٠١	١٦٦
اصلاح الخط الحجازي	مرفاً حيفا
٢٠٢	١٦٨
الخطوط الحديدية الفلسطينية	مرفاً عكا
خط يافا — القدس	١٦٩
٢٠٣	١٦٩
خط حيفا — دمشق	مرفاً صور
٢٠٤	١٦٩
الخطوط العسكرية الفلسطينية	مرفاً صيدا
٢٠٨	١٧٠
خط بغداد	مرفاً بيروت
٢١٣	١٧٣
الخطوط الحديدية بين الشام ومصر	فرصتا جونية وجبيل
٢١٤	١٧٣
الكهرباء وخطوط الترام في دمشق	مرفاً طرابلس
٢١٩	١٧٤
ترامواي حلب الكهر بائي	مرفاً اللاذقية
٢٢١	١٧٤
خط الترام في طرابلس الشام	مرفاً الاسكندرونة
	١٧٦
	الخطوط الحديدية
	١٧٧
	خط بيروت — دمشق

صفحة	صفحة
٢٦٦ المسجد الاقصى والجامع الاموي	٢٢١ الطرق العامة في الشام
٢٦٨ تاريخ الحرم القدسي	٢٢٣ طرق الشام
٢٦٩ المسجد الاقصى اليوم	٢٢٤ الطرق العامة
٢٧١ صفة المسجد لاقصى	٢٢٥ وصف حالة الطرق
٢٧٣ وصف المقدسي للمسجد الاقصى	٢٣٣ السيارات
في القرن الرابع	٢٣٥ ( البريد والبرق والهاتف ) —
٢٧٥ اصل الجامع الاموي	منشأ البرق « التلغراف »
٢٨٠ دور الامو بين ومصايفهم ومشايتهم	٢٣٦ الآلات والادوات والمخابرة
٢٨٣ عمل العباسيين	٢٣٧ احداث الهاتف « التلغون »
٢٨٤ آثار عربية محلية مبناء عكا	٢٣٧ منشأ البريد « البوسطة »
٢٨٥ القصر الابلق	٢٣٩ مراكز البريد والبرق في الشام
٢٨٧ المعاهد الدينية والمدنية في العمدين	٢٤١ ( المصانع والقصور ) — تقاسيم
النوري والصلاحي	المصانع وعظمتها
٢٨٨ عمران دمشق في القرون الوسطي	٢٤٢ مصانع الامم القديمة
٢٨٨ دور الخاصة	٢٤٣ هندسة الفيثيقين وآثارهم
٢٩٠ تجديد المدن الصغيرة	٢٤٤ عاديات الرومان
٢٩١ القلاع والحصون وقلعة حلب ودمشق	٢٤٥ عاديات البتراء وجرش وعمان
٢٩٤ مثال التخريب في الحصون والبيع	٢٤٨ وصف المحدثين خرائب جرش
٢٩٦ قلاع الصليبيين وكنائسهم	٢٥٠ عاديات تدمر
٢٩٧ هندسة البيوت وبيوت دمشق وحلب	٢٥٤ عاديات بعلبك امس واليوم
٢٩٨ نماذج من آثار الشراكية والعمانيين	٢٥٧ انطاكية وحمص واقامية والبارة ودمشق
٣٠٠ هندسة الجسور	٢٥٨ حوران ولبنان واقامية وغيرها
٣٠١ القاعات والقصور المعتمرة	٢٦١ الهندسة الشامية والكنائس والهياكل
٣٠٤ قصور القرن الثاني عشر والثالث عشر	٢٦٢ آثار العرب قبل الاسلام
٣٠٦ العلة في قلة قصور الافراد	٢٦٤ قصور العرب في الاسلام
٣٠٧ الاحتفاظ بالعاديات والمصانع	٢٦٥ عناية الامو بين ونفنتهم











COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0057067139

956.9  
K9654  
v. 5

07651937

956.9  
K9654 v5 C1

07651937

OCT 18 1957



